

كتاب
شرح دعائم الإيمان



كتاب شرح دعائم الإيمان

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين ، وأهل بيته المطهرين .

قول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام وتفسير ذلك ومخرجه من طريق الباطن ، وهو شرح باطن الإيمان ، وكمال أدب أهل المعرفة بالله وهم الفرقة الناجية ، وذكر خصوص الله لهم وَمَنَّهُ عليهم ، بما ابتدأهم من كثير رحمته وفضل ذخره لهم من مزيده ، والحجة البالغة لله على أهل المعرفة والعبودية ، القائمين له بالقسط في عبيده ، والذائدين عن حريم دينه ، والمعتبرين بما أغناهم به من فوائد مزيده ، وألهم قلوبهم من نور حكمته ، فهم يعبدون بضياء شرح قلوبهم المحكم من كتابه ، وأخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسنن الخلفاء الراشدين المهديين من بعده ، بما جعل في قلوبهم من الإلهام والفتن ، كمثل علي بن أبي طالب عليه السلام وعلى آل الطاهرين وأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ، وكذلك جميع المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان ، وصلى الله على محمد خاتم النبيين والمرسلين وآله الطاهرين ، والحمد لله رب العالمين .

بسم الله الرحمن الرحيم

حدثنا سويد بن سعيد الحدثاني عن عتبة بن أبي معاذ ، أن رجلا سأل علي بن أبي طالب صلوات الله عليه عن الإيمان؟

فقال: الإيمان على أربع دعائم: على الصبر واليقين والعدل والجهاد.

والصبر من ذلك على أربع شعب: على الشوق والإشفاق والزهادة والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ترقب الموت سارع إلى الخيرات.

واليقين على أربع شعب: على تبصرة الفطنة ، وتأويل الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين.

فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.

والعدل من ذلك على العبرة ، غائص الفهم ، وزهرة العلم ، وشرائع الحكمة ، وروضة الحلم.

فمن فهم فسر العلم ، ومن علم عرف شرائع الحلم ، ومن حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا.

والجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنأ الفاسقين.

فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه ، ومن شنئ الفاسقين غضب الله ، ومن غضب لله غضب الله له.

باب الإيمان

الإيمان على أربع دعائم ظاهرة وباطنة:

فظاهرة الإيمان قول وعمل ونية وسنة ، فهذه الأربع هي ظاهرة الإيمان ، قول باللسان ، وعمل بالجوارح ، ونية بالقلب ، وسنة وهي إصابة الحق. والأربع التي وصفها علي بن أبي طالب صلوات الله عليه في باطن الأمر وهي: الصبر واليقين والعدل والجهد. ومخرجها من هذه الأربع الظاهرة القول والعمل والنية والسنة ، فمخرج الصبر من النية ، وهو صبر القلب ، فظاهره نية وباطنه صبر ، ومخرج اليقين من السنة ، هو صواب الحق ، فظاهره سنة وباطنه يقين ، ومخرج العدل من القول ، فظاهره القول وباطنه العدل ، ومخرج الجهد من العمل ، فظاهره العمل بالجوارح وباطنه الجهد. فهذه الأربع التي ظاهرها ما وصفنا من علم الظاهر ، وباطنها من علم الباطن. فمعنى الإيمان على أربع دعائم ، يعني: على أربع أساطين ^(١) ، وإنما أراد به عليه السلام الإيمان قول وعمل ونية وسنة التي وصفنا ، فإذا كملت هذه الأربع بشرائطها من باطنها وظاهرها فهو كمال الإيمان ، وذلك روي عن علي رضي الله عنه ، وعبد الله بن مسعود ، أنهما قالاً: « لا ينفع قول إلا بعمل ، ولا ينفع قول وعمل إلا بنية ، ولا ينفع قول وعمل ونية إلا ما وافق السنة » ^(٢).

(١) الأساطين: جمع إسطوانة.

(٢) الكافي ٧٠/١ ، ووسائل الشيعة ٤٧/١ ، وأمال الطوسي ٣٣٧.

باب موافقة السنة

وموافقة السنة إصابة الحق ، وهو النور في القلوب الذي خص الله به أهل الحق ، وهم أهل المعرفة الذين خصهم الله بنور اليقين في قلوبهم ، فأصل المعرفة من اليقين هو النور الذي تصح فيه الأعمال ، وتكمل به الطاعات ، ويزقى به أهل المعرفة في الدرجات ، وقد ذكر الله ذلك في كتابه فقال جل ثناؤه: ﴿ أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِّن رَّبِّهِ ﴾ [الزمر: ٢٢] ، وقال جل ثناؤه: ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ ﴾ [النور: ٣٥] ، وقال جل ثناؤه: ﴿ أَوْ مَن كَانَ مِيتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ ﴾ [الأنعام: ١٢٢] الآية.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره: « إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب ، وانشرح له الصدر » ^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله في حديث حارثة: « من سره أن ينظر إلى رجل قد نور الله قلبه بالإيمان فليُنظر إلى حارثة » ^(٢).

وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه كان يقول في دعائه: « اللهم

(١) بحار الأنوار ١٢٢/٧٠.

وعن أبي جعفر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: ((إن الإيمان إذا دخل القلب انفسح له القلب وانشرح وذكر هذه الآية ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾

﴿ [الأنعام: ١٢٥]. قالوا: يا رسول الله وهل لذلك من آية يعرف بها؟ قال: نعم ، الانابة إلى دار الخلود ، والتجافي عن دار الغرور ، والاستعداد للموت قبل الموت)) . أخرجه ابن أبي شيبة في

مصنفه ٧٦/٧ (٣٤٣١٤).

(٢) الكافي ٥٣/٢.

اجعل لي نورا في قلبي ، ونورا في بصري ، وزدني نورا إلى نوري « ^(١) .
والأخبار في ذلك تكثر .

فهذا النور الذي يُصاب به الحق ، وتصح به الأعمال ، وتركو به عند الله لأهلها ، ويستوجبون بها الثواب عند الله ، وهي خصوص من الله لمن يشاء من عباده ، عندما يكون من قبول هدايته التي عمهم بها بقوله: ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ [الإنسان: ٢] ، أو بقوله: ﴿ وَمَا تَفَرَّقُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ ﴾ [الشورى: ١٤] ، وبقوله: ﴿ وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى ﴾ [فصل: ١٧] ، فمن قَبِلَ عن الله وعمل بطاعته ، كان من حكم الله تأييده ، والزيادة له من توفيقه . وكذلك أوجبه تعالى على نفسه بقوله: ﴿ وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى ﴾ [محمد: ١٧] ، وبقوله: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ﴾ [التغابن: ١١] ، وبقوله: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] . فمن قَبِلَ عن الله ما ابتدأه به زاده شرحا لصدره ، وتنويرا لقلبه ، وهم الذين شاء الله أن يمن عليهم بذلك بعد قبولهم .

وكذلك قال في كتابه: ﴿ قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ﴾ [إبراهيم: ١١] ، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله في حديث أبي بريدة عن أبيه قال: « القضاة ثلاثة ، فقاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل حكم بكتاب ربه وسنة نبيه فأصاب الحق فهو في الجنة ... » ^(٢) ، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام:

(١) مستدرک وسائل الشيعة ١٠٧/٥ ، وبحار الأنوار ٣٢٠/٨٤ .

(٢) أخرجه النسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٦١/ح ٥٩٢٢ ، وابن حبان في صحيحه ١٠/ص ٥١٠/ح ٤٦٥٣ ، والترمذي في سننه ج ٣/ص ٦١٣/ح ١٣٢٢ ، وابن ماجه في

« القضاة ثلاثة ، فقاضيان في النار ، وقاض في الجنة ، فأما الذي في الجنة فرجل قضى بكتاب ربه وسنة نبيه فأصاب الحق فهو في الجنة ، ورجل جَارَ في الحكم متعمدا فهو في النار ، ورجل حكم بغير علم فهو في النار. فقيل: ما بال هذا الذي اجتهد فأخطأ فهو في النار؟! قال: إذا لم يكن عالما لا يكن قاضيا »^(١). وقال حذيفة بن اليمان في حديث أبي موسى حين سأله رجل فقال: « أرأيت إن جاهدت بنفسي ومالي فقتلت في سبيل الله أين أنا؟ فقال له أبو موسى: في الجنة. قال له حذيفة: أفهم صاحبك واستفهمه ، فأعادها عليه ثلاثا ، كل ذلك يقول أبو موسى في الجنة. فقال حذيفة: إن جاهدت في سبيل الله بنفسك ومالك فأصبحت الحق فقتلت عليه ، فأنت في الجنة ، ومن لم يوافق الحق لم يوفق للصواب. فقال أبو موسى: صدق صدق »^(٢).



سننه ج ٢/ص ٧٧٦/ح ٢٣١٥ ، وأبي داود في سننه ج ٣/ص ٢٩٩/ح ٣٥٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ١٠٢/ح ٧٠١٢ ، ج ٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢/ص ٢٠/ح ١١٥٤ ، والقضاعى في مسند الشهاب ج ١/ص ٢١٠/ح ٣١٧ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج ١/ص ١٨١/ح ١٨٥ ، والبيهقى في سننه الكبرى ج ١٠/ص ١١٧/ح ٢٠١٤١ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ١٥٥/ح ٩٨٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٤/ص ٥٤٠/ح ٢٢٩٦٣.

(١) مستدرک وسائل الشيعة ١٧/٢٤٥ ، وبحار الأنوار ١٠١/٢٧٠.

(٢) لم أقف عليه.

باب الصبر

وهو أول الدعائم ، فالصبر منه على أربع شعب: على الشوق ، والشفق ، والزهادة ، والترقب. فمن اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ، ومن أشفق من النار رجع عن المحرمات ، ومن زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات ، ومن ترقب الموت سارع إلى الخيرات.

فالصبر من ذلك على ثلاثة وجوه:

فصبر عن المعصية وهو أول الوجوه.

والوجه الثاني: صبر على الطاعة.

والوجه الثالث: صبر على المحن.

باب الصبر عن المعصية

وهو أول الوجوه ، والصبر عن المعصية أن يكون العبد يهمل بمواقعة المعصية فيذكر عقوبة الله له عليها فيدعها خوفا من العقوبة ، ويخالف هواه ويصبر على مخالفة الهوى عند وقوع الشهوة ، فينظر الله إليه عند ذلك مجاهدا لنفسه ، مخالفا لهواه ، تاركا لشهوته ، عند القدرة عليها والتمكّن منها ، فيرحمه الله عند ذلك فيصرفها عنه بفضله وعصمته ورحمته.

ويستعان على مثل هذا الوقف بالحياء من الله والمراقبة لله ، ومن ذلك ما روى مجاهد أنه قال في قوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٌ ۖ﴾ [الرحمن: ٤٦] ، فقال: هو العبد يهمل بمعصية فإذا أراد أن يواقعها ذكر مقام الله عليه ، فيدعها خوفا من الله فله الجنّتان.

وقال تبارك وتعالى في قصة يوسف يخبر عن قول النسوة: ﴿حَسَّ لِلَّهِ مَا

عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ ﴿ [يوسف: ٥١] ^(١) ، وقال في صرف المعصية عنه قال: ﴿ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴾ [يوسف: ٢٨] ، فكان ذلك مئاً من الله عليه حين ذكر وخاف مقامه ، وتمكن الحياء منه ، فقال: ﴿ قَالَ رَبِّ السَّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣] ، فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن ، وقال جل وعز: ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤] . وهكذا ضمن الله سبحانه لمن اعتصم بحبله ، وراقبه وخاف مقامه ، واستحيا منه ، بقوله: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ ثَبَاتًا ﴾ وَإِذَا لَا أَتَيْنَهُمْ مِنْ لَدُنَّا أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ وَلَهَدَيْنَهُمْ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ﴾ [النساء: ٦٦-٦٨] . فضمن تبارك وتعالى العصمة والهداية لمن تمسك بطاعته ، وخاف مقامه ، وعظم أمره ، ولم يستخف بعذابه ، والله منجز وعده ، وغير مخلف وعيده . وكان يوسف عليه السلام ممن استحق ذلك لتمسكه بالطاعة ، وكان بذلك من أهل العصمة والتوفيق .

وقال ابن عمر: عن النبي صلى الله عليه وآله أنه « كان رجل في بني إسرائيل يقال له: كفل ، لا يترع لله عن محرم ، فراود امرأة على نفسها وأعطاهما ستين دينارا ، فلما قعد منها مقعد الرجل من أهله ، ارتعدت ، فقال لها كفل: ما لك أكرهتك على شيء؟! قالت: لا ، ولكن هذا عمل ما عملته قط ، وإنما عملته من الحاجة ، فقام كفل عنها وقال: يعطي الله عهدا لا يعصي الله بعده

(١) في المخطوطتين: ﴿ تالله ما علمنا ... ﴾ .

أبداً ، فمات في ليلته فأصبح مكتوباً على بابه: إن الله قد غفر للكفل»^(١).
 فذلك معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: «من أشفق من النار رجع
 عن المحرمات» ، يعني: من خاف عقوبة ربه على المعصية صبر على تركها ،
 ورجع إلى التوبة ، فإذا كان كذلك فهو راجع عن المحرمات.

باب الصبر على الطاعة

وهو الوجه الثاني ، والصبر على الطاعة أن يكون العبد [شغوفاً] بالطاعة
 ويرغب فيها وبها ، ويعلم أن الله وعد عليها الثواب ، وكل عامل إنما يعمل
 في ثواب قد أُعدَّ له ، وتقدر معرفته بالثواب بصبره [هـ] على الطاعة ، ويرغب
 في ثوابها ، فإذا كان كثير المعرفة بالثواب دامت طاعته ، واجتهد في الازدياد
 فيها ، ومالت عنه الفترة والملالة ، وصبر على المشقة والشدة في طول المجاهدة
 ، حتى يصير إلى درجة الطمأنينة وخفة المكابدة ، والتنعم بالطاعة بعد شدة
 المجاهدة ، فإذا وصل إلى ذلك شاهد الثواب بقلبه كأنه رأي عين ، فعند ذلك
 ينعم بالطاعة ويتلذذ بمشقتها^(٢) على بدنه ، وأورثه حب التنعم بالطاعة
 الاجتهاد في دوامها ، وصارت له عادة حتى كأنه لا مجاهدة عليه لما سهل عليه
 من مجاهدتها ، فصارت العادة كأنها خلق من أخلاقه لا يعملها ولا يفتر عنها ،
 ويرى النقصان في الغفلة ، وذلك أن العادة تقوم مقام الطبيعة لدوام العادة
 وخفة المكابدة ، فذلت النفس وأجابت إلى دوام الطاعة بعد الصعوبة ،
 وانقادت بعد عصيان ، وتلكئ وشدة المحنة^(٣) فعتقوا من رقِّ النفوس ومن

(١) أخرجه أبي يعلى في مسنده ج ١٠/ص ٩٠/ح ٥٧٢٦ ، وابن حنبل في مسنده
 ج ٢/ص ٢٣/ح ٤٧٤٧ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٢٨٤/ح ٧٦٥١ ، وأبو يعلى في مسنده
 ج ١٠/ص ٩٣/ح ٥٧٢٦ ، وابن الشهاب في مسنده ١/ص ٢٢٦/ح ٣٤٨.

(٢) في (أ) و(ب): لمشتقتها.

(٣) في (ب): العصيان وتلكئ.

أسر الهوى ، وذلك كله بالصبر على المكاره الذي عرّفهم بثواب الصبر ، وهو ميراث الأعمال ، فصدّق ذلك ما روي عن ثابت البناني أنه قال: « كابدت العبادة عشرين سنة ، وتنعمت بها عشرين سنة »^(١).

وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « حفت الجنة بالمكاره ، وحفت النار بالشهوات »^(٢) ، يعني: حفت الجنة بالصبر على المكاره ، وحفت النار باتباع الشهوات.

وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديثه أنه قال: « يا علي إن استطعت أن تعمل في الرضا باليقين فافعل ، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير »^(٣).

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ٢٣٨٠/ح ٦١٢٢ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢١٧٤/ح ٢٨٢٢ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٩٣/ح ٧١٦٢ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٩٣/ح ٢٥٥٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٦٠/ح ٧٥٢١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٣٣٢/ح ٥٦٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٦/ص ٣٤/ح ٣٢٧٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٣٩١/ح ١٣١١ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٤٣٧/ح ٢٨٤٣.

(٣) ورد بلفظ: عن علي بن أبي طالب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن العباس: ((احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجده أمامك ، تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة ، وإذا سألت فاسأل الله ، وإذا استعنت فاستعن بالله ، جف القلم بما هو كائن إلى يوم القيامة ، فلو جهد الخلائق أن ينفعوك بشيء ، لم يكتبه الله عليك لم يقدرُوا ، فإن استطعت أن تعمل لله بالرضا باليقين فاعمل ، وإن لم تستطع فإن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا ، واعلم أن النصر مع الصبر ، وأن الفرج مع الكرب ، وأن مع العسر يسرا)) . أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج ١/ص ٤٤١٦٥/ح ٤٤١٦٥.

وقال عمر بن عبيد العزيز: الرضا ليل ، والصبر مُعَوَّل المؤمن ، قال الله تبارك وتعالى: ﴿أُولَٰئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا مَنَاجِيَهُ وَسَلَامًا ۖ﴾ [الفرقان: ٧٥].

وقال في قصة علي بن أبي طالب عليه السلام وفاطمة ابنة النبي رضي الله عنها: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۖ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكْرًا ۖ﴾ [الإنسان: ٨ - ٩] ، فأخبر أنهم إنما أطعموا لوجهه خالصا ، وذلك لكثرة معرفتهم بثواب ربهم ، وإيثارهم لمحبه وطاعته ، وبما يعلمون^(١) من واجب حقه على عظيم نعمته ، فقال تبارك وتعالى: ﴿وَجَزَّاهُمْ بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۖ﴾ [الإنسان: ١٢] ، وقال: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ۖ﴾ [الزمنون: ١١١] ، ونحو هذا في القرآن كثير ، لما^(٢) كثرت معرفتهم بواجب حق الله وعظم ثوابه أحلصوا له العمل ، فأورثتهم إخلاص العمل دوام الطاعة والتلذذ بها . فمن ذلك قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه في حديث كميل بن زياد: « فاستلنوا ما استوعره المترفون »^(٣).

ومن ذلك قول عيسى عليه السلام: « خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة ، ويباعدان من زهرة الدنيا »^(٤).

ومن ذلك حديث عمر بن الخطاب « حين دخل على النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو نائم على سرير مزمل بشريط ليس بين جنب النبي وبينه شيء ،

(١) في المخطوطات: يعملون. والصواب ما أثبت.

(٢) في (ب) و(ج): بما.

(٣) نهج البلاغة ، قصار الحكم / ٤٩٥.

(٤) من أقف عليه.

فلما استوى النبي صلى الله عليه وآله وسلم جالسا ، ورأى عمر أثر الشريط في جنبه عليه السلام فبكى عمر ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: ما يبكيك يا عمر؟ فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يتقلبون في الحرير والدياج وأنت يا رسول الله أكرم الخلق على الله لا تجد ثوبا نظرحه تحتك!! فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: يا عمر أي شك أنت؟! فقال له: لا والله. فقال له النبي عليه السلام: ألا ترضى أن تكون لنا الآخرة ولهم الدنيا «^(١)

ومن ذلك حديث عائشة قالت: « سترت السهوة بقرا ، فراءها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فدخل مغضبا وهتكها ، وقال لي: يا عائشة إن الله لم يوح إلي أن أكسو اللبن والطين «^(٢).

(١) ورد بلفظ: عن جندب قال: ((أصابت إصبع النبي صلى الله عليه وسلم شجرة فدميت ، فقال: هل هي إلا إصبع دमित ، وفي سبيل الله ما لقيت ، فحمل فوضع على سرير مرمول بخصوص أو شريط ، ووضع تحت رأسه مرفقه من آدم حشوها ليف ، فأثر الشريط في جنبه ، فحاء عمر بن الخطاب فبكى فقال: ما يبكيك. فقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يجلسون على سرير الذهب ويلبسون الدياج والإسترق. قال: أما ترضون أن لهم الدنيا ولكم الآخرة)). أخرجه البخاري في صحيحه ج٣/ص١٠٣١/ح٢٦٤٨ ، ومسلم في صحيحه ج٣/ص١٤٢١/ح١٧٩٦ ، وابن حبان في صحيحه ج١٤/ص٥٣٩/ح٦٥٧٧ ، والترمذي في سننه ج٥/ص٤٤٢/ح٣٣٤٥ ، وابن حنبل في مسنده ج٤/ص٣١٢/ح١٨٨١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج٢/ص١٧٥/ح١٧١٩ ، والطيالسي في مسنده ج١/ص١٢٦/ح٩٣٧ ، والحميدي في مسنده ج٢/ص٣٤٢/ح٧٧٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج٦/ص١٤٤/ح١٠٣٩٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج٧/ص٤٤/ح١٣٠٧٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج٣/ص١٠٢/ح١٥٣٣.

(٢) ورد بلفظ: عن عبد الرحمن بن القاسم ، عن أبيه ، أنه سمع عائشة تقول: ((دخل علي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد سترت سهوة لي بقرام فيه ثماثيل ، فلما رآه هتكه وتلون وجهه ، وقال:

ومن ذلك حديث أم سلمة رحة الله عليها قالت: « لبست ذهبية في أذني - تعني سفالها - قالت: فنظر إليها النبي عليه السلام فأعرض عني!! فقلت: يا رسول الله ألا تنظر إلى ذهبي؟! فقال: عنها أعرض »^(١).

يا عائشة أشد الناس عذابا عند الله يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله. قالت عائشة: فقطعناه فجعلنا منه وسادة أو سادتين)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١١٧٩ ح ٣٠٥٣ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٦٦٨ ح ٢١٠٧ ، والنسائي في سننه ج ١/ص ١٤٢ ح ٢٦١ ، وابن حبان في صحيحه ج ٤/ص ٧ ح ١٢٠٥ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ٢/ص ٢٩ ح ٨٤٤ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ١١٥ ح ٢٨٠٤ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٢٠٣ ح ٣٦٤٩ ، وأبي داود في سننه ج ١/ص ٥٨ ح ٢٢٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٨٣ ح ٦٣٢ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٩٦٦ ح ١٧٣٤ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ٢٧٨ ح ٦١١ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج ٤/ص ٢٥٥ ح . ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٧ ح ١١٠ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ٢٠٦ ح ٤٣١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٤/ص ١٢٢ ح ٣٨٦٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ١٢١ ح ٢٥٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ٢/ص ١٥١ ح ١٠٨٦ ، وابن راهويه في مسنده ج ٢/ص ٣٧٥ ح ٩١٩ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ج ٣/ص ٤٤٦ ح ١٨٩٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ٢٦٦ ح ٣١٣ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٣٥٥ ح ٢٤٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ١٩٨ ح ٢٥١٩٢ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٧٠ ح ٢٦٦٣ ، الطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٩٠ ح ١٣٤٤ .

(١) ورد بلفظ: عن أم سلمة قالت: ((لبست قلادة فيها شعرات من ذهب فرآني النبي صلى الله عليه وسلم فكرهها فأعرض عني فترعتها ، فقال: ما يؤمنك أن يقلدك الله مكانها يوم القيامة شعرات من نار)) .

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج ٢٣/ص ٤٠٣ ح ٩٦٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ٦/ص ٣٢٢ ح ٢٦٧٧٨ .

وكذلك أمر الله نبيه عليه السلام أن يعرض عنها بقوله: ﴿فَاعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [النجم: ٢٩] ، وقال: ﴿وَلَا تُمَدِّنْ عَيْنَيْكَ إِلَى مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ [طه: ١٣١] ، أي: تمتحنهم ، فمباحها فتنة وحرامها نقمة ، قال تعالى: ﴿وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ [الشورى: ٣٦] ^(١) ، أي: ثواب ربك.

وقال: ﴿يَأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِنْ كُنْتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ [النساء: ٣٤] وإن كُنْتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْدارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنْكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٨ - ٢٩]. وذكر عن علي في خير ذكر عنده الطعام ، فقال: لنا دار غير هذه الدار ، وكان لنا جل متاع فقدمناه إلى تلك الدار ، التي نريد المقام بها ، وكذلك من أحب متاعا أحب اللحوق به ، ثم قال علي بن أبي طالب عليه السلام: إني سمعت الله ذم أقواما فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال أبو بكر حين استشفى فَأَتِي بغسل وماء فانتحب ثلاثا ومسح بوجهه ، فقال زيد بن أرقم: فقل له: « ما يهيجك على البكاء؟! فقال: إني كنت مع رسول الله صلى الله عليه فرأيتُه يقول: إليك عني ، ولا أرى شيئا ، فقلت: يا رسول الله إنك تقول: بيدك إليك عني ولا أرى شيئا!! فقال عليه السلام: نعم يا أبا بكر ، هذه الدنيا تمثلت لي في زينتها وزهرتها فقلت: إليك عني ، وهي

(١) في المخطوطتين: ﴿ورحمة الله خير وأبقى﴾.

تقول: والله يا محمد لئن سَلِمْتَ عني فلم تسلم أمتك من بعدك ، وأخاف أن تكون قد لحقتني ، فذلك الذي هيجني على البكاء»^(١).
والأخبار في هذا كثير ، فهذا قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات » ، لسهولة المكايمة وخفة المشقة عليه ، لكثرة معرفته بما وعد من ثواب ربه.

باب الصبر على الامتحان

وهو الوجه الثالث ، وهو أشرف الوجوه وأغلاها والصب على الامتحان بالصدف في مواطن الامتحان.

ومنها: الامتحان بالأمراض والمصائب.

ومنها: الامتحان بالضيق والشدة.

ومنها: الامتحان بالاختلاف والتحير ، فيحتاج أهل المعرفة بالله إلى الصبر في كل موطن في هذه المواطن ، وأن يستعملوا العلم في تلك المواطن ، ويصبروا على ما امتحنوا ، ولا يستخفّنهم الجزع فيخرجهم إلى موضع السخط ، فيزول عنهم الصبر بإشهاد^(٢) عن الجزع ، وذلك ميراث من الصبر على الحن ، الخروج بالسلامة والقيام لله بقسطه على النحو الذي يرضيه ، مع صواب الحق فيه ، والخروج من مواضع الحن ، فالجزع السخط والتفريط وزوال الثواب ، وأهل المعرفة بالله يعرفون بأنوار قلوبهم موقع كل محنة ، فيستعملون لكل موضع آله^(٣) من العلم فبذلك صاروا أهل المعرفة بالله.

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ): باسهان. وفي (ب) و(ج): باستهان. غير أن الحرف الأخير مهمل ، فلم يتضح لي معناها.

(٣) في (أ) و(ب): إليه. مصحفة.

باب الامتحان بالصدق في مواضع المحن

إن المؤمنين لما علموا أن الله جل ذكره لا يُنال ما عنده إلا بالصدق والقيام بأمره ، وأنه لا يملك معه أحد ضرا ولا نفعا فيما يريد أن يتولاه منه بالامتحان للبلوى ، فيثقوا بالله في أحوال الصدق ، ويؤثرونه على الكذب ، إذ علموا أن الله وحده لا شريك له هو المالك لضر الدنيا والآخرة ، وأنه لا يملك أحد معه من ذلك شيئا ، إذ كان يصرف بها ذلك مما لا يدخل قدرة عباده ، وما مكنهم من فعله ، لأنهم إنما مكنوا من فعل ما أمروا به ونهوا عنه ، وإذا استعملوا هذا العلم مع علمهم أن الله لطائف عنهم كيد أعدائهم ، انقطعوا إليه في صرف ذلك دون من سواه ، فزال عنهم الجزع بالانقطاع إليه ، وآثروا القيام لله بقسطه على جميع خلقه ، فزال عنهم المداهنة ، وكانوا كمن وصفه الله من المؤمنين الذين وصفهم فقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣ - ١٧٤] ، وهذا عاقبة التوكل على الله.

باب الامتحان بالمصائب والأمراض

ومنه: الامتحان بالمصائب والأمراض ، فيصبروا على ذلك ويعرفوا أبواب ما عرفوا من نعمة ربهم عليهم فيما ابتلاهم وامتحانهم نظرا منه لهم واختيارا لهم ، فعليهم الصبر على ذلك والتسليم لما اختار ربهم لهم ، حتى أورثهم ذلك الرضا عن ربهم ، وترك الاختيار عليه ، لما هو أهل لقولهم وأقرب إلى ربهم ، إذ علموا أنه أنظر لهم منهم لأنفسهم ، وأنه أعلم بما يصلحهم ويصلح شأنهم ، فيما هو أصلح لقلوبهم ، وأقرب إلى ربهم منهم بأنفسهم ، فإذا استعملوا هذا العلم في هذا الموضع طابت أنفسهم بربهم بالصبر على ما امتحنوا به ، وأوثق في محبته ، وأعطاهم جزيل الثواب في عاجل دنياهم وآجل آخرتهم.

باب الامتحان بالصبر والشدة

فعليهم الصبر على ما امتحنهم من ذلك ، والرضا بما اختار لهم على الرضا منهم ، والسرور بما خصوا به من فضله ، والدرجة التي أعطاهم من كراماته ، أن من عليهم بدرجة الأنبياء والصديقين قبلهم ، فنظر لهم فأباد عنهم الكثرة ^(١) التي هي امتحان وفتنة ، ودرجة الأسفلين من خلقه الذين خلئ بينهم وبين ما اختاروا من سعة الدنيا اختيارا وبلوى ليفتنهم فيه ، أي: يمتحنهم فيه ، كما قال الله تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ لَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرَزَقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ۝ ﴾

[طه: ١٣١] ، وهذا المعنى بعينه روى عن بعض سلفنا أنه قال: « نعمة الله علي فيما زوى عني من الدنيا ، أعظم عندي مما أعطاني منها » ^(٢).

فيجب على أهل المعرفة والعبودية له أن يعرفوا فضل ما أنعم به عليهم فيما زواه عنهم من فضول الدنيا ، فيشكرونه على نعمه ، ويتبذلون له بحسن التواضع إليه في طلب المزيد من ذلك ، فأكرمهم ورفع أقدارهم عن رجس الدنيا وفضولها ، وأعناهم بفضله وإحسانه ، فهم أحرار كرام بررة أعزاء في الدنيا والآخرة ، فإذا استعمل أهل المعرفة بالله هذا العلم في هذه المواطن أورثهم ذلك الحب لله ، واستجلاب الزيادة من الصبر بالحنين إلى الله ، في تمام النعمة عليهم ، وأن لا يسلبهم ما من به عليهم ، فحينئذ عرفوا شكر النعم فطابت لهم الحياة الدنيا والنعيم بالعبادة ، إذا رفضوا كل قاطع دونها من مباح الدنيا وغيره ، فأولئك حزب الله في الدنيا والآخرة ، وحزب الله هم المفلحون.

(١) في (أ) و(ب): الكثرة.

(٢) لم أقف عليه.

وفي ذلك ما روي عن جعفر بن محمد الصادق عليهما السلام أنه قال: « إن الله أكرم الفقراء بخمسة أشياء:

أولها: فراغ القلب.

والثاني: راحة البدن.

والثالث: سرعة الحساب.

والرابع: خدمة العزيز الجبار.

والخامس: درجات العلى في الثواب «^(١).

باب الامتحان بالاختلاف والتحير

ومنه: الامتحان عند الاختلاف والتحير في أمر الدنيا خاصة بأهل المعرفة بالله والقبول عنه ، هم الذين يقفون عند التشبهة إذا عرضت أو حيرت فتنة ، لأن المؤمن وقافٌ عند الشبهات ، فإذا همَّ بأمر نظر فإن كان طاعة لله أمضاه ، وإن كان معصية وقف ، فلما كانت هذه صفتهم صاروا أعلام هدى بما جعل الله في قلوبهم من نور الحكمة ونور التقوى ، فيتخذون الحق سُلماً يرقون إليه مع نفاذ البصيرة ، إذا ارتاب المبتلون وتحير الجاهلون ، ويعضون على الصبر على الحق بالنواجذ ، ويلزمون محكم القرآن والسنة فيما لا يُدرك علمه إلا من قبلهما ، ولا يتبعون متشابه القرآن ابتغاء الفتنة ، عرفوا ربه بما أقام لهم من الدلائل في سماواته وأرضه ، وما بث بينهما من دابة ، فلا يحدث عند ذلك من رأيهم بدعة ، ولا يتكلفون ما لم يكلفوا علمه ، يتكبون سبل أهل البدعة ، وينتخبون طريق أهل الحيرة ، لمعرفتهم لله بنفي شبه الخليقة عنه ، ووصفهم له بالعدل والإحسان إلى جميع خلقه ، وترثتهم له عن ظلم عبيده ، وتكليفهم إلا اليسير من طاعته ، وتثبيتهم له الصدق في وعده ووعيده ، والقيام له بما

(١) لم أقف عليه.

يوجب الحكم عن جميع عبيده ، والصبر منهم على ذلك ، وبذل النفوس فيما يرضاه سيدهم بنية صادقة ، حتى يأتيهم اليقين.

فهم عند ذلك أمناء الله الذين استودعهم علمه واختصهم بهداية خلقه ، فهم يتناصحون به بينهم بحسن العشرة ، والدعاء إلى سبيل الله بالموعظة الحسنة ، والحجة البالغة ، وهم أهل المعرفة الذين وصفهم في كتابه فقال جل ثناؤه: ﴿ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴾ [١١٨] إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ ﴿ [مرء: ١١٨ -

١١٩] ، وقال الحسن: « إلا أهل الجنة فإنهم لا يختلفون ولذلك خلقهم » ^(١). فهؤلاء لا صفوة الله من خلقه ، وأهل الرسوخ في علمه ، فإذا كانوا كذلك جعلهم أئمة يقتدى بهم ، فَسَاسَهُمْ بَصْنَعِهِ وَلَطْفِهِ ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله ، والله الموفق. فهذه الأربع الخصال التي قد امتحن الله بها أهل المعرفة قد فسرناها ، والحجة في ذلك من الله وفضله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون.

فمن ذلك ما جاء عن الله في كتابه ، وعن الرسول عليه السلام في أخباره ، وما مدح به الصابرين من أوليائه ، مع ما ذكر لهم من جزيل الثواب ، قال الله جل ثناؤه: ﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، مدحهم بذلك ، وقال في ذكر أيوب عليه السلام وما مدحه به من الصبر ، فقال: ﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نَعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴾ [ص: ٤٤] ، وقال: ﴿ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ﴾ [الزمر: ١٠] الَّذِينَ

(١) أخرج ابن المنذر قال: كان يقول الحسن: ((فريقا في الجنة ، وفريقا في السعير)) . الدر المنثور ٤٩٢/٤ .

وأخرج ابن جرير ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الحسن أيضا في الآية ((الناس مختلفون على أديان حتى ، إلا من رحم ربك غير مختلف)) . الدر المنثور ٤٩١/٤ .

إِذَا أَصَبْتَهُمْ مُصِيبَةً قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٧﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ
صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ [البقرة: ١٥٧-١٥٨]،
فهذا ما أعد الله لهم من جزيل الثواب

وقال تعالى لنبيه عليه السلام: ﴿ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴾ ﴿١٥٩﴾
[النحل: ١٢٦] ، ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧] ، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ
صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ﴾ [الرعد: ٢٢] ، ونحو هذا في القرآن
كثير ، ما روى أنس بن مالك عن النبي عليه السلام قال: « جاءت الأنصار
إلى النبي حين أصابتهم الحمى ، فقال لهم النبي عليه السلام: هذه الحمى
جاءتني فبعثت بها إلى أحب الخلق إلي وهم الأنصار. فقالوا: يا رسول الله ادعُ
الله أن يذهبها عنا. فقال لهم النبي: تحبون أن أدعو الله أن يذهب بها عنكم ،
أو تصبروا وتكون لكم طهورا. قالوا: بل نصبر » ^(١).

وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه جاءه سائل
يسأله ، فقال له النبي صلى الله عليه وآله: « من استعفف أعفاه الله ، ومن

(١) ورد بلفظ: عن جابر قال: أتت الحمى النبي صلى الله عليه وسلم فاستأذنت عليه فقال: ((من
أنت؟ قالت: أنا أم ملدم. فقال: أتهدين إلى أهل قباء. قالت: نعم. قال: فأتيهم ، فحموا ولقوا
منها شدة ، فاشتكوا إليه فقالوا: يا رسول الله ما لقينا من الحمى. قال: إن شئتم دعوت الله
فكشفها عنكم ، وإن شئتم كانت لكم طهورا)) .

أخرجه الحاكم في مستدركه ١/ص ٤٩٧/ح ١٢٨٠ ، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات
١/ص ١٩١/ح ٢٤٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ٧/ص ١٩٨/ح ٢٩٣٥ ، والحاكم في مستدركه
ج ١/ص ٤٩٧/ح ١٢٨٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٣٧٥/ح ٦٣٤٢ ، وأبو يعلى في
مسنده ج ٣/ص ٤٠٩/ح ١٨٩٢ .

استغنى أغناه الله ، ومن تصبّر صبره الله ، وما أعطي أحد عطاء خير له من الصبر «^(١).

وروي عن ابن عباس قال: « جاءت امرأة بها لَمَمٌ إلى النبي صلى الله عليه وآله ، فقالت: يا رسول الله ادع الله أن يذهب ما بي. فقال لها: أتصبرين ولك الجنة . فقالت: بل أصبر ، ثم قالت: يا رسول الله فادع الله ألا أنكشف فدعا لها «^(٢).

(١) ورد بلفظ: عن أبي سعيد الخدري قال: أصابه مرة جهد شديد فقال لي بعض أهلي: لو سألت لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال: فانطلقت محنقا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فكان أول ما واجهني به قوله: إنه قال: ((من استعف أعفه الله ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن سألنا لم نذكر عنه شيئا وجدناه. قال: فرجعت إلى نفسي أخير إليها ، ألا استعف فيعفيني الله ، ألا استغني فيغنيني الله. قال: فما مشيت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد ذلك أسأله شيئا من فاقة حتى أقبلت علينا الدنيا ففرقتنا ، إلا ما عصم الله)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص ٩٠٧ ح ١١٠٧٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٥٣ ح ٢٣٧٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٤٥٥ ح ١٢٦٧ ، والدارقطني في سننه ج ٢/ص ١١٨ ح ١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٧/ص ٢٤ ح ١٢٩٨٩.

(٢) ورد بلفظ: عن عطاء بن أبي رباح قال: قال لي ابن عباس: ألا أريك امرأة من أهل الجنة. قلت: بلى ، قال: هذه المرأة السوداء أتت النبي صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إني أصرع وإني أنكشف فادع الله لي. فقال: ((إن شئت صيرت ولك الجنة وإن شئت دعوت الله أن يعافيك. فقالت: أصبر. فقالت: إني أنكشف فادع الله أن لا أنكشف فدعا لها)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ٢١٤٠ ح ٥٣٢٨ ، وأيضاً في الأدب المفرد ١/ص ١٧٨ ح ٥٠٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ١٩٩٤ ح ٢٥٧٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١١/ص ١٥٧ ح ١١٣٥٢ ، وابن أبي الدنيا في المرض والكفارات ١/ص ١٨٥ ح ٢٣٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٤٧ ح ٣٢٤٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١١/ص ١٥٧ ح ١١٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٣٥٣ ح ٧٤٩٠.

وقال أنس وغيره: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « قال الله تبارك وتعالى: من أذهبت كريمته فصير واحتسب ، لم أرض له بثواب دون الجنة »^(١).

وقال أبو موسى: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا مات ولد العبد قال الله للملائكة: ما قال عبدي؟ وهو أعلم به!! قالوا: يا رب حمدك وشكرك فصير واحتسب ، فيقول الله لهم: ابنوا له بيتا في الجنة وسموه بيت الحمد »^(٢).
وروي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « فاصبر حتى تستريح أو يستراح من فاجر »^(٣). والأخبار في هذا كثير ، والله نسأل العون على ذلك.

(١) ورد بلفظ: عن ابن عباس ، ذكر النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من مسلم قبض يتيما بين مسلمين إلى طعامه وشرابه إلا دخل الجنة البتة ، إلا أن يعمل ذنبا لا يغفر له ، ومن أخذت كريمته فصير واحتسب ، لم يكن له عندي ثواب إلا الجنة. قيل: وما كريمته؟ قال: عيناه. قال: ومن عال ثلاث بنات فأنفق عليهن ، وأحسن أدهن ، أدخله الله الجنة. فقال رجل من الأعراب: أو اثنتين. قال: أو اثنتين)).

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ج ١١/ص ٢١٦/ح ١١٥٤٢ ، والترمذي في سننه ٤/ص ٣٢١/ح ١٩١٧ ، والحاثر الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٨٥١/ح ٩٠٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٤/ص ٣٤٣/ح ٢٤٥٧ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٢٠٩/ح ٦١٥.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي موسى قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا قبض الله عز وجل ابنا لعبد ، قال ملائكة ما قال عبدي؟ قالوا: حمدك واسترجع. قال: ابنوا له بيتا ، وسموه بيت الحمد)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٧/ص ٢١٢/ح ٢٩٤٨ ، والترمذي في سننه ج ٣/ص ٣٤٢/ح ١٠٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٤١٥/ح ١٩٧٤٠ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٦٩/ح ٥٠٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٦٨/ح ٦٩٣٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ١٩٥/ح ٥٥١.

(٣) ورد بلفظ: ((ستكون بعدى فتنة الراقد ، فيها خير من اليقظان ، والمضطجع فيها خير من القاعد ، والقاعد خير من القائم ، والقائم خير من الماشي ، والماشي خير من الساعي. ويهلك فيها كل

باب الشوق وهو أول شعب الصبر

والشوق على وجهين:

شوق طاعة الله.

وشوق إلى ثواب الله.

وشوق إلى التخييت إلى الله بطاعته ، من طريق الحب لما أحب الله ، وأنه ليستحق أن يحبه العباد ويحبوا طاعته ، وإكراما وتبجيلا وتعظيما له ، وإيجاب ذلك على النفس ولو لم يكن الثواب ولا مخافة من العقاب ، لكان [أهلا لذلك] لما يستحق الموسر^(١) لعظيم النعم التي لا تحصى ، وإن أعطاه الثواب أحب ذلك وعبدّه ، ولو لم يكن ذلك لكان أهلا للحمد والشكر والعبادة.

ومتى أحب العبد الله على الحقيقة أحب ما أحب الله ما بقي أو فني ، أو غير ذلك من الشدة والرخاء ، لعمله بأن الخيرة فيما يختار من جميع ذلك ، فإن اختار له البقاء في الدنيا أحب ذلك ، وإن اختار له الفناء أحب ذلك.

وكذلك في سائر الأشياء بتقديمه وحسن نظره لعباده ، ويقينا بقوله: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [الفص: ٦٨]، وهو عند ذلك مسلّم راض لكل ما اختاره الله ورضيه من شدة أو رخاء ، أو عافية أو بلاء ، فالحب لله المؤثر لمحبه قائم لله على نفسه في سره وجهره ، لئلا يطلع الله منه على غير ما يحب أيام حياته ، فيكون كما روي في حديث ابن عمر وأبي هريرة عن حبريل عليه السلام سأل النبي صلى الله عليه وآله فقال: « يا

راكب موضع - أي المسرع فيها - وكل خطيب مصقع ، فإن أدركتها فالصق بطنك بالأرض ، حتى تستريح برا أو تستراح من فاجر)) أخرجه المتقي الهندي في كثر العمال ج/٠ ص/٣١٠٨٧.

(١) في (أ) و(ب) و(ج): الموسر. ولم يتضح لي معناها.

رسول الله ما الإحسان؟ قال: تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تراه فإنه يراك . فقال: صدقت «^(١).

ومن عبدَ الله كذلك كانت مراتبته لله وشدة حياته منه وإجلاله لمقامه على قدر ذلك ، والمؤمنون يعبدون ربهم ويجلون مقامه حتى كأنهم يرونه ، لعلمهم

(١) ورد بلفظ: عن يحيى بن يعمر قال : أول من تكلم في القدر معبد الجهني ، قال: فخرجت أنا وحميد بن عبد الرحمن الحميري حتى أتينا المدينة فقلنا: لو لقينا رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فسألناه عما أحدث هؤلاء القوم. قال: فلقيناه - يعني عبد الله بن عمر - وهو خارج من المسجد ، قال: فاكتفته أنا وصاحبي. قال: فظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي. فقلت: يا أبا عبد الرحمن ، إن قوما يقرؤون القرآن ، ويتقفرون العلم ، ويزعمون أن لا قدر ، وأن الأمر أنف. قال: فإذا لقيت أولئك فأخبرهم أني منهم برئ ، وأنهم مني براء ، والذي يخلف به عبد الله لو أن أحدهم أنفق مثل أحد ذهباً ما قبل ذلك منه حتى يؤمن بالقدر خيره وشره. قال: ثم أنشأ يحدث ، فقال قال عمر بن الخطاب: ((كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم فألرق ركبته بركبته ، ثم قال: يا محمد ما الإيمان؟ قال: أن تؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسوله ، واليوم الآخر ، والقدر خيره وشره. قال: فما الإسلام؟ قال: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وحج البيت ، وصوم رمضان. قال: فما الإحسان؟ قال: أن تعبد الله كأنك تراه ، فإنك إن لم تكن تراه فإنه يراك. قال: في كل ذلك يقول له: صدقت. قال: فتعجبنا منه يسأله ويصدق. قال: فمضى الساعة؟ قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل. قال: فما أمارتها؟ قال: أن تلد الأمة ربتها ، وأن ترى الحفاة العراة العالة أصحاب الشتاء يتناولون في البنيان. قال عمر: فلقيني النبي صلى الله عليه وسلم بعد ذلك بثلاث فقال: يا عمر هل تدري من السائل ، ذاك جبريل أتاكم يعلمكم معالم دينكم)).

أخرجه الترمذي في سننه ج ٥/ص ٦/ح ٢٦١٠ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٣٩٢/ح ١٦٨ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٨/ح ٢٦١٠ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٢٤/ح ٤٦٩٥ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٢٧/ح ١٨٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٢٠٣/ح ٢٠٦٦٠ .

أنه لا يخفى عليه سرهم وجهرهم ، فهم مرعون^(١) له قلوبهم عن خطرات الوسواس من عدوه وعدوهم ، فإذا رآهم الله كذلك أمدهم بمعونته ، وأيدهم بنصره ، وسلمهم من حباله ، وصيرهم إلى رحمته ، وبذلك وعدهم في كتابه ، فقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، فوعدهم الهداية والرحمة ، والله منجز ما وعد.

فمن أحب لله وأحب طاعته أورثه ذلك الإشتياق إلى جنته ، وما أعد في دار كرامته ، وجدَّ به ذلك الإشتياق إلى ثواب الله ، والشوق إلى الله فهو الشوق إلى الجنة ، فمن عمل للشوق إلى الجنة أعطى الثواب الذي ذكر الله في كتابه ، فقال عز وجل: ﴿إِنَّ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ الْيَوْمَ فِي شُغْلٍ فَكِهُونَ﴾ [يس: ٥٥] ، وقوله: ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ [في سِدْرِ مَخْضُودٍ] وَطَلْحٍ مَّنْضُودٍ [الواقعة: ٢٧-٢٩].

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في حديث أبي هريرة: «أعد الله لأهل الجنة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، اقرءوا إن شئتم: شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: ١٧]»^(٢).

(١) في المخطوطات: مرعون. ولم يظر لي معناها.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((قال الله: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦/ص ٢٧٢٣/ح ٧٠٥٩ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢١٧٤/ح ٢٨٢٤ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٩٢/ح ٣٦٩ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٧١/ح ٢٥٢٤ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٤٨/ح ٤٣٢٨ ، وأبو داود في سننه

وحديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « أعطيت الكوثر ، ماؤه أحلى من العسل ، وأشد بياضا من اللبن ، حصاه الدر والياقوت ، وترابه المسك الأذفر ، من شرب منه لم يضرأ أبدا »^(١).

وحديث أنس وأبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين قال: « دخلت الجنة فرأيت فيها حورا يفنين ويقلن: نحن الراضيات فلا نسخط ، ونحن الناعمات فلا ننس ، ونحن الخالدات فلا نموت ، طوبى لمن كُنّا له وكان لنا »^(٢).

ج ٢/ص ٣٥/ح ١٣٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٥٧/ح ٧٤٨٩ ، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ٢٧١/ح ٢٩٧٥ ، والطالسي في مسنده ج ١/ص ٣٣٢/ح ٢٥٤٧ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٤٨٠/ح ١١٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ١٢٢/ح ٥٧٠٦ ، وأيضا في معجمه الصغير ج ١/ص ٥٣/ح ٥١ ، وفي معجمه الأوسط ج ١/ص ٧٢/ح ٢٠٠ ، وأيضا في مسند الشاميين ج ١/ص ٩٣/ح ١٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٣١٨/ح ١١٠٨٥ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٤٤٨/ح ٥١٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١١/ص ١٦٠/ح ٦٢٧٦ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ١٧٠/ح ٤٦٣ ، وابن الجعدي في مسنده ج ١/ص ١٧٨/ح ١١٤٤ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج ١/ص ٢٩/ح ٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٣٣/ح ٣٣٩٩٥ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٤٣٢/ح ٢٨٢٨ .

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الكوثر نهر في الجنة ، حافته من ذهب ، وبحراه على الدر والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص ٢٤٠٥/ح ٦٢٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ٣٩٠/ح ٦٤٧١ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٤٤٩/ح ٣٣٦١ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٥٠/ح ٤٣٣٤ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٦٧/ح ٥٣٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ٣٤٧/ح ١٣٣٠٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ٣٠٦/ح ٣١٦٦٢ .

(٢) ورد بلفظ: عن علي قال: قال رسول الله: ((إن في الجنة سوقا ما فيه بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء ، فإذا انتهى الرجل صورة دخلها . قال: وفيها مجمع للحوار العين ، قال: يرفعن

وقول الله عز وجل: ﴿فِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعر: ٧١]، وما ذكر الله من صفة أهل الجنة ، وما أعد لأوليائه من جزيل الثواب أكثر من أن نأتي عليه ، وهذا معنى قول أمير المؤمنين علي رضي الله عنه: « من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات » ، أي: من عرف قدر ما وعده الله وقدر ما يجب لله عليه ، لم يقطععه إثثار شهوته ، ولا ميل إلى محبوب من الأشياء ، لعلمه بتفاوت ^(١) ما بين الأمرين من التفاضل ، وأنه لا عوض مما أعد الله لأوليائه ، ولا حظر لما نذب الله له إليه أحباءه .

فمن عبَدَ الله رغبة في ثواب الله أعطاه الله ما أمَّلَ وما ظن به ، وذلك مثل حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « قال الله تبارك وتعالى: إنما أنا عند ظن عبدي فليظن بي ما شاء » ^(٢).

أصواتا لم تسمع الخلائق تمثلها. قال: يقلن: نحن الخالدات فلا نبید ، ونحن الناعمات فلا نبأس ، ونحن الراضيات فلا نسخط ، طوبى لمن كان لنا وكنا له .))

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص ٦٨٧ ح ٢٥٥٠ ، ٤/ص ٦٩٦ ح ٢٥٦٤ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ١٥٦ ح ١٣٤٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ٣٣٨ ح ٤٢٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٢٩ ح ٣٣٩٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص ١٨ ح ١٠٠ .

(١) في المخطوطات: لتفاوت. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٦/ص ٢٧٢٥ ح ٧٠٦٦ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٠٢ ح ٦٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٣٩١ ح ٩٠٦٥ ، والحاكم في مستدرکه ج ٤/ص ٢٦٩ ح ٧٦٠٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٩/ص ٤١٧ ح ١٠٠٥ ، وأيضاً في معجمه الأوسط ج ٩/ص ٨٢ ح ٩١٩٠ ، وفي مسند الشاميين أيضاً ج ٢/ص ٢٢٧ ح ١٢٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤١٢ ح ٧٧٣٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٣٢٢ ح ١٤٤٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٦/ص ١٣ ح ٣٢٣٢ ، الدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٩٥ ح ٢٧٣١ .

باب الشفق

وهو الشعبة الثانية من الصبر ، والشفق على ثلاثة أوجه:

شفق من طريق خوف الفوت.

وشفق من طريق خوف العقوبة.

وشفق من طريق انجباط الأعمال ألا تكون أدت على حد ما افترض.

والشفق الذي من طريق خوف الفوت هو الإشفاق الذي ينتظم الأعمال كلها ، وبه تصح الأعمال مبادرا لأجله بالمنافسة والمصارعة إلى طاعة ربه ، خوفاً أن يفتر ساعة من عمره فيكون فيه مشغولاً بغير ما خلق له من طاعة ربه ، أو بما يوصله إلى طاعته ، مما ^(١) لا يمكن الطاعة إلا به ، من إصلاح من يكون فيه عون ^(٢) له على معاده ، ووصلة إلى ربه.

والوجه الثاني من الشفق وهو أعلا درجة عند الله من الأول ، وهو أن يكون من العبد العمل فيخاف أن لا يقبل منه لتقصير كان فيه ، وإن قبل خاف أن يأتي بعده بما يحبطه ، فهو لذلك خائف ومنه مشفق ، مراعى لنفسه مراقب لخواطره ودواعي نفسه ، حافظ لله عزائمه ، إلا أن مع خوفه رجاء لتفضل ربه ، وكذلك صفة المؤمن يخاف على نفسه لسالف جرمه ولخاتمة أمره ، وهو مثل قول أبي بكر: « ينبغي للمؤمن أن يكون كذي قلين يرغب بأحدهما ويرهب بالآخر » ^(٣) ، وقال رواحه: بن عبد الله: « الأنصار لوزن الخوف والرجاء مني لأعتدرا » ^(٤).

(١) في المخطوطات: ما. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوطات: عوناً. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

فهذا الإشفاق الذي هو من طريق خوف الذنوب ، وذلك أن أهل المعرفة بالله عرفوا الله بالعظمة والقدرة وسوغ النعمة ، وأعظموا حقه ، وما يجب له على قدر ذلك ، إذ كان أهل الدنيا تحب لهم ذلك على قدر إقتارهم وقدر أياديهم عند أهل صناعاتهم ، فعبدوه على جهة التعظيم ، وعلموا أنه أمرهم ونهاتهم وافترض عليهم ، وأنه لا يقبل منهم ولا يرضى إلا بكمال ما أمرهم به ، إلا ما تفضل به على من أناب منهم من معصيته ، وراجع إلى طاعته ، وعرفوا أنفسهم بالتقصير في كل ما أمرهم به وأوجبه ، ورجعوا عليها باللائمة ، وعلموا أنهم لم يؤتوا في ذلك إلا من قبل أنفسهم الأمانة بالسوء ، وكادت عند ذلك تسيل أنفسهم إذا ذكروا تقصيرهم وإن كانوا تائبين منه ، شدة إعظام الله وحياء منه ، وأسفا على التفريط في طاعته ، وما ضيعوا من واجب حقه ، وإشفاقا ألا يكونوا ^(١) أتوا من التوبة كنه ما استحقه وما حذَّه لهم ، فإذا ذكروا نعمة الله عليهم ، وإعذاره إليهم وكثرة تواتر النعم لديهم ، كادت قلوبهم تذوب لكثرة الحجاج عليهم ، فهم بين نعمة من الله سابعة ، وبين تقصير من أنفسهم ، فعرفوا أنفسهم بحقائق المعرفة فلم يؤمنوها لخير مقدم ولا متأخر ، فكانت أنفسهم الأمانة بالسوء تستأهل عندهم الهتك والعقوبة لكثرة صدفها ونأيها عن المصير فيما خلقت له ، وقطعها لهم بذلك عن الله وعن زيادات كراماته وفوائده المعجلة لثواب أعمالهم ، ورأوا مع ذلك سبع ستره عليهم عند كل تقصير كان منهم في كنه ما يجب من تأدية حق الله والتقرب إليه بمرضاته ، فخافوا أن يكونوا عند الله من أهل الاستدراج ، فهاج الخوف من قلوبهم وهو الإشفاق أن يكون عناؤهم وتعبهم باطلا ، إن لم يكن أدوا إليه من التوبة والندامة كنه ما يستحقه ، ولم يعملوا أنفسهم بعد ذلك في التقرب إليه بالنوافل كما يجب ، وعلموا أنه إن لم يتفضل عليهم بقبوله إياهم

(١) في المخطوطات: ألا أن يكونوا. ولعل الصواب ما أثبت.

على تقصيرهم خسروا الدنيا والآخرة ، فسالت دموعهم عندهم عند ذلك خوفا وحذرا من سخط خالقهم ، وأجهدوا له أنفسهم ، واستقلوا له استقراغ كل جهدهم طمعا في قبوله لهم ، فهم بين خوف ورجاء ، خوفا من أنفسهم وذنوبهم ، ورجاء لتفضل خالقهم.

فهذه صفة أهل الخوف والإشفاق والحذر مع دوام الطاعة ، ومن كان كذلك منهم لم يكذب يفتري عن طاعة الله ، ولم يدخله العجب في عمله ، ولم يستكثر لله عناية اجتهد ، والدليل على خوف الإشفاق على الأعمال أنه حق واجب ، وأنه أعلى الخوف درجة ، قول الله تبارك وتعالى حين ذكر أهل الجنة فقال:

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ ۚ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا

مُشْفِقِينَ ۚ فَمِنْ اللَّهِ عَلَيْنَا وَوَقَدْنَا عَذَابَ السَّوْمِ ۚ ﴾ [الطور: ٢٥-٢٧] ،

أي: من الذنوب تاركين لها ، مجدين بالأعمال الصالحات ، مشفقين ألا يقبل منا ، فمن الله علينا فنعم أجر العاملين ، وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ، وقوله تعالى:

﴿ يَوْمُونَ بِاللَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا ۚ ﴾ [الإنسان: ٧] ، وقوله كذلك: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ۚ ﴾ [فاطر: ٢٨] ،

وقال تبارك وتعالى: ﴿ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] ، قال الحسن: يعملون ما عملوا من أعمال وجوه ، البر وهم يخافون أن لن ينجيهم ذلك من عذاب الله.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال لجبريل عليه السلام: « إني أخاف ، قال له جبريل: وأنا أخاف » ^(١) ، وقول أبي بكر: « بين يدي عقبة كؤود ، فإن أنا قطعتها لم يضرك ما قلت » ^(٢) ، وقول عمر لحذيفة: « أنشدك

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

بالله أنا من المنافقين الذين عدَّ لك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟! فقال حذيفه: اللهم لا ، ولم يبرئ أحدا منها بعدي» ^(١) ، وقول عمر لابنه حين طعن بضع خدي: « لا أم لك ، الويل لي والويل لأمي إن لم يرحمني ربي » ^(٢)

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن ابن عمر قال : لما طعن أبو لؤلؤة عمر طعنه طعتين فظن عمر أن له ذنبا في الناس لا يعلمه فدعا بن عباس وكان يحبه ويدنيه ويستمع منه فقال له أحب أن تعلم عن ملأ من الناس كان هذا فخرج بن عباس فجعل لا يمر ملأ من الناس إلا وهم ييكون فرجع إليه فقال يا أمير المؤمنين ما أتيت على ملأ من المسلمين إلا وهم ييكون كأنما فقدوا اليوم أبكار أولادهم فقال من قتلي قال أبو لؤلؤة المجوسي عبد المغيرة بن شعبة قال بن عباس فرأيت البشر في وجهه فقال الحمد لله الذي لم يتلي بقول أحد يحاجني بقول لا إله إلا الله أما إني كنت قد هيتكم أن تجلبوا إلينا من العلوج أحدا فعصيتوني ثم قال ادعوا لي إخواني قالوا ومن قال عثمان وعلي وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص فأرسل إليهم ثم وضع رأسه في حجري فلما جاءوا قلت هؤلاء قد حضروا فقال نعم نظرت في أمر المسلمين فوجدتكم أيها الستة رؤوس الناس وقادهم ولا يكون هذا الأمر إلا فيكم ما استقمتم يستقيم أمر الناس وإن يكن اختلاف يكن فيكم فلما سمعت ذكر الاختلاف والشقاق ظننت أنه كائن لأنه قل ما قال شيئا إلا رأيته ثم نزع الدم فهمسوا بينهم حتى خشيت أن يبابعوا رجلا منهم فقلت إن أمير المؤمنين حي بعد ولا يكون خليفان ينظر أحدهما إلى الآخر فقال احملوني فحملناه فقال تشاوروا ثلاثا ويصلي بالناس صهيب قال من تشاور يا أمير المؤمنين فقال شاوروا المهاجرين والأنصار وسراة من هنا من الأجناد ثم دعا بشربة من لبن فشرب فخرج بياض اللبن من الجرحين فعرف أنه الموت فقال الآن لو أن لي الدنيا كلها لافتديت بها من هول المطلاع وما ذاك والحمد لله إن أكون رأيت إلا خيرا فقال بن عباس وأن قلت ذلك فجزاك الله خيرا أليس قد دعا رسول الله أن يعز الله بك الدين والمسلمين إذ يخافون بمكة فلما أسلمت كان إسلامك عزا وظهر بك الإسلام ورسول الله وأصحابه وهاجرت إلى المدينة فكانت هجرتك فتحا ثم لم تغب عن مشهد شهده رسول الله من قتال المشركين من يوم كذا ويوم كذا ثم قبض رسول الله وهو عنك راض فوافرت الخليفة بعده على منهاج رسول الله فضربت من أدبر بمن أقبل حتى دخل الناس في الإسلام طوعا أو كرها ثم قبض الخليفة وهو عنك

، وقال عمر: « ليتني كنت كبشا لأهلي وذبحوني وتمشمشوا عظامي »^(١) ،
وقال: « ليتني كنت تبنه في لبنة »^(٢) .

وقد أخبر الله فقال لنبيه عليه السلام: إنه قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، وكان أعظم الخلق خوفا لله وإجلالا لمقامه ، وأدوهم في طاعة الله ، وكذلك كان الفضلاء من أصحابه ، وكذلك صفة الأبرار بعدهم ، لأنه كلما كثرت معرفة العبد بربه كان أشد له تعظيما ، ول مقامه إجلالا ، وعلى أعماله أشد خوفا ، ومن الدنيا أشد إجتنابا ، لأن العلم قائد العمل والخوف سائقه ، وإنما هذا الخوف رأس الخشية وهو العلم بالله ، كما قال تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّمَا

راض ثم وليت بغيري ما ولي الناس مصر الله بك الأنصار وجي بك الأموال ونفى بك العدو وأدخل الله بك على كل أهل بيت من توسعهم في دينهم وتوسعهم في أرزاقهم ثم حتم لك بالشهادة فهنيئا لك فقال والله إن المغرور من تغررونه ثم قال أتشهد لي يا عبد الله عند الله يوم القيامة فقال نعم فقال اللهم لك الحمد ألصق خدي بالأرض يا عبد الله بن عمر فوضعت من فخذني على ساقني فقال الصق خدي بالأرض فترك لحيتي وخده حتى وقع بالأرض فقال ويلك وويل أمك يا عمر إن لم يغفر الله لك ثم قبض فلما قبض أرسلوا إلى عبد الله بن عمر فقال لا آتيكم إن لم تفعلوا ما أمركم به من مشاورة المهاجرين والأنصار وسراة من ههنا من الأجناد قال الحسن وذكر له فعل عمر عند موته وخشيته من ربه فقال هكذا المؤمن جمع إحسانا وشفقة والمناق جمع إساءة وغرة والله ما وجدت فيما مضى ولا فيما بقي عبدا ازداد إحسانا إلا ازداد مخافة وشفقة منه ولا وجدت فيما مضى ولا فيما بقي عبدا ازداد إساءة إلا ازداد غرة)) .

أخرجه الطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ١٨١/ح ٥٧٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج ١/ص ١٠٩/ح ٩٣ .

(١) لم أفق عليه .

(٢) عن عامر بن ربيعة قال: رأيت عمر بن الخطاب أخذ تبنه من الأرض فقال: ((يا ليتني كنت هذه التبنه ، ليتني لم أخلق ، ليتني لم أك شيئا ، ليت أُمي لم تلدني ، ليتني كنت نسيا منسيا)) . أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج ١/ص ٣٥٩١٤/ح ٠ .

يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا ﴿فاطر: ٢٨﴾ ، وقال ابن مسعود: « رأس الخشية خشية الله »^(١) ، وقال مسروق: « كفى المرء العلم أن يخشى الله »^(٢) ، وإنما العلم هو العلم بالله ، والعلم بالله هو رأس العلم ، وهو خشية الله ومراقبته ، والإجلال لمقامه ، وشدة الحياء منه ، ولذلك قال الله: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الَّذِينَ عَلَّمُوا ﴾ [فاطر: ٢٨].

والوجه الثالث من الخوف: هو خوف النار وما أوعده الله به أهل المعصية والمتعدين لحدوده ، لقوله: ﴿ بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [البقرة: ٨١] ، والنجاة لمن أحاط به هذا الوعيد الشديد المسارعة إلى التوبة على من نذب الله إليه وحده من قوله: ﴿ إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٧] ، ثم قال: ﴿ وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْإِسْلَامَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارًا ﴾ [النساء: ١٨] ، فأخبر سبحانه أنه لا يقبل توبة عند الموت لكافر ، ولا لفاجر من أهل الصلاة ، فإذا لم يقبل التوبة التي بها يكون الغفران ، فقد حق وعيد الله عليهم ، وكذلك قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « التوبة

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن مسروق قال: ((بحسب الرجل من العلم أن يخشى الله عز وجل ، وبحسب الرجل من الجهل أن يعجب بعلمه)).

أخرجه أبو خيثمة في العلم ج ١/ص ٩/ح ١٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ١/ص ٤٢٧/ح ١٤٦٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ١٠٣/ح ٣٤٥١٨.

للعبد ميسوطة ما لم تغرغر نفسه «^(١) ، وقال الله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا
فَعَلُوا فُجُورًا أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ
يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾^(٢)
أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُمْ مَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦] ، فأوجب تعالى
المغفرة على شريطة ترك الإصرار وتعجيل الإنابة ، فهذا معنى قول أمير المؤمنين
علي بن أبي طالب عليه السلام: « من أشفق من النار رجع عن المحرمات ».

باب الزهادة

وهي الشعبة الثالثة من الصبر ، والزهادة أن يكون العبد متهاونا بالدنيا بقلبه ،
ويقنع بما أعطاه الله منها من غير حرص ولا طمع ، ولا استشراف إلى ما تطلع
إليه الأنعش.

وأول باب الزهد في الدنيا القناعة ، فإذا دخل العبد في القناعة دخل درجة
الزهد ، وذلك أن القانع لا يريد أكثر مما أعطي لرضاه عن أعطاه ، ولعلمه
بأن ما أعطاه هو الخير له دون ما سواه ، فهو غير متمن للزيادة ، وهو صارف

(١) عن عبد الرحمن بن البيهقي قال: اجتمع أربعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال
أحدهم: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل
أن يموت بيوم فقال الثاني أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت
بنصف يوم فقال الثالث أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم قال وأنا
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله تبارك وتعالى يقبل توبة العبد قبل أن يموت
بضحوقة قال الرابع أنت سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال نعم وأنا سمعت رسول
الله صلى الله عليه وسلم يقول أن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر بنفسه)) . ورد بلفظ: أخرجه
أحمد في المسند ج ٣/ص ٤٢٥ ح ١٥٥٣٨.

(١) للقلب عن الدنيا وما فيها ، فبغض لأهل الطلب لها لا يريد لها ، ولا يحبها إذ (٢) لم يحبها مولاه له ولا خلقه لها ، وإنما يحب غيرها التي خلق لها ، فهو لا يأكل الأطعمة للذم ، ولا يلبس إلا الفضل من زينتها ، ولا يريد إلا الكفاف منها والبلغة إلى الآخرة ، فإن تطلعت نفسه إلى غير ذلك عده نقصا ، ورجع عليها باللوم والتوبيخ لها ، وقد اتخذها وأقامها عند نفسه كالدواء للمريض الذي إذا أخذ منه فوق قدر حاجته قتله ، فقد أنزل الدنيا بمرتلة السم الذي إذا أكله من لم يعرفه قتله ، فهو لا يأخذ منه إلا ما يقيم ريقه ويدفع عاديه مرضية ، ولو برئ المريض بغير دواء لكان أحب إليه ، كما قال أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » (٣) ، وكذلك القانع إن اكتفى بقليل الغداء كان أحب إليه ، كما روى عن النبي أبو الدرداء الحديث ، فجعل النبي صلى الله عليه وآله الكفاية مع القلة والزهد في الدنيا كله هو التهاون بها ، وعزوف النفس عن تمكينها (٤) ، فإذا وصل العبد إلى التهاون بالدنيا أورثه ذلك الدرجة العليا والمترلة الكبرى ، وهو

(١) في المخطوطات: عاف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في المخطوط: إذا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) ورد بلفظ: عن أبي الدرداء ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما طلعت شمس قط إلا بجنبتيها ملكان يناديان ، يسمعان من على الأرض غير الثقلين: أيها الناس هلموا إلى ربكم ، ما قل وكفى ، خير مما كثر وألهى ، ولا غربت إلا بجنبتيها ملكان يناديان: اللهم أعط منفقا خلفا ، وأعط مسكنا تلقا)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٨/ص ١٢١/ح ٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٥/ص ١٩٧/ح ٢١٧٦٩ ، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ٤٨٣/ح ٣٦٦٢ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٣٢/ح ٩٧٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٢٥/ح ٨١٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ١٠٠/ح ٢٠٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص ١٨٩/ح ٢٨٩١ .

(٤) في (ج): النفس وتمكينها.

موافقة الله سبحانه في محبته ، لقوله: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَالْآخِرَةَ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿١٧﴾﴾ [الأعلى: ١٦-١٧] ، ولقوله تعالى: ﴿وَالْبَقِيَّةُ الصَّلَاحُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَرَدًّا ﴿٧٦﴾﴾ [إبراهيم: ٧٦] ، فآثروا حب ما أحب الله من الآخرة ، وتهاونوا بما هان على الله وهي الدنيا ، فأنزلوها من قلوبهم حيث أنزلها الله لبغض الله لها ، وتهاونوا بطلبها لهُوان من آثرها.

والذي زهد له الزاهدون أربع خصال:

فمنهم: [من] زهد لخلعة.

ومنهم: من زهد لخلتين.

ومنهم: من زهد لثلاث.

ومنهم: من زهد لأربع خلال.

فأعلاها عند الله موافقة الله عند محبته وهو التهاون بالدنيا وأهلها ، والترك لما في أيديهم إذ هان ذلك كله على الله ولم يرضه لأوليائه وأحبائه ، فمن ذلك قوله في قصة يوسف عليه السلام: ﴿وَشَرَّوهُ بِثَمَنٍ بَخْسٍ دَرَاهِمَ مَعْدُودَةٍ وَكَانُوا فِيهِ مِنَ الزَّاهِدِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [يوسف: ٢٠] ، قال بعضهم: «لم يعرفوا كرامته على الله فهان عليهم» ^(١) ، فسمى الله التهاون: زهدا.

وقال في قصة قارون: ﴿فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنَ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ يُصَدِّقُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [القصاص: ٧٩-٨٠] ، فجعل الله أهل العلم هاهنا

(١) أخرج ابن جرير ، وابن المنذر ، وابن أبي حاتم ، وأبو الشيخ ، عن الضحاك ، في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وكان فيهم الزاهدين ﴿﴾ ، قال: ((إخوانه زهدوا فيه ، لم يعلموا بنبوته ، ولا بمنزلته من الله ومكانه

أهل الزهد والتهاون بالدنيا، ثم قال بشارة لهم ولمن سلك سبيلهم: ﴿تِلْكَ
الدَّارُ الْآخِرَةُ جَعَلَهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

وروى ابن حزام عن سهل بن سعيد الساعدي « أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم مر بشاة ميتة قد ننتت ، فقال النبي لأصحابه: لما ألقى هذه الشاة أهلها من كرامتها؟ قالوا: يا رسول الله إنما ألقوها من هوانها عليهم. قال: فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها » (١)

وروى أيضا سهل بن سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « لو عدلت الدنيا عند الله عدل بعوضة ما سقى كافرا منها قطرة ماء أبدا » (٢).

(١) ورد بلفظ: عن أبي هريرة ((أن النبي صلى الله عليه وسلم مر بسخلة جرباء قد أخرجها أهلها ، قال: ترون هذه هيئة على أهلها. قالوا: نعم. قال: والله للدنيا أهون على الله من هذه على أهلها))

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص ٥٦١/ح ٢٣٢١ ، وابن ماجه في سننه ٢/ص ١٣٧٧/ح ٤١١٠ ، وابن حنبل في مسنده ٢/ص ٣٣٨/ح ٨٤٤٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٠/ص ٣٠٤/ح ٧٢٣ ، والدارمي في سننه ٢/ص ٣٩٧/ح ٢٧٣٧.

(٢) ورد بلفظ: عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ، ما سقى كافرا منها شربة ماء))

أخرجه الترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٦٠/ح ٢٣٢٠ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣٤٢/ح ٧٨٤٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ١٥٨/ح ٥٨٤٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٣١٧/ح ١٤٣٩.

باب الخلعة الثانية

والخلعة الثانية لما رفع الله من قدر الزاهدين ، وجعل لهم الوسيلة والمترلة عنده ، فمن ذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ ﴿١﴾ أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ ﴿٢﴾ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ ﴿٣﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ ﴿٤﴾ وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ ﴿٥﴾﴾

[الواقعة: ١٠-١٤]، قال الحسن: «أما السابقون فهم أصحاب محمد صلى الله عليه قد مضوا فهيئاً لهم ، ولكن جعلنا الله وإياكم من أصحاب اليمين» (١).

وقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَّن يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَلُوا تَبْدِيلًا ﴿١﴾﴾ [الأحزاب: ٢٣]، وقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهِجْرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ...﴾ [الحشر: ٨] الآية. فاختار لهم الفقر والمهجرة والإخراج من ديارهم وأموالهم ، كل ذلك يمتحنهم به لما جعل لهم عنده من الفوز والوسيلة.

وروى ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «جاءني جبريل عليه السلام فقال: يا محمد إن الله أرسل إليك ملكاً ما نزل إلى الأرض منذ خلقه الله ، أرسله إليك ، قال: فأتاني الملك فقال: يا محمد إن الله أرسلني إليك ، فقال لك: يا محمد يجعلك ربك ملكاً أم عبداً رسولاً؟ فقال لي جبريل: بيده هكذا نحو الأرض تواضع لربك يا محمد ، وعلمت أنه ناصح ، فقلت: بل عبداً رسولاً» (٢).

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن محمد بن عبد الله بن عباس قال: كان ابن عباس يحدث ((أن الله تبارك وتعالى أرسل إلى نبيه صلى الله عليه وسلم ملكاً من الملائكة ومعه جبريل ، فقال الملك: إن الله يخبرك بين أن تكون عبداً نبياً ، وبين أن تكون ملكاً. فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جبريل

وروى أبو موهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وآله قال: « كنت مع النبي في بقيع الغرقد فقال لي: يا موهبة علمت أن الله خيرني بين أن يعطيني مفاتيح خزان الدنيا والخلود فيها إلى يوم القيامة من غير أن ينقصني ما عند الله ، أو لقاء ربي والجنة ، فقلت: يا رسول الله ، لو اخترت المقام في الدنيا مع أمتك والخلد فيها من غير أمارني والجنة فيها من غير أن ينتقص لك مما عند الله ، فقبض ^(١) يده من يدي ، ثم قال: كلا إني اخترت لقاء ربي والجنة » ^(٢). فبداه مرضه الذي مات فيه صلى الله عليه وآله.

كالمستشير ، فأشار جبريل بيده أن تواضع ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: بل أكون عبدا نبيا. قال: فما أكل بعد تلك الكلمة طعاما متكنا)).

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٢/ص ٣٤٨/ح ١٣٣٠٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ١٧١/ح ٦٧٤٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٧/ص ٤٨/ح ١٣٠٩٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٨/ص ٣١٩/ح ٤٩٢٠.

(١) في (أ) و(ب): غير تنقص لك مما عند الله شيئا فنفض.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي موهبة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على أهل البقيع فصلى عليهم في ليلته ثلاث مرات ، فلما كانت الثالثة قال يا أبا موهبة: أسرج لي دابتي فأسرجت ، فركب فصار إلى أهل البقيع ، ثم نزل فأمسكت دابته فوقف عليهم فقال: ليهنكم ما أنتم فيه مما في الناس ، أتت فتن كقطع الليل المظلم يركب بعضها بعضا ، الأخرى أشد من الأولى ، فلهنكم ما أنتم فيه ، ثم جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا أبا موهبة إني أعطيت - أو قال: - خيرت مفاتيح ما يفتح الله على أمتي من بعدي والجنة أو لقاء ربي. قلت: بأبي وأمي يا رسول الله اخترنا ، قال: اخترت لقاء ربي ، فما مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سبع أو ثمان حتى قبض صلى الله عليه وسلم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص ٤٨٩/ح ١٦٠٣٩ ، والحاكم في مستدركه ج ٣/ص ٥٨/ح ٤٣٨٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٢/ص ٣٤٧/ح ٨٧١ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ج ١/ص ٣٤٥/ح ٤٦٧ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ٥١/ح ٧٨.

وقال قتادة الأسدي: عن النبي صلى الله عليه وآله حين بعثه إلى رجل يمنحه ناقة ، فقال النبي صلى الله عليه وآله: « اللهم من أحبني وأطاع أمري فَأَقْلَ ماله وولده ، ومن أبغضني وعصى أمري فَأَكْثَرَ ماله وولده »^(١).

وروى أبو ذر وسهل بن سعيد الساعدي أن النبي صلى الله عليه وآله: « مر به رجل من أشرف الناس فقال: ما رأيك في هذا؟ فقال أبو ذر: قلت: يا رسول الله هذا أحرى إن قال أن ينصت^(٢) لمقاتله ، وإن خطب النساء أن ينكح ، وإن شفع ، فقال لي: طأطأ أسك ، وانظر هل ترى أحدا ، فنظرت فإذا رجل من فقراء المسلمين ، فقلت: يا رسول الله ، هذا رجل فقير ، فقال: ما رأيك في هذا؟ قلت: يا رسول الله هذا أحرى إن قال لا يسمع من قوله ، وإن خطب النساء ألا يزوج ، وإن شفع ألا يشفع. فقال النبي صلى الله عليه وآله والذي نفسي بيده لهذا خير من ملء الأرض ذهباً ومثل هذا »^(٣).

(١) ورد بلفظ: عن معاذ بن جبل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((اللهم من آمن بي وصدقني وشهد أن ما جئت به هو الحق ، فأقل ماله وولده وعجل قبضه إليك ، ومن لم يؤمن بي ويصدقني ويعلم أن ما جئت به هو الحق من عندك ، فأكثر ماله وولده وأطل عمره)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص ١٣٨٥/ح ٤١٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٧/ص ٣١/ح ٥٦٠ ، وأيضاً في مسند الشاميين ج ٢/ص ٣١٣/ح ١٤٠٦ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ج ٣/ص ٢٤٧/ح ١٦٠٧.

(٢) في (ج): إن قال يغضب.

(٣) ورد بلفظ: عن سهل بن سعد قال: مر بالنبي صلى الله عليه وسلم رجل فنظر إليه ثم قال: ((ما رأيك في هذا؟ فقلت: هذا رجل من أشرف الناس ، هذا حري إن خطب أن ينكح ، وإن شفع أن يشفع ، وإن قال أن يسمع لقوله ، ثم مر رجل فقال: ما رأيك في هذا؟ قلت: هذا رجل من فقراء المسلمين ، هذا حري إن قال لا يسمع لقوله ، وإن خطب أن لا ينكح ، وإن شفع أن لا يشفع. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لهذا خير من ملء الأرض مثل هذا)).

والأخبار في هذا تكثر ، فالنبي عليه السلام وأصحابه الذين اختار الله لهم الزهد والقلة أرفع الخلق درجة عند الله ، وأقربهم منه درجة ووسيلة ، وكذلك كل من تشبه بهم وسلك طريقهم ، واختار ما اختار الله لهم.

باب الخلة الثالثة

مخافة الحساب والحبس في المقام

قال الله تبارك وتعالى: ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۖ ﴾ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۖ ﴿ [الزلزلة: ٧-٨] ، وقال عز وجل: ﴿ مَا لَهُذَا أَلْكَتَبَ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا ﴾ [الكهف: ٤٩] ، وقال تعالى: ﴿ لَتَسْتَئِلَنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۖ ﴾ [التكاثر: ٨].

وقال النبي صلى الله عليه وآله: « يدخل فقراء المهاجرين قبل أغنيائهم الجنة بأربعين عاما »^(١).

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله: « نفر يدخلون الجنة من أمي سبعون ألفا لا حساب عليهم ، وجوههم مثل القمر ليلة البدر ، يمشون على الصراط

أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص ١٩٥٨/ح ٤٨٠٣ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٨٠/ح ٤١٢٠

، والطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ١٦٩/ح ٥٨٨٣.

(١) ورد بلفظ: عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((تدخل فقراء المسلمين الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفاً)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٥٢/ح ٦٧٦ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٧٨/ح ٢٣٥٣ ،

وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٨١/ح ٤١٢٢ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٩٦/ح ٧٩٣٣ ،

والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ٣١٦/ح ١٣٢٢٣ ، والنسائي في سننه الكبرى

ج ٦/ص ٤١٢/ح ١١٣٤٨ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٣٧٤/ح ٦٤٩ ، وأبو يعلى في

مسنده ج ١٠/ص ٤١٢/ح ٦٠١٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٣٣٦/ح ١١١٧ ، وعبد

الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٨٦/ح ٣٤٣٩٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٣٤/ح ٨٤.

مثل البرق ، والزمرة الثانية كأشد كوكب في السماء إضاءة ، ثم هم بعد ذلك منازل »^(١).

وقالت عائشة: قال النبي عليه السلام في مرضه الذي مات منه: « ما فعلت الذهب التي عندك؟ فقلت: يا رسول الله هذه هي ، قال: أخرجيها ، وكانت خمسة مثاقيل ، فقال: تصدقي بها ، قال النبي - صلى الله عليه وعلى آله - ما كان محمد لو لقي ربه وهذه عنده »^(٢).

(١) ورد بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أول زمرة تدخل الجنة يوم القيامة صور وجوههم مثل صورة القمر ليلة البدر ، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب في السماء ، لكل رجل منهم زوجتان ، على كل زوجة سبعون حلة ، يرى مخ سوقهن دون لحومهن ودمائهما وحللها)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١١٨٦/ح ٣٠٧٣ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢١٧٩/ح ٢٨٣٤ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٦/ص ٤٣٨/ح ٧٤٢٠ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٧١/ح ٢٥٢٢ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٤٩/ح ٤٣٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٤٧/ح ٧٣٦٩ ، والحاكم في مستدركه ج ٣/ص ٢٥٣/ح ٥٠١٠ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٤٨٤/ح ١١٤٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٩/ص ١٧٥/ح ٨٨٦٤ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٩٢/ح ١٣٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١١/ص ٣٢٤/ح ٦٤٣٧ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٢٩٥/ح ٢٠٠٥ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج ١/ص ٥١/ح ٨٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٣٧/ح ٣٤٠١٧ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٤٣٣/ح ٢٨٣٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٢٨١/ح ٩١٥.

(٢) ورد بلفظ: عن عائشة أنها قالت: اشتد وجع رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده سبعة دنائير أو تسعة ، فقال: يا عائشة ما فعلت تلك الذهب. فقلت: هي عندي. قال: تصدقي بها. قالت: فشغلت به ، ثم قال: يا عائشة ما فعلت تلك الذهب. فقلت: هي عندي. فقال: اتني بها. قالت: فجئت بها فوضعها في كفه ثم قال: ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده ، ما ظن محمد أن لو لقي الله وهذه عنده)).

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «إنه ما يسرني أن لي مثل أحد ذهباً يأتي على ثلاث وعندي منه شيء، إلا شيء أرصده لدين إن كان عليّ، لأن الأكثرين هم الأخسرون إلا من قال بالمال هكذا وهكذا عنه يمينه وشماله وبين يديه وخلفه» ^(١).

وقال مسروق: عن عائشة قالت: «قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وما خلف بيضاء ولا صفراء ولا شاة ولا بعيراً، ولا أوصى بشيء» ^(٢).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٩٢/ح ٧١٥، وابن حنبل في مسنده ج ٦/ص ٨٦/ح ٢٤٦٠٤، والحميدي في مسنده ج ١/ص ١٣٦/ح ٢٨٣.

(١) ورد بلفظ: عن عمرو بن مرة، سمع سويد بن الحارث، سمع أبا ذر يقول: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما يسرني أن لي أحداً ذهباً تأتي علي ثلاثة وعندي منه دينار، أو قال: منه مثقال، إلا أن أرصده لغريم)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٢/ص ٨٤٢/ح ٢٢٥٩، ومسلم في صحيحه ج ٢/ص ٦٨٧/ح ٩٩١، وابن حبان في صحيحه ج ٨/ص ١٠/ح ٣٢١٤، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٣١٦/ح ٨١٨٠، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٦٣/ح ٤٦٥، والطبراني في معجمه الكبير ج ٧/ص ٢٦٣/ح ٧٠٧٤، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ١٥٤/ح ٩٣، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٣٥٤/ح ١٠٧٣٨، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج ١/ص ٥٠/ح ٨٢.

(٢) ورد بلفظ: عن زر بن حبیش قال: سألت عائشة عن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: ((أعن ميراث رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأل! ما ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم صفراء ولا بيضاء، ولا شاة ولا بعيراً، ولا عبداً ولا أمة، ولا ذهباً ولا فضة)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١٠٥٤/ح ٢٧١٨، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٢٥٧/ح ١٦٣٥، والنسائي في سننه ج ٦/ص ٢٢٩/ح ٣٥٩٤، وابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ٢٨٤/ح ٦٣٦٨، وابن خزيمة في صحيحه ج ٤/ص ١٢٠/ح ٢٤٨٩، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٩٠٠/ح ٢٦٩٥، وأبو داود في سننه ج ٣/ص ١١٢/ح ٢٨٦٣،

وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٢٢٠/ح ١٩٠٩، والحاكم في مستدرکه ج ١/ص ٥٨٠/ح ١٥٢٨، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢١٩/ح ١٥٦٥، والحميدي في مسنده ج ١/ص ١٣٢/ح ٢٧١،

وقال أبو ذر: عن النبي صلى الله عليه وآله « في الإبل صدقتها ، وفي البقر صدقتها ، فمن رفع دينارا أو درهما لم يعده لغريم ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كير يكوى به في نار جهنم » ^(١).

وقال صلى الله عليه وآله في حديث أبي هريرة وأبي سعيد: « فقيّل: يا محمد أدخل من لا حساب عليه من أمتك من الباب الأول ، فهم شركاء الناس في أبواب الأجر » ^(٢).

والطبراني في معجمه الكبير ج ١٧/ص ٤٤/ح ٩٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٩٢/ح ٦٤٢١ ، والدارقطني في سننه ج ٤/ص ١٨٥/ح ٢ ، وابن راهويه في مسنده ج ٣/ص ٧٨٩/ح ١٤١٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ١٦٠/ح ١١٦٧٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٨/ص ٣٦/ح ٤٥٤٢ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٣٦٩/ح ٢٥٣٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ١٦٣/ح ٥١١.

(١) ورد بلفظ: عن أبي ذر قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أو حبيبي يقول في الإبل صدقتها من جمع دينارا أو درهما أو تبرا أو فضة ، ولا يعده لغريم ، ولا ينفقه في سبيل الله ، فهو كير يكوى به يوم القيامة)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص ١٧٩/ح ٢١٥٩٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٢/ص ٤٢٨/ح ١٠٧٠٠ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ٥٤٥/ح ١٤٣١ ، والدارقطني في سننه ج ٢/ص ١٠٢/ح ٢٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٤/ص ١٤٧/ح ٧٣٨٩.

(٢) ورد بلفظ: عن أبي هريرة قال: ((أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع فأكله وكانت تعجبه ، فنهس منها نسة ثم قال: أنا سيد الناس يوم القيامة ، هل تدرون لم ذاك يجمع الله الناس الأولين والآخرين في صعيد واحد ، فيسمعهم الداعي وينفذهم البصر وتدنون الشمس منهم ، فبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون ، فيقول الناس بعضهم لبعض: ألا ترون ما قد بلغكم؟! ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم؟! فيقول الناس بعضهم لبعض: عليكم بآدم ، فيأتون آدم فيقولون: أنت أبو البشر ، خلقتك الله بيده ، ونفخ فيك من روحه ، وأمر الملائكة فسجدوا لك ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا ، فيقول لهم آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه

قد ثابني عن الشجرة فعصيت نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح ، فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح أنت أول الرسل إلى أهل الأرض ، وقد سماك الله عبدا شكورا ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى إلى ما نحن فيه ، ألا ترى ما قد بلغنا. فيقول لهم نوح: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، وإنه قد كان لي دعوة دعوتها على قومي نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم ، فيأتون إبراهيم فيقولون: يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد كذبت ثلاث كذبات ، فذكرهن أبو حيان في الحديث نفسي نفسي نفسي. اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى ، فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله ، فضلك الله برسالته وبكلامه على البشر ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ، وإني قد قتلت نفسا لم أؤمر بقتلها نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى ، فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله ، وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه ، وكلمت الناس في المهد ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله ولن يغضب بعده مثله ، ولم يذكر ذنبا نفسي نفسي نفسي ، اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد ، قال: فيأتون محمدا فيقولون: يا محمد أنت رسول الله ، وخاتم الأنبياء ، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ، أشفع لنا إلى ربك ، ألا ترى ما نحن فيه ، فانطلق فأتي تحت العرش فأخبر ساجدا لربي ثم يفتح الله على من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على أحد قبلي ، ثم يقال: يا محمد أرفع رأسك سل تعطه ، وأشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: يا رب أمي ، يا رب أمي ، يا رب أمي ، فيقول: يا محمد أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ، ثم قال: والذي نفسي بيده ما بين المصرعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر ، وكما بين مكة وبصرى)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١٢١٦/ح ٣١٦٢ ، ومسلم في صحيحه ج ١/ص ١٨٦/ح ١٩٤ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ٣٨٤/ح ٦٤٦٥ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٢٧٧/ح ١٨٣٧ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٠٩٩/ح ٣٣٠٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٤٣٦/ح ٩٦٢١

وروي عنه أنه قال: « لن تزول قدم ابن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، شبابه فيما أبلاه ، وعمره فيما أفناه ، وماله من أين أكتسبه وفيما أنفقته ، وعلمه ماذا صنع فيه »^(١).

وحساب كل أمرئ على قدر ما حمل من هذه الأربع ، والذين زهدوا في هذه الدنيا كانوا أهل كيس وفطنة ، خافوا شدة الحساب وطول الحبس في المقام ، والذين آثروا الدنيا وطلبوها هم أهل غبن واطرار ، كما قال أبو الصياصلة بن أشعم: « طلبت هذا المال من رمضان حلاله فأعياني ، إلا قوت يوم بيوم ، فقلت لنفسي: ارجعي فسكنت وكادت لا تفعل ، وأثم الله ما من عبد قدر

، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ٣٩٦/ح ٣٣٨٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ١٥٥/ح ٦٦٦٠ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٢٢٩/ح ١٨٤ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج ١/ص ٣٥١/ح ٤٧٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ٣٠٧/ح ٣١٦٧٤ ، وابن أبي شيبه في مصنفه ج ٢/ص ٧٩/ح ٢٥٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٩/ح ١٠٥٨ .

(١) عن معاذ قال: ((لا تزول قدم بن آدم يوم القيامة حتى يسأل عن أربع ، عمره فيما أفناه ، وعن جسده فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه ، وعن علمه ما عمل فيه)) .

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٢٩٩/ح ٥٤١ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦١٢/ح ٢٤١٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ٨/ح ٩٧٧٢ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ٢/ص ٥٠/ح ٧٦٠ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٩/ص ١٧٩/ح ٥٢٧١ ، وأبو خيثمة في العلم ج ١/ص ٢٣/ح ٨٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ١٢٥/ح ٣٤٦٩٤ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ١٤٥/ح ٥٣٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ص ١٥٥/ح ٩٤٠٦ .

الله رزقه قوت يوم بيوم ، فلم يعلم أن الله قد جاز له في ذلك إلا عاجز أو غبي الرأي »^(١).

وقال: حدثني أصحابي عن النبي أنه قال: « يدخل فقراء أمي الجنة قبل أغنيائها بخمس مائة عام » ، والذي نفس أبي الصهباء بيده ما يسرني أني تخلفت عن الزمرة الأولى طرفة عين وأن لي ما طلعت عليه الشمس.

وقال جعفر بن سليمان الضبعي: عن مالك بن دينار قال: « بلغني أنه يوقف رجلان يوم القيامة أحدهما غني ، والآخر فقير ، كانا متواخين في الله ، فيؤمر بالفقير إلى الجنة ، ويوقف الغني للحساب ، ثم قال: نجو بعد دهر طويل ، ثم يؤمر به إلى الجنة فيستقبله أخوه الفقير ، فإذا قدم عليه قال: يا أخي ما بطأ بك؟! قال: من أنت يرحمك الله؟ قال: وما تعرفني؟! قال: لا ، قال: أنا أخوك فلان الفقير. فقال: ما أشد ما غيرتك نعمة ربي يأخني ، لقد مر بي بعدك من شدة الحساب ما لو وردت على عرقي مائة من الإبل أكملت حمصها لصدرت^(٢) رواء من عرقي ، فهذا حين أقلت من الحساب » ، والأخبار في هذا تكثر^(٣).

والخلة الرابعة: فراغ القلب للفكرة والإكباب على الطاعة ، قال الله تعالى: ﴿ رَجَالٌ لَا تُلْهِهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَلَا بَصَرٌ ﴾ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور: ٣٧]

(١) ورد بلفظ: قال أبو الصهباء: ((طلبت المال من حلة فأعياني إلا رزق يوم بيوم ، فعلمت أنه قد خير لي ، وأتم الله ما من عبد أوتي رزق يوم بيوم فلم يظن أنه خير له ، إلا كان عاجزا أو غبي الرأي)) . أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج ٧/ص ٢١٩/ح ٣٥٤٩٠.

(٢) في (أ) و(ب): وصدرت.

(٣) سقط من (أ) و(ب): في هذا تكثر.

- [٣٨]، وقال عز وجل: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَمًا﴾ ﴿١﴾ ﴿[الفرقان: ٦٤]، ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ ﴿٢﴾ [الفرقان: ٧٤]، فقال: ﴿أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ ﴿٣﴾ [المؤمنون: ٦١]، وقال: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ ﴿٤﴾ [السجدة: ١٦]، وقال: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ﴾ ﴿٥﴾ ﴿وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ ﴿٦﴾ [الذاريات: ١٧-١٨].

وقال ابن عمر: عن النبي عليه السلام أنه قال: «من جعل الهم هما واحدا ، جعل الله غناه في قلبه ، ومن تشعبت عليه الهموم لم ييال الله في أي أودية الدنيا هلك» ^(١).

وقال زيد بن ثابت: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «من كان نيته الدنيا جعل الله فقره بين عينيه ، وعسر عليه حاجته من الدنيا ، وأتاه فيها ما قدر له فيها ، وحرّم منها على أرغب ما يكون فيها ، ومن كانت نيته الآخرة جعل الله غناه في قلبه ، وكفاه حاجته من الدنيا ، وأتاه منها ما قدر له فيها ، وحرّم منها على أزهّد ما يكون فيها» ^(٢).

(١) ورد بلفظ: عن الأسود بن يزيد قال: قال عبد الله: سمعت نبيكم صلى الله عليه وسلم يقول: ((من جعل الهموم هما واحدا هم المعاد ، كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم في أحوال الدنيا ، لم ييال الله في أي أوديته هلك)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ٢/ص ١٣٧٦/ح ٤١٠٦ ، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ٤٨١/ح ٣٦٥٨ .
(٢) ورد بلفظ: عن عمر بن سليمان قال: سمعت عبد الرحمن بن أبان يحدث عن أبيه قال: خرج زيد بن ثابت من عند مروان نصف النهار قال: قلت: ما بعث إليه هذه الساعة إلا لشيء سأله عنه فسألته ، فقال: سألنا عن أشياء سمعناها من رسول الله صلى الله عليه وسلم سمعت رسول الله

وبلغنا أن رجلا مر على أصحاب النبي صلى الله عليه فقال لهم: « علموني مما علمكم الله ، فقالوا له: اعمل كذا افعل كذا ، وإلى قرب القوم معاذ بن جبل فقال: يا هذا لقد أكثر عليك القوم حتى أنساك آخر حديثهم أوله ، وإني أصف لك خليتين إن حفظتهما حفظت جميع ما قالوا لك ، وإن نسيتهما نسيت جميع ما قالوا لك ، وذلك أنك إن طلبت الدنيا فأنتك الآخرة ، وإن طلبت الآخرة أخذت من الدنيا ما قسم لك ، وأدرك خطك في الآخرة ، فيدونك والإختيار لنفسك ، واعلم أن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون ، والسلام. فقال الرجل: تالله ما رأيت كاليوم في الفضل » ^(١).

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أفضل الناس عند الله عبد ترك ما يحب وأثر ما يحب الله ، فأجهد نفسه في طاعة الله ، ولم يشغل نفسه

صلى الله عليه وسلم يقول: ((نضر الله امرأ سمع منا حديثا فبلغه غيره ، فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه ، ورب حامل فقه ليس بفقيه ، ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله ، ومناصحة ولاة الأمر ، ولزوم الجماعة ، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ، ومن كانت الدنيا نيته ، فرق الله عليه أمره ، وجعل فقره بين عينيه ، ولم يأت من الدنيا إلا ما كتب له ، ومن كانت الآخرة نيته ، جمع الله له أمره ، وجعل غناه في قلبه ، وأتته الدنيا وهي راغمة)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٢٧١/ح ٦٧ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٣٤/ح ٢٦٥٦ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٨٥/ح ٢٣٠ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ٨٧/ح ٢٢٩ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٧/ص ٢٠١/ح ٧٢٧١.

(١) ورد بلفظ: عن محمد بن سيرين قال: أتى رجل معاذ بن جبل ومعه أصحابه يسلمون عليه ويودعوناه فقال: ((إني موصيك بأمرين ، إن حفظتهما حفظت ، إنه لا غنى بك عن نصيبك من الدنيا ، وأنت إلى نصيبك من الآخرة أفقر ، فأثر نصيبك من الآخرة على نصيبك من الدنيا ، حتى تنتظمه لك انتظاما ، فتزول به معك أينما زلت)) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج ٢٠/ص ٣٥/ح ٤٩ ، وابن أبي شيبه في مصنفه ج ٧/ص ١٢٥/ح ٣٤٦٩٥.

بشيء من الدنيا عن أمر الله ، وما ترك عبد شيئا من أمر الدنيا إلا عوضه الله خيرا منه » ^(١).

وقال عمر بن الخطاب: عن أبي الدرداء قال: « كنت في الجاهلية امرأة تاجرا فلما صار الإسلام داومت بين العبادة والتجارة ، فلم يجتمعا فاخترت الآخرة على الدنيا ، ثم ، فارضوا بالفاني منها » ^(٢).

وقال عمر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الأعمال بالنية وإنما لكل أمر ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله وإلى رسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو إلى امرأة يتزوجها ، فهجرته إلى ما هاجر إليه » ^(٣).

(١) لم أقف عليه.

(٢) وردت الرواية عن أبي الدرداء بلفظ: ((كنت تاجرا قبل أن يبعث النبي صلى الله عليه وسلم ، فلما بعث زاولت التجارة والعبادة فلم يجتمعا ، فأخذت العبادة وتركت التجارة ، والذي نفس أبي الدرداء بيده ما أحب أن لي اليوم حانوتا على باب المسجد لا تخطني فيه صلاة أربع فيه كل يوم أربعين دينارا أتصدق في سبيل الله. قيل له: لم يا أبا الدرداء ، وما تكره من ذلك؟ قال: شدة الحساب)) أخرجه المتقي الهندي في كثر العمال ج ٠/ص ٨٥٨٨.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ٤/ح ١ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٥١٦/ح ١٩٠٧ ، والنسائي في سننه ج ١/ص ٦٠/ح ٧٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ١١٥/ح ٣٨٨ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ١/ص ٧٤/ح ١٤٢ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ١٨٠/ح ١٦٤٧ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤١٣/ح ٤٢٢٧ ، وأبو داود في سننه ج ٢/ص ٢٦٢/ح ٢٢٠١ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٢٥/ح ١٦٨ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٩/ح ٣٧ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ١٧/ح ٢٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٨٠/ح ٧٨ ، والدارقطني في سننه ج ١/ص ٥١/ح ١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٣٦/ح ١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١/ص ٤١/ح ١٨١ ، وابن الجارود في المنتقى ج ١/ص ٢٨/ح ٦٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ١٨/ح ٤٠.

وقال مالك بن دينار: قال لي عبد الله الرازي: يا مالك كان أهل العلم بالله والقبول عنه يقولون: « الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والسبع يقسي القلب ويفتر البدن ، فأعون الأخلاق على الزهد في الدنيا قصر الأمل ومراقبة الأجل »^(١).

فقد فسرنا الزهادة في الدنيا والأربع الخلال التي زهد الزاهدون من أجلها ، وهو معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « من زهد في الدنيا هانت عليه المصيبات » ، وكذلك هو وبالله نستعين.

باب الترقب

وهو الشعبة الرابعة من الصبر ، والمراقبة لله على وجهين: مراقبة لله في السر والعلانية وهو رأس الخشية من الله ، فهو أعلى الجهتين وأشرفهما عند الله منزلة.

ومراقبة الموت وهو الوجه الثاني الذي ذكره علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: « من ترقب الموت سارع في الخيرات » ، وهو قصر الأمل ومراقبة الأجل.

باب المراقبة لله عز وجل

وهو الوجه الأول ، فمن راقب الله في السر والعلانية استوت سريرته وعلانيته ، ومن كان مراقبا لله بقلبه عند كل خطرة يحبها الله وعند كل خطرة يكرهها

(١) ورد بلفظ: عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((الزهد في الدنيا يريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والبطالة تقسي القلب)) . أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ١٨٨/ح ٢٧٨ ، والمتقي الهندي في كثر العمال ج ٠/ص ٦١/ح ٦٠٦١.

الله ، فإذا وصل العبد إلى مراقبة الله عند خطرات القلوب أورثه ذلك الحياء من الله ، وذلك أن خطرات القلوب على جهتين:

خطرة من الله منبهة تخطر القلب وهي الداعية إلى الطاعة.

والخطرة الثانية خطرة الوسوسة وهي إلقاء من الشيطان امتحان من الله وبلوى ، وأهل المراقبة لله في خطرات قلوبهم تستحي قلوبهم وأنفسهم من الله عند خطرة الطاعة أن يراهم الله غافلين عن قبول ما خطر بقلوبهم ، أو نقصوا عن اعتقاد ذلك ، إذا كان ذلك من الله من به عليهم ، فأوصل ذلك إلى قلوبهم ، فهم يستحيون من الله أن يكون عرض عليهم شيئاً يحبه لهم ووهبه إياهم فتأباه قلوبهم ، فيزول بذلك عنهم مراقبة ربهم في كل ما أحبه لهم وخصهم به من فوائده ، وأهدى إليهم من ألطاف كرامته ، فهم يقبلون ذلك بالحببة له والرضا في أسرع من الطرف ، حياء من الله وحباً له وإعظاماً لما أهداه إليهم ، وتعظيماً لهديته وخوفاً من المقت على ردها ، فهم ولهون إليها ، مراعون لأنفسهم في قبولها ، مع ما ذكر لهم هنا من جزيل الثواب عاجلاً وآجلاً ، كما قال ابن مسعود لمة من الملك ولمة وله من الشيطان ، فأصل المراقبة لا يترك لمة الشيطان تنبت في قلوبهم ، يزيلونها بالخشية والإعظام لله تعالى وشده ^(١) ، الحياء منه ، فلا يكون منهم عند ذلك تعمد لمعصية ، وإنما تكون منهم على غير جهة العمد منهم ، ثم يتوبون من قريب كما وصفهم الله تعالى فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ، فرجعوا إلى الله بالاستغفار وتقربوا إليه بالإقلاع ، شدة إعظام له وحياء منه ، وتذكر [من] العظيم أياديهِ ، وكثره منته وتواتر نعمه عاجلاً وآجلاً وقديماً وحديثاً.

(١) في (أ) و(ب): لله وسورة.

وقال الزبير بن العوام ، وأبو موسى الأشعري: « كان أصحاب محمد صلى الله عليه وآله إذا فقدوا الوسواس من قلوبهم عدوها نقصا » ^(١) ، وقال أبو هريرة وغيره: عن النبي قال: « جاء قوم من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم فشكوا ما يلقون من الوسواس ، فقالوا: يا رسول الله إنا لنجد في قلوبنا ما نتعاضم أن نتكلم به ، وأن لنا ما طلعت عليه الشمس. قال النبي صلى الله عليه وآله وعلى آله: وقد وجدتموه؟! قالوا: نعم ، يا رسول الله. قال عليه السلام: أبى عدو الله إلا الوسواس وذلك صرح الإيمان » ^(٢) ، يعني كراهيتهم لما ألقى الله إليهم ، فأهل المعرفة بالله إذا فقدوا الوسواس التي هي دليل الحرب والعداوة بينهم وبين عدوا الله ، خافوا أن يكون قد ظفر بهم ، وهم لا يأمنون عداوته لهم على كل حال ، أرأيتك ولو كان لك عدو ذاهل تراه وتشاهده وقد برز لك للحرب عداوة لك ، كيف كان يكون حالك عنده لو غفلت عنه؟! فكيف يكون حالك مع عدو قد غاب عنك إذا غفلت عنه وهو غير غافل عنك عن إزالته عن دينك.

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد بلفظ: عن عمارة بن أبي حسن المازني ، عن عمه ، أن الناس سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم ، لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ذاك صريح الإيمان ، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك ، فإذا عصم منه وقع فيما هنالك)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٣٦٠/ح ١٤٦ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٣٢٩/ح ٥١١١ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٤٠/ح ٣١٦١ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٥٢/ح ٢٧٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ٣٣٨/ح ١٠٨٣٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ١٧١/ح ١٠٥٠٣ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٤٢٦/ح ٤٨٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٧/ص ١٥٧/ح ٤١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٢٣٢/ح ٧٠١.

فاتق الله واعلم أن الله لم يأمرك بعداوته إلا وقد نظر لك رحمة منه بك وشفقة عليك ، فقال: ﴿ إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦] ، وقال في ذم قوم تولوا : ﴿ إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ [الكهف: ٥٠] ، فذلك قول الزبير وأبي موسى: « كانوا إذا فقدوا الوسواس من قلوبهم عدوها نقصا ».

وقال عمار بن ياسر رحمة الله عليه في حديث أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ، وحديث بن غنيمة حين صلى بهم عمار صلاة الفجر فقرأ سورة: ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ [الإخلاص: ١] ، فقليل له: « يأبا اليقظان لقد خففت الصلوة!! فقال: بادرت الوسواس ، هل رأيتني نقصت من حدودها شيئا؟! سمعت رسول اله صلى الله عليه وعلى آله يقول: إن المصلي ليصلي الصلاة لا يرفع له فيها نصفها ولا ثلثها ولا ربعها ولا سدسها ولا سابعها ولا ثمنها ولا تسعها ولا عشرها »^(١) ، وكذلك على أجزاء. فكان القوم إذا صلى أحدهم الصلاة القصيرة بتمام ركوعها وسجودها وقيام القلب فيها كما روى

(١) ورد بلفظ: عن عمار بن أبي حسن المازني ، عن عمه ، أن الناس سألو رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوسوسة التي يجدها أحدهم ، لأن يسقط من عند الثريا أحب إليه من أن يتكلم به؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ذاك صريح الإيمان ، إن الشيطان يأتي العبد فيما دون ذلك ، فإذا عصم منه وقع فيما هنالك)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٣٦٠/ح ١٤٦٦ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٣٢٩/ح ٥١١١ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٤٠/ح ٣١٦١ ، والطيلالسي في مسنده ج ١/ص ٣٥٢/ح ٢٧٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ٣٣٨/ح ١٠٨٣٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ١٧١/ح ١٠٥٠٣ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٤٢٦/ح ٤٨٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٧/ص ١٥٧/ح ٤١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٢٣٢/ح ٧٠١.

أبو هريرة وأنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «أنه كان أخف الناس صلاة في تمام» ^(١) ، وقال ابن عباس: «ركعتان بتفكير واعتبار واعتقاد خير من إحياء ليلة والقلب ساهي» ^(٢) ، وقال كعب بن أبي كعب: «صلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأسقط آية من القرآن فلما انتقل من صلاته قال للقوم: هل أسقطت من صلاتي شيئا؟ فقالوا: لا ندري ، فقال: أفيكم علي بن أبي طالب؟ قالوا: نعم ، قال: يا علي هل أسقطت من القرآن شيئا. قال: نعم يا رسول الله ، آية كذا وكذا. فقال النبي صلى الله عليه وآله: إنما هلك من كان قبلكم بمثل هذا بحضور الذكر بأبدانهم وقلوبهم غائبة عنه ، إن الله لا يقبل صلاة عبد لا يحضر فيها عقله مع بدنه» ^(٣).

(١) عن أنس بن مالك قال: ((كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخف الناس صلاة في إتمام)). أخرجه مسلم في صحيحه ج ١/ص ٣٤٢/ح ٤٦٩ ، والنسائي في سننه ج ٢/ص ٩٥/ح ٨٢٤ ، وابن حبان في صحيحه ج ٥/ص ١٦٦/ح ١٨٥٦ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ٣/ص ٤٨/ح ١٦٠٤ ، وابن حنبل في مسنده ج ٣/ص ١٧٠/ح ١٢٧٥٧ ، والمحاكم في مستدركه ج ١/ص ٣٣٧/ح ٧٨٤ ، والطبائسي في مسنده ج ١/ص ٢٦٧/ح ١٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١/ص ٢٥٢/ح ٧٢٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٢١١/ح ٦٠٩ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج ٣/ص ٢٢/ح ١٣٠٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٢/ص ١٨٢/ح ٢٨٢٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٣/ص ٣١/ح ١٤٤٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ١/ص ٤٠٥/ح ٤٦٦٢ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٢/ص ٢٤٦/ح ٣٢٣١ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ٣٢٢/ح ١٢٦٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ١٦/ح ١٠٧٨.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد بلفظ: عن أبي كعب قال: ((صلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاة فقرأ سورة فأسقط منها آية ، فلما فرغ قلت: يا رسول الله آية كذا وكذا أنسخت. قال: لا ، قلت: فإنك لم تقرأها. قال: أفلا لتنتهيا)). أخرجه الدارقطني في سننه ج ١/ص ٤٠/ح ٥.

قال عثمان بن عفان ، وعقبة بن عامر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « من صلى ركعتين لا يحدث نفسه فيهما بشيء من أمر الدنيا ، خرج من ذنوبه كما ولدته أمه » ^(١) ، يعني به: الصغائر مع اجتنابه الكبائر ، والأخبار في هذا تكثر ، فرحم الله من وعى وانتفع.

فيجب على العاقل إذا قام للصلاة أن يعلم من يناجي إنما يناجي رب العزة ، فيجب عليه أن يجمع قلبه كأنه قائم على الصراط وعن يمينه الجنة وعن يساره النار وخلفه الموت وقدامه الموقف ، ويستيقن أنه مسئول عن جميع حرركاته وسكونه ، وأن يعلم أن ربه قد أمره بذلك ، فيجب عليه أن يكون خاضعاً ذليلاً بين يديه ، محبة منه لرضاء الله وتعظيماً له وهيبة لجلال عظمتة ، فاعمل وانتفع بما سمعت ولا تغير ، أعاننا الله وإياك على طاعته.

باب ما يعرف به المؤمن والخاطر

والذي يعرف به المؤمن ويفصل به بين الخاطر من الله والخاطر من الشيطان ، أن ما كان من الله دعاء إلى الطاعة وتحرك عليها ، وما كان من الشيطان فصارف عن ذلك وداع إلى ترك الطاعة ، والتهاون بما يجب فيها ، فأهل المراقبة لله إذا أحسوا ذلك أزالوه بالخشية والخوف من الله ، وأمدهم الله بالمعونة وأجزل لهم من التأييد ، فسهل بذلك عليهم محاربة عدوهم ، وتضعيف كيده في قلوبهم ، ﴿ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦ ﴾ [النساء: ٧٦] ، و ﴿ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۝١٠١ ﴾ [الأعراف: ٢٠١] ، وأما أهل

وأخرجه أيضاً المتقي الهندي في كتر العمال ج ١٠/ص ٢٢٩٨٧ بلفظ: ((صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الفجر فقرأ سورة فأسقط آية منها ، فلما انصرف قلت: يا رسول الله نسخت هذه الآية أو أنسيها. قال: لا ، بل أنسيها)) .

(١) لم أقف عليه.

الغفلة فإذا خطر خاطر الطاعة بقلوبهم تغافلوا عن قبوله ، لأنهم آثروا عليه ما يضرهم عاجلا وآجلا ، فإذا جاء خاطر الشيطان استقبلوه بالقبول والموافقة والشهوة ، فهم أبدا أسرى في يدي عدوهم ، وفاقدون لعصمة عون خالقهم ، وهم كما قال الله: ﴿وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّوْنَهُمْ فِي آلَئِي تُمْ لَا يُقْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٢]، فلله الحجة البالغة عليهم إذ بذل لهم كرامته ، وابتدأهم بها كما ابتدأ أوليائه القابلين عنه ، فاستقبلوها بالرد والكفران والتهاون ، فوجب في حكمه جل ثناؤه تغيير نعمه عليهم ، ولتخليته بينهم وبين عدوهم ، وهم مع ذلك قد مكّنوا من قبول ما ابتدأهم به من النعم المتواترة ، وابقائه عليهم ليتخلصوا من كيد عدوهم ، فإن فعلوا ذلك واستعانوا بنعمته على طاعته ، وقبول هدايته ، فأناوبوا إليه وراجعوه ، فرحمهم ولم تتعاضمه كثرة ذنوبهم ، وبدل سيئاتهم حسنات ، لأنه تعالى ذو فضل عظيم ، تواب حكيم ، وإن أبوا إلا تماديا في غيهم ، واتباعا لأهوائهم ، منعهم زيادته وكرامته ، التي يعطيها العابدين العاقلين بقبولهم ، وأبقى لهم وعليهم ما يمكنهم بدونه الرجوع إلى طاعته ، فإن لم يفعلوا ولم يقبلوا الكرامة عاجلا وآجلا ، ووافوه مصرين على ذنوبهم ، عاقبهم بما كسبت أيديهم وما الله بظلام العبيد.

فوفق الله عبدا قَبِلَ نِعَمَ رَبِّهِ ، واستقبلها بالقبول ، واستتمها بالمواظبة على شكرها ، ولم يزيلها عن نفسه سوى غيبة بها ، فقد وصف الله أهل المراقبة له ووصف قلوبهم ، فقال: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مِثْلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ

تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥]، فهذا مثل ضرب به قلوب أهل المعرفة ، وهو مثل نور أهل العلم الذي قد عرفه الله قلوبهم وأثبت به ، فيضيء

لذلك سائر بدنه ، فتظهر الطاعة والخشية لربه على سائر جوارحه ، فمثله كمثل السراج في البيت في مشكاة في زجاجة فمثله وهو القنديل المعلق بالسلسلة كما قال مجاهد: « المشكاة: حديد القناديل التي تعلق بها » ^(١) ، وقال ابن عباس: « المشكاة: الكوة التي يوضع فيها القنديل بالخشبة » ^(٢) ، ومثل الدهن في صفائه الذي لا تقوم النار إلا به ، ولكثرته وجودته وصفائه ، ولا يبين لها ضوء إلا باجتماع ذلك ، مثل النية التي لا تصح جميع الأعمال إلا فيها ، ونورها عند الله على قدر شدة العزم وضعفه.

فهذا مثل ، نور الإرادة مثل نور المصباح ، ومثل نور الهمة مثل الزجاجية لصفائها ، ومثل نور النية وهو مدى العلم الذي يكون به الاعتقاد مثل نور الزيت ومدده في صفائه ، قال الله جل ثناؤه: ﴿ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضَيِّءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَلَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ ، فهذا ذكر ثلاثة الأبواب ^(٣) التي ضربها الله لعباده في كتابه ، لقلوب المؤمنين في صفائها ، ثم جعل قلوب أعدائه والمعرضين عنه على خلاف ذلك ، فقال: ﴿ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَجْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكِدْ يُرْنَاهَا ﴾ [النور: ٤٠] ، فهكذا صفة قلوب العاصين من عباده ، قد صارت في الظلم لرين الذنوب على القلوب ، وتراكم القسوة عليها ، لاستسلامهم إلى قبول ما يلقي إليهم عدوهم ، وإيثارهم الانقطاع إليه بالقبول

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (ج): أبواب.

عنه دون خالقهم ، فنسأل الله حسن معونته ، وأن يكفيننا عداوته ، إنه منان كريم.

باب خطر الطاعة كيف عرفها الشيطان فعارضها

روي عن حذيفة أنه قال: « مثل القلب مثل الكف والأصابع ، إذا خطرت له خطرة الطاعة انفتحت إصبع ، وإذا خطرت له خطرة المعصية انقبضت إصبع »^(١) ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۖ كِرَامًا كُنْتِينَ ۖ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ ۚ ﴾ [الأنفطار: ١٠-١٢] ، فقد جعل الله للملك سببا إلى علم ذلك ، وأمره أن يكتب ما يحدث فيه من الطاعة ، وجعل له عليه علما يستدل عليه ، وخلق الشيطان وعلم ذلك ، ونهى أن ندعو إلى ضده ، بل أمر أن ندعو إلى مثله ، وممكن من فعله ، لتكون الحجة لله إن أبوا خلاف ما أمر به ، وممكنهم من فعله ، وكذلك سبيل العبد في تمكينه من القبول عن عدوه ، والرد عليه ما ألقاه إليه ، وإن أثر طاعة ربه هان عليه كيد عدوه ، وإنما فعل الله تعالى ما فعل من ذلك لتتم محبة خلقه ويستوجبوا ما أعد لهم من جزيل ثوابه ، لمخالفة عدوهم وإيثارهم لطاعة ربهم ، وكيف قال سبحانه: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَى ۖ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۖ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ۖ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ ۖ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۖ ﴾ [النازعات: ٣٧-٤١] ، إنما يكون بتحمل المشقة ومخالفة الهوى وترك اتباع الشهوة.

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « حفت الجنة بالمكاره - في حديث أبي هريرة - وحفت النار بالشهوات »^(٢) ، والشيطان

(١) لم أقف عليه.

(٢) سبق تخريجه.

قد مُكِّن من معرفة ما يهوى العبد ، وإن قبل منه كان دعاؤه له على قدر ما يعرف من هواه ، وإن قبل عن ربه انصرف عنه وخلاه ، كما قال الله جل ذكره: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ [الحجر: ٤٢] ، ولذلك هوى الله العبد عن اتباع الهوى ، فقال لداود عليه السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ١٧].

قال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: «أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل» ^(١).

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أخوف ما أخاف عليكم اتباع الهوى ، وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة» ^(٢) ، نعوذ بالله من الشيطان واتباع الهوى إنه لطيف رحيم.

ثم رجع الكلام إلى المراقبة في السر والعلانية عند خطرات القلوب ، فعبدوا الله كأنهم يرونه بحقائق الإيمان واليقين ، بأنه يراهم ولا يخفى عليه سرهم وجهرهم وحرركاتهم وسكونهم ، ولا تخفى عليه أمكنتهم حتى كأنهم يعاينون ثوابه وعقابه ، كما قال حارثة: «وكأني أنظر إلى أهل الجنة في الجنة يتزاورون

(١) لم أقف عليه.

(٢) لفظ الرواية هكذا: عن علي قال: ((إن أخوف ما أتخوف عليكم اثنتين ، طول الأمل واتباع الهوى ، فأما طول الأمل فينسي الآخرة ، وأما اتباع الهوى فيصد عن الحق ، ألا وأن الدنيا وقد ولت مدبرة والآخرة مقبلة ، ولكل واحدة منهما بنون ، فكونوا من أبناء الآخرة ، ولا تكونوا من أبناء الدنيا ، فإن اليوم عمل ولا حساب ، وغدا حساب ولا عمل)).

أخرجه ابن حنبل في فضائل الصحابة ١/ص ٥٣٠/ح ٨٨١ ، والطبراني في معجمه الكبير ٧/ص ٢٨٨/ح ٧١٥٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢١٦/ح ٥٥٩٨ ، والشافعي في مسنده ١/ص ٦٧/ح ٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ١٤٣/ح ٣٤٨٣٣.

« وأهل النار في النار يتعاوون ، فقال له النبي عليه السلام: أصبت فالزم »
(١)

وكما روي عن الحسن أنه قال: « إن لله عبادة هم في الجنة كمن قد دخلها ، فهم فيها متكئون ، وهم في النار كمن قد دخلها فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزونة ، وشورهم مأمونة ، وحوائجهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، نظروا فأبصروا ، وخاصموا ففلحوا ، تجارة يسرها لهم ربهم رحيم. فمنهم للخير أهل ، أرادهم الدنيا فلم يريدوها ، وطلبتهم فأعجزوها ، ونحن نريدها أجمعين ، قالوا: حلهم لنا يا أبا سعيد - يعنون: صفهم لنا - قال: أما الليل فقيام على أطراف أقدامهم ، مفترشوا جباههم ، وأما النهار فعلماء حلماء أبرار أتقياء ، براهم الخوف حتى صاروا كالقذاح ، حُصِّلَ الناظرون إليهم فقالوا مرضى ، وما بالقوم من مرضى بل خُولِطُوا ، ولقد خالط القوم أمر عظيم أعداء لمن سالم الناس الدنيا ، وسلم لمن عادوا منها ، ثم قال: إن أقواما تقووا بنعم الله على معاصيه ، أعطاهم أموالا فقووا بها على غير طاعة ، وجعل

(١) ورد الحديث بلفظ: عن الحارث بن مالك الأنصاري ، أنه مر برسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: كيف أصبحت يا حارث. قال: أصبحت مؤمنا حقا. فقال: أنظر ما تقول ، فإن لكل شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك؟ فقال: قد عزفت نفسي عن الدنيا ، وأسهرت لسلك ليلي ، واطمأن ناري ، وكأني أنظر إلى عرش ربي بارزا ، وكأني أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون فيها ، وكأني أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها. فقال: يا حارث عرفت فالزم ثلاثا)) .

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ٣/ص ٢٦٧/ح ٣٣٦٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ١٢٧/ح ١٠٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ١٦٥/ح ٤٤٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ١٧٠/ح ٣٠٤٢٣ .

لهم سلطانا فقهروا به عباده ، فيا ويلهم غدا لو عاينوا الجزاء ، لكل ساع ما سعى ^(١) .

فلما عبده أهل المعرفة على درجة المراقبة ، وعلموا كيد عدوهم ، وعرفوا ما امتحنوا به منه ، وأنه غير غافل عنهم ^(٢) ، ولا تارك لدعائهم من كل وجه طمع فيه من قبلهم ، كان حذرهم ومراقبتهم على قدر علمهم وشدة إعظامهم لخالقهم ، ما ورثهم ذلك الحياء منه عند خطرات القلوب ، فصاروا لذلك أوفر الخلق عنده نصيبا ، وأخشعه في العمل لله قلوبا ، والدؤب في طاعته ، وذلك أنهم إذا ذكروا نظره إليهم ، وعلمه بخفياتهم إذ كانوا في طاعته ، إزدادوا خشعا ، وبالخلق قهوانا ، وعن تضييع أمره تباعدا ، ولم تأخذهم في الله لومة لائم ، في أنفسهم ولا في أموالهم ، وقاموا لله بواجب حقه عليهم ولهم ، بما يستحقه خالقهم من المحبة لما أحب ، والعمل به والدعاء إليه ، والسخط لما سخطه وتركه ، والنهي عنه وإن سخط الخلق منهم ذلك لم يؤثروا إلا رضا الله على رضا من سواه .

وكذلك قال لقمان لابنه : « يا بني إنك لن تنال ولاية الله إلا بعداوة كثير من الناس ، ولن تنال رضا الله إلا بسخط كثير من الناس ، وذلك كله قليل فيما تطلبه من الله » ^(٣) .

(١) ورد بلفظ: عن الفرات بن سليمان ، أن الحسن بن أبي الحسن كان يقول: ((إن لله عبادا هم والجنة كمن رآها ، فهم فيها متكئون ، وهم والنار كمن رآها ، فهم فيها معذبون ، قلوبهم محزنة ، وشروهم مأمونة ، وحاجاتهم خفيفة ، وأنفسهم عفيفة ، أما الليل فصافة أقدامهم ، مفترشو جباههم ، يناجون ربهم في فكاك رقابهم ، وأما النهار فحلما علماء ، أبرار أتقياء ، براهم الخوف فهم أمثال القداح ، ينظر الناظر فيقول: مرضى وما بهم من مرض ، ويقول: قد خولطوا أو قد خالط القوم أمر عظيم)) . أخرجه في المهم والحزن ج ١/ص ٦٩/ح ٩١ .

(٢) في المخطوط: منهم. ولعل الصواب ما أثبت.

(٣) لم أقف عليه.

وقال أبو ذر رحمة الله عليه: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حين سأله عن أوثق عرى الإيمان قال له: «تحب في الله وتبغض في الله» ^(١).

فإذا وصل العبد إلى درجة الحياء من الله كان كما جاء الخبر: «إذا استوت سريرة عبدي وعلائيته فذلك عبدي حقا» ^(٢). وقد أخبر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بحقيقة الحياء من الله في حديث ابن مسعود.

أخبرنا أبو عمرو العبدى ، قال: أخبرنا مروان بن أبي معاوية الفزاري ، عن ابن إسحاق ، عن الصباح بن محمد ، عن قراءة الهمداني ، عن عبد الله بن مسعود ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوما لأصحابه: «بينوا آجالكم دون آمالكم ، واستحيوا من الله حق الحياء ، قالوا: يا رسول الله إنا بحمد الله نستحي من الله ، قال: ليس ذلك حقيقة الحياء من الله ، ولكن من استحيا من الله حق الحياء فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فإذا فعل العبد ذلك فقد استحيا من الله حق الحياء» ^(٣).

(١) ورد بلفظ: عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي ذر: ((أي عرى الإيمان ، أظنه قال: أوثق. قال: الله ورسوله أعلم. قال: الموالاة في الله ، والمعادة في الله ، والحب في الله ، والبغض في الله)).

أخرجه الطيالسي في مسنده ج ١/ص ٥٠/ح ٣٧٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ١٧٢/ح ١٠٣٥٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٣٧٤/ح ٦٢٤ ، والبيهقي في سننه الكبير ج ١٠/ص ٢٣٣/ح ٢٠٨٥٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص ٣٧٦/ح ٤٤٧٩.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) ورد بلفظ: عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استحيوا من الله حق الحياء. قالوا: يا رسول الله إنا لنستحيي والحمد لله. قال: ليس ذلك ، ولكن من استحيى من الله

وقال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أنه قال: « تدع زينة الحياة الدنيا ، وتؤثر ما يبقى على ما يفنى ، ثم قال: هنالك استحياء العبد من الله ، وهنالك أصاب العبد ولاية ربه » ^(١).

فقد فسر النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن حقيقة الحياء من الله حفظ الرأس وما حوى ، يريد بذلك ما فيه من السمع والبصر واللسان والشم ، ألا يجعل ذلك كله إلا في موضعه وما خلق له. فلا يسمع إلا ما يعنيه ، ولا ينظر إلا بما يزينه عند الله ، ولا ينظر إلا معتبرا ، ولا يشم إلا مباحا ، وأراد بذلك البطن وما وعى ، يريد بذلك العقل ، وذلك أن العقل مسكنه القلب ، فلا يستعمل عقله إلا فيما يرجع عليه نفعه في معاده ، وقال: « والبطن وما وعى » ، يريد بذلك كلما أضمر عليه القلب من معرفة الله ، والنصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، ويريد بـ« البطن - أيضا - وما وعى » ، كلما أدخل جوفه لا يكون ^(٢) إلا حلالا طيبا ، ويريد بذلك الفرج لأنه من الجوف كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أخوف ما أخاف عليكم شهوته ،

حق الحياء ، فليحفظ الرأس وما حوى ، والبطن وما وعى ، وليذكر الموت والبلى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الدنيا ، فمن فعل ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء)) .
أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج ١/ص ٣٩/ح ٩٠ ، وأيضاً في الورع ج ١/ص ٦٢/ح ٥٩ ،
والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٣٨/ح ٢٤٥٨ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٨٧/ح ٣٦٧١ ،
والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣٥٩/ح ٧٩١٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٣/ص ٢١٩/ح ٣١٩٢ ، وأيضاً في معجمه الصغير ج ١/ص ٢٩٨/ح ٤٩٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٨/ص ٤٦٢/ح ٥٠٤٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٧٧/ح ٣٤٣٢٠ .

(١) مستدرک وسائل الشيعة ١٠١/٢ .

(٢) في (أ) و(ب): لا يكن. مصحفة.

ما في بطونكم وفروجكم ، فمن حفظ ذلك - كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم - فقد استحيى من الله حق الحياء ^(١) .
وقد بين لهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم كيف يستحيون من الله حق الحياء .

وروى سعيد بن زيد الأسدي قال: « جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال: يا رسول الله أوصني. فقال: تستحيي من الله كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك » ^(٢) ، وذلك أن الرجل الصالح تستحيي منه لما ظهر لك منه أن يراك على المعصية ، أو يراك في درجة التقصير فيزدرى عقلك ، وهو لا يعلم الباطن منك ، فلو علم الباطن كما يعلم الرب منك. والله عز وجل وإن كانت العيون لا تراه ولا يجوز ذلك في صفته ، فإن اتفاق القلوب به كاتفاق العيون بما أدركته من ذلك ، لعظم برهانه وتواتر حجته ، وكثرة أدلته وسبوغ نعمته ، فأقل ما يجب على أهل المعرفة بالله جل ثناؤه أن يستحيوا من الله كما يُستحيى من الرجل الصالح من قومه فيما ظهر له ، فمن حافظ على ذلك فقد استحيى من الله حق الحياء ، على أن تفاضل الحياء من المؤمنين على قدر علومهم بالله ، وبكنه ما يجب له من تعظيمه على من سواه من خلقه ، ولكثرة أياديهم عندهم ، ولسبوغ نعمه عليهم ، وقد قال بعض الحكماء الحب للمخلوقين على أقدارهم في منازل الدين والدنيا ، والله تعالى

(١) ورد بلفظ: عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إن مما أخاف عليكم شهوات الغي في بطونكم وفروجكم ، ومضلات الهوى)) .

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٤/ص ٤٢٠ ح/١٩٧٨٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٣٠٩ ح/٥١١ .

(٢) ورد بلفظ: عن سعيد بن يزيد الأزدي أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم: أوصني ، قال: ((أوصيك أن تستحيي من الله عز وجل كما تستحيي من الرجل الصالح من قومك)) .

أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج ٦/ص ٦٩ ح/٥٥٣٩ .

وعز أولى من أجل مقامه وروقب في أمره ونهيه. ويروى عن وهب بن منبه أنه قال: قال عيسى بن مريم: «يا بني إسرائيل استحيوا من الله كما تستحيون من الناس في علانيتكم»^(١).

فإذا وصل العبد إلى حقيقة الحياء من الله أورثه الدرجة العليا ، والمترلة الكبرى ، ومن الحياء أنهم يستحيون من الله في تقلبهم وقِيامهم وقعودهم وحرركاتهم وسكونهم ، مما أبيض لهم حياء أشد حياؤهم من الله فيما لا بد لهم منه.

فمن ذلك ما روى الزبير بن العوام قال: خطب أبو بكر الناس فقال: «أيها الناس استحيوا من الله فوالله ما دخلت الخلا منذ أسلمت إلا مقنعا الرأس حياء من ربي»^(٢) ، وقال ابن عمر: «إنه رأى رجلا أسود بفلاة من الأرض يلتفت يمينا وشمالا فلم ير أحدا ثم دخل إلى خراب وستر فوقه بثوب ، قال ابن عمر: تستر على نفسك وليس أحد يراك؟! قال: أولا أستحيي من الله»^(٣) ، وقال عثمان بن عفان: «إني لأتعرى في الفضاء من الأرض فأحني صليبي على عورتي حياء من ربي»^(٤).

وأخبرنا علي بن الجعد ، قال: حدثنا محبوب البصري ، قال: سمعت الحسن يقول: «لقد أدركت أقواما ما طوي لأحد منهم ثوب قط ، ولا اشتهى أحد منهم شهوة على أهله قط ، ولا أمرهم بصنعة طعام قط ، ولا قاسم أخاه ميراثا قط ، وإن كان أحدهم ليرث الميراث مع أخيه فيقول له: لك كله ، كي

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن أبي موسى قال: ((إني لاغتسل في البيت المظلم فأحني ظهري إذا أخذت ثوبي حياء من ربي)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج ١/ص ١٠٠/ح ١١٢٨.

وفي لفظ آخر لأبي موسى: ((ما أقمت صليبي في غسلي منذ أسلمت)). أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج ١/ص ١٠١/ح ١١٤٠.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

لا يشغل نفسه بشيء من الدنيا ، وإن كان أحدهم ليأكل الأكلة فيتمنى أنهما تبقى في جوفه كما تبقى الآجرة في الماء حتى تكون زاده من الدنيا ، كل ذلك كراهة منهم أن يشتغلوا بشيء من الأمور عن ذكر الله ، وإن كان لا بد لهم منه فهم متكرهون له لما يعلمون في غيره من القربة إلى الله والرفقة لديه «^(١) .

وقال هشام بن عروة قال: « أني يا بني لا تهدين من البدن شيئا تستحي أن تهديه إلى كريم من المخلوقين ، فإن الله أكرم الكرماء وأحق من اختيار له »^(٢) .

ذكر عن عمر أنه قال: « الحياء والإيمان قرنا جميعا فإذا ارتفع أحدهما ارتفع الآخر »^(٣) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « الحياء حياءً آناً : الحياء طرف من الإيمان ، وحياء عجز »^(٤) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « خلطان يجبهما الله السماحة والحياء »^(٥) ، وقال: « إن الله اختار الإسلام لنفسه ديناً ، فأحسنوا صحبتته بالحياء والسخاء

(١) ورد عن الحسن بلفظ: ((أدركتهم والله إن كان أحدهم ليعيش عمره ما طوي له ثوب قط ، ولا أمر أهله بصنعة طعام له قط ، ولا حال بينه وبين الأرض شيء قط)) . أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ج ٧/ص ١٩٠/ح ٣٥٢٢٦ .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) لم أقف عليه .

(٤) لم أقف عليه .

(٥) ورد عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال للأشج العصري: ((إن فيك حصلتين يجبهما الله الحلم والحياء)) .

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص ٢٠٥/ح ٥٨٤ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٦/ص ١٨٢/ح ٧٢٠٤ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٣٦٧/ح ٢٠١١ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٠١/ح ٤١٨٨ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٢٠٦/ح ١٧٨٦٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ٢٣٠/ح ١٢٩٦٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤١٦/ح ٧٧٤٦ ،

، فإنه لا يصلح إلا بهما^(١) ، وقال: « الحياء والإيمان يجريان طلوعا فإذا خرج أحدهما اتبعه الآخر^(٢) ».

وكذلك يجب في كل ما عمل لله أن يكون أعلا الأمور وأرفعها قدرا في قيمتها وثمنها ، ويكون له خالصا لا بتغاء مرضاته دون من سواه ، فإنه قد قال بعض الحكماء: « ينبغي للعبد أن ينظر ما هو أي: أليس هو عبد ذليل يتعبد^(٣) . وعلى ما هو أي: على ما هو مقيم على ما خُلق له وأمر به ، أم على ما لم يُخلق له ولم يُؤمر به ، وقد نُهي عنه ورُغب في غيره ، وفيه هو أي فيم هو من الأعمال التي يعملها ، لم يعملها الله مخلصا لا يريد بها غيره ، ولا يطلب المترلة بها إلا عنده جل ثناؤه ، أم ليقال: ما أورعه وأكفه وأقبله على شأنه!!! وكذلك ينظر لمن تكلم لله أم لغير الله ، فيما وجب عليه الكلام فيه ، أو فيما لا يعنيه ، أو فيما قد نُهي عنه ، وعلام لا يتكلم عن أن يتقرب إلى الله بكلامه ، ويقضي به ما يجب من حقه ، فيما أوجب عليه من النهي عن معصيته ، أو ليقال^(٤): ما أشد غضبه لله!! وأقومه بواجب حق الله^(٥)!!

وكذلك ينظر لمن يصمت لأنه لا يحل له الكلام ، أم ليقال: ما أطول صمته! وأكفه عن دخوله فيما لا يعني!! . وعلام يصمت أعلى ما قد وجب عليه الصمت فيه؟ أم فيما قد وجب عليه الكلام فيه؟ أم ليقال: ما أطول صمته

والطبراني في معجمه الصغير ج ٢/ص ٦٧/ح ٧٩٢ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ج ٣/ص ٢٦٦/ح ١٦٤٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١٢/ص ٢٤٣/ح ٦٨٤٨ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ج ١/ص ٦٠/ح ٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٢١٢/ح ٢٥٣٤٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في المخطوطات: أوفى ليقال. ولعل الصواب ما أثبت.

(٥) سقط من (أ) و(ب): وأقومه بواجب حق الله.

وأكثر احتمالاً!! وعلام يصمت أعلى أن يسلم دينه ولا يخرج القول إلى ما لا يحل له؟! وعلى علم هو مكتفي به ، لا علم طلب به الرئاسة ، والرئاسة بالحلم والكظم للغیظ والإحتمال والصبر.

وكذلك يجب على العبد في كل أحواله من أخذه وعطائه ، وجهه وبغضه ، وقبضه وبسطه ، أن ^(١) يرى نفسه لله بالمراقبة وشدة الحياء منه ، إلا أن تكون ^(٢) منزلة عنده من ذكر أقل من منزلة مخلوق مثله ، فإن المخلوق أقل ما يوجب لبعض عظماء الدنيا إذا علم منه أنه يعلم موارد أموره ومصادرها ، ويتفقد ذلك عليه ، وهو ممن يجب أن يتقرب إليه ببعض عمله ، ويعلم منه أن لا يقبل منه شيئاً من تقربه إلا ما كان له خالصاً ، فإنه لا يقصر عند ذلك في غاية النصيحة والتفقيه لما يكون منه في ظاهره وباطنه ، فيجب على أهل المعرفة بالله أن يكون الله عندهم بأعلى منزلة وأشد هيبة وأكثر إجلالاً وأخلص محبة عند جميع خلقه ، إذ كان هو المستحق لذلك دون من سواه ، وأقل ما يجب على من علم أن الله بأمره عالم وعلى عقوبته قادر أن يكون منه على حذر ، ويقوده علمه إلى الزهد فيما يفنى ، والرغبة فيما يبقى.

وخلة أخرى من الحياء من الله لأن لا يرى قلوبهم ترجو غيره ، أو تخاف غيره ، كما قال عامر بن قيس بن عبد الله العنبري ، وعمر بن عتبة بن قرقد كلاهما قالا: « إنا لنستحيي من الله أن نخاف شيئاً سواه » ^(٣). والأخبار في ذلك تكثر.

فلما هاج الحياء منهم استحيوا من الله فيما أطلق من الطعام والشراب واللباس وغير ذلك ، أن يشتغلوا بشيء منه إلا ما أوصلهم إلى طاعته ، وكان عوناً لهم

(١) في (ج): وأن.

(٢) في (أ) و(ب): إن لا يكون.

(٣) لم أقف عليه.

عليها ، فما ظنك بحيائهم منه فيما لم يطلق لهم؟! أو يكونوا على نقصان في حدود الحياء من أجل^(١) ارتكابه ، فقد فسرنا أوجه الحياء من الله ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله والمراقبة له وأهل الإجلال لمقامه.

والوجه الثاني من المراقبة هو مراقبة الموت وخفاة أن يفوتهم ما أملوه من ثواب الله ربهم ، فهم يعاملونه بالجد والاجتهاد مبادرة الفوت ، لأنهم فهموا عن ربهم ما ندبهم إليه ، فقال جل ثناؤه: ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقَلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾^(٢) أُولَئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ^(٣) [المؤمنون: ٦٠-٦١]، يقول: وجلت قلوبهم لما يخوفون من سالف أعمالهم الدنية ، ولعلمهم بالمرجع إلى الله ، فيبادرون آجالهم بالإستكثار من طاعتهم ، لأنهم يعلمون أن كل ساعة تمضي بهم كان اشتغالهم فيها بغير ما خلقوا له فهم قد خسروها ، وأنه لو كانت لهم الدنيا يحذاريها^(٢) لبذلوها لترد^(٣) الساعة الماضية عنهم ، ليعملوا فيها لم يجابوا إليه ، ولم يقدروا عليه ، فإشفاقهم من الخسران على قدر عملهم بما فاتهم من ثواب عملهم في مقدار ساعاتهم التي عینوها، وأنه لا شيء من أمور الدنيا منذ مبتدائها^(٤) إلى تصرفها يوازن ما فاتهم من نعيم ثوابها.

وقال الله عز وجل: ﴿السَّابِقُونَ السَّابِقُونَ﴾^(٢) أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ^(٣) [الواقعة: ١٠ - ١١]، الحسن في قوله: ﴿يُؤْتُونَ مَاءً آتَوْا وَقَلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ﴾، قال: يعملون ما يعملون من أعمال البر وهم يخافون ألا تنجيهم من عذاب الله،

(١) في (ج): في حدوده ، والحياء من أجل.

(٢) وظنن فوقها بس: بخذافيرها.

(٣) في (ج): ليردوا.

(٤) في (أ) و(ب): مبتدائه.

وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَلِيعِينَ﴾ (٥) وعن مسعود: عن النبي صلى الله عليه وآله: « لا تحاسدوا إلا في اثنتين رجل آتاه الله الحكمة فهو يعمل بها ويعلمها الناس ، ورجل آتاه الله مالا سلطه على هلكته في الحق »^(١). فإذا كانوا في درجة المنافسة أورثم ذلك قصر الأمل ، ومراقبة الموت مخافة الموت ، فتسابقوا وبادروا كما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « بادروا أربعا قبل أربع ، اعمل لصحتك



(١) أخرجه المرشد بالله في أماليه ٨٤/١.

وعن عبد الله ابن مسعود قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لا حسد إلا في اثنتين ، رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق ، ورجل آتاه الله حكمة فهو يقضي بها أو يعلمها)).

أخرجه المرشد بالله في أماليه ٨٤/١ ، والبخاري في صحيحه ج ١/ص ٤٠/ح ٧٣ ، ومسلم في صحيحه ج ١/ص ٥٥٩/ح ٨١٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٢٩٣/ح ٩٠ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٣٣٠/ح ١٩٣٦ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٠٨/ح ٤٢٠٨ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٨٥/ح ٣٦٥١ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٤٩/ح ٣٦٩ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ٥٥/ح ٩٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ٢٩٦/ح ١٣١٦٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٢٦/ح ٥٨٤٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٩٤/ح ١٢٥ ، وأيضا في مسند الشاميين ج ٢/ص ٢١٥/ح ١٢١٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٤/ص ١٨٩/ح ٧٦١٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٣٤١/ح ١٠٨٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٢٣٩/ح ٧٢٩ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ١/ص ١١٩/ح . ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٨١/ح ٢٣١.

قبل سقمك ، وفراغك قبل شغلك ، وشبابك قبل هرمك ، وحياتك قبل موتك «^(١).

وأخبرنا أبو مصعب المدني قال: أخبرنا محمود بن هارون الأعرج ، عن النبي صلى الله عليه ، رواه أبو هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « بادروا بالأعمال ما تنتظرون . هل [تنتظرون] إلا غني مطغيا ، أو فقرا منسيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرمًا مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو المسيح الدجال فشر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر »^(٢).

وأخبرنا محمد بن معاوية النيسابوري ، قال: أخبرنا كثير بن مروان ، عن عبد الله بن زيد ، عن أبي أمامة ، وأبي الدرداء ، ووائل بن الأسقع ، وأنس بن مالك ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « بدأ الإسلام غريبا ، وسيعود

(١) عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه: ((اغتنم حسنا قبل خمس: شبابك قبل هرمك ، وصحتك قبل سقمك ، وغناك قبل فقرك ، وفراغك قبل شغلك ، وحياتك قبل موتك)).

أخرجه الحاكم في مستدركه ٤/ص ٣٤١/ح ٧٨٤٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٤٢٥/ح ٧٢٩ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٢١٩/ح ١٤٥١ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٧٧/ح ٣٤٣١٩.

(٢) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطغيا ، أو فقرا منسيا ، أو مرضا مفسدا ، أو هرمًا مفندا ، أو موتا مجهزا ، أو الدجال ، فالدجال شر غائب ينتظر ، أو الساعة فالساعة أدهى وأمر)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص ٥٥٣/ح ٢٣٠٦ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣٥٧/ح ٧٩٠٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٣٢/ح ٨٢٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١١/ص ٤٢٢/ح ٦٥٤٢.

غريبا كما بدأ فطور غرباء الذين يصلحون عند فساد الناس» ^(١) ، وقال رجل: يا رسول الله أوصني؟! قال: «إذا صليت فصل صلاة مودع» ^(٢) . وقال سلمان رحمة الله عليه ، وعائشة ، وغيرهما: «عهد إلينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن يكون زاد أحدكم كزاد الراكب» ^(٣) ، وإنما أراد بذلك صلى الله عليه وآله وسلم أن من لم يكن له في الدنيا ما يأسف عليه على فراقه ، لم يكن شيء أحب إليه من الانتقال منها إلى دار عمرانه ، التي قدّم زاده إليها ، وإنما جزع أهل الدنيا لفراقها ، لأنهم عمروها بخراب غيرها ، فهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١/ص ١٣١/ح ١٤٥ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ١٨/ح ٢٦٢٩ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٢٠/ح ٣٩٨٦ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ١٨٤/ح ١٦٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ١٦٤/ح ٥٨٦٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ١٨٣/ح ٢٩٠ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٣٨٢/ح ٤٠٨ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ١٣٨/ح ١٠٥١ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ١٠٠/ح ٧٥٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٨٣/ح ٣٤٣٦٦ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٤٠٢/ح ٢٧٥٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٢٦١/ح ١٩٢٥ .

(٢) عن أبي أيوب قال: جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله علمني وأوجز. قال: ((إذا قمت في صلاتك فصل صلاة مودع ، ولا تكلم بكلام تعتذر منه ، واجمع اليأس مما في أيدي الناس)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٩٦/ح ٤١٧١ ، وابن حنبل في مسنده ج ٥/ص ٤١٢/ح ٢٣٥٤٥ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣٦٣/ح ٧٩٢٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٤/ص ١٥٥/ح ٣٩٨٧ .

(٣) عن عائشة قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إذا أردت اللحق بي فليكفك من الدنيا كزاد الراكب ، وإياك ومجالسة الأغنياء ، ولا تستخلمي ثوبا حتى ترقيعه)). أخرجه الترمذي في سننه ج ٤/ص ٢٤٦/ح ١٧٨٠ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣٤٧/ح ٧٨٦٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٨/ص ٨٠/ح ٤٦١٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص ٢١٧/ح ٥١٢٨ .

يكرهون أن ينتقلوا من العمران إلى الخراب ، فعلى قدر عمارة الآخرة يعمل العاملون في خراب الدنيا.

قال رجل لعلي بن أبي طالب عليه السلام وقد دخل منزله: يا أمير المؤمنين ما أرى في منزلك شيئا ، قال: « يا أعرابي إن لنا دارا غير هذه قد حولنا جل متاعنا إليه »^(١).

وذكر أن سلمان رحمة الله عليه بكى عند الموت ، قيل له: ما يبكيك؟ قال: ما ترون هذه الأشياء ودخولي فيها ، وقد عهد إلينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أن يكون زاد أحدكم من الدنيا مثل زاد الراكب »^(٢). فالعاملون لله يرون أن كلما خلفوه في دار الخراب فقد خسروه ، وكلما قدموه فقد ربحوه ، فلما قصرت آمالهم راقبوا الموت وبادروا بالجد والاجتهاد ، فكانوا من الذين قال الله: ﴿ أُولَٰئِكَ يُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦١].

وقيل لعامر بن عبد الله وكان مجتهدا: إن الجنة تنال بدون هذا ، فقال: « والله لأجتهدن ثم لأجتهدن فإن نجوت فبرحمة الله ، وإن لا يكن الأخرى لم أرجع إلا على نفسي فأقول: ردي أعمل غير الذي كنت أعمل »^(٣).

وقال إبراهيم التيمي: « لو فارق ذكر الموت قلبي لفسد على قلبي »^(٤). وقال سميط بن عجلان: « لو نزل عذاب الله من السماء ما قدرت أن أزيد في عملي مثقال ذرة »^(٥) ، وإنما قال ذلك من غاية إجهاده ، فمن قصر أمله

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) لم أقف عليه.

حسن عمله ، وطابت له الحياة ، ومن راقب الموت بقلبه سار إلى الخيرات ، فهذا معنى قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن يرقب الموت سارع في الخيرات ».

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « يا أبا ذر إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء ، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح »^(١).

باب اليقين

وهو الدعامة الثانية ، واليقين على أربع شعب على: تبصرة بالفطنة ، وتأويل الحكمة ، وموعظة العبرة ، وسنة الأولين. فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة ، ومن تأول الحكمة عرف العبرة ، ومن عرف العبرة فكأنما كان في الأولين.



(١) ورد عن أبي بكر أنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم؟ فقال: مرني بكلمات أقولهن إذا أصبحت وإذا أمسيت. فقال: ((قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، رب كل شيء ومليكه ، أشهد أن لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر نفسي وشر الشيطان وشركه. فقال: قلها إذا أصبحت وإذا أمسيت ، وإذا أخذت مضجعك)) . أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢٠٨٩/ح ٢٧٢٣ ، والبخاري في الأدب المفرد ١/ص ٤١٢/ح ١٢٠٢ ، والحاكم في مستدركه ١/ص ٦٩٤/ح ١٨٩٢ ، وابن حبان في صحيحه ج ٣/ص ٢٤٣/ح ٩٦٢ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٤٦٦/ح ٣٣٩٠ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٢٧٣/ح ٣٨٦٨ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٣١٧/ح ٥٠٦٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٩/ح ٥١ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٤/ح ٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٣/ص ٢٩٦/ح ٣٤٥٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤٠١/ح ٧٦٩١ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ٢/ص ٤٤٦/ح ١٦٧٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ٧٩/ح ٧٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٣٢٢/ح ٢٦٥٢٣ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٧٨/ح ٢٦٨٩ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٢٨٦/ح ٩٣٤.

باب شرح اليقين

واليقين هو معرفة الله بما نورّ لعباده من أدلته ، وأقام لهم من أعلامه في سماواته وأرضه ، وفي أنفسهم وما يرون من عجائب صنعته ، ولطيف تدبيره ، وذلك [أن] المؤمنين على قدر منازلهم من العلم والاستدلال على الله ، وكذلك منزلة الأنبياء عليهم السلام ، فإذا عرفوه بهذه المعرفة أخلصوا العبادة له ، لما يعلمون من شدة استحقاقه لها ، وقد قال الله تعالى: ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] ، وقال عز وجل: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣] ، أي: العبادة الخالصة ، وما يدان له به ، وما كان غير ذلك مما يشوبه بشيء فليس بدين له . وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن النور إذا سكن في القلب انفتح له القلب وانشرح » ^(١) ، وهذا هو نور المعرفة واليقين بالله والإخلاص له دون خلقه ، فبهذا النور والعلم الذي ميّز المؤمنون به بين الحق والباطل ، وبه علوا كل مبطل ، وبه قوي حجة كل محق ، وبه دعو إلى الله من أدبر عنه ، أو ألحد في صفته ، فإذا أقاموا أنفسهم لله هذا المقام في تخلص أنفسهم واستنقاذ عباده من حيرتهم وضلالهم ، أمدهم بمعرفته ، وعصمهم بطاعته ، وأيدهم بتأييده ، وحاطهم بكلاتيه ، فأزادوا عند ذلك يقينا إلى يقينهم ، وتفاضلت أعمالهم ، على قدر تفاضلهم في معرفة ربهم واجتهادهم ، وكذلك الأنبياء ومن اتبعهم في زمنهم .

ومثل ذلك ما روي أن رجلا جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بصورة تبر فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « أنفق هذه عليك وعلى عيالك » ^(٢) .

(١) سبق تخريجه .

(٢) لم أقف عليه .

وقال سعد بن أبي ، وعمر بن ثعلب ، وغيرهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال عليه السلام: «إني أعطي أقواما الدنيا وأمنع آخرين ليس معهم من الدنيا شيء ، لما جعل الله فيهم من الصبر واليقين» ^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله: «أَكِلُ كل قوم إلى إيمانهم» ^(٢).

وقال صلى الله عليه وآله وسلم: «ما منكم إلا ولو شئت أن أجد أحد عليه في خلقه ما خلا عمار بن ياسر» ^(٣) ، وإنما أراد بذلك عليه السلام زيادة لزداد اليقين ، لأن زيادة اليقين خطرات ، كما قال عليه السلام: «الإيمان ثابت ، واليقين خطرات» ^(٤). وقد قال بعض أهل المعرفة: «مثقال ذرة من يقين تملأ القلب نورا» ^(٥) ، وإنما أراد زيادة اليقين.

وقال الله جل ثناؤه يحكي قول إبراهيم عليه السلام: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى قَالَ أُولِمُ تُوْمِنُ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة: ٢٦٠] ، قال مجاهد وغيره: «ليزداد يقينا» ^(٦) ، وقال غيرهم: «إِنَّمَا سَأَلَ الْمَعَايِنَةَ لِأَنَّ قَوْمَهُ سَأَلُوهُ هَلْ رَأَيْتَ كَيْفَ يُحْيِي رَبُّكَ الْمَوْتَى؟ فَقَالَ: لَا ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ ذَلِكَ وَتَيَقَّنْتُهُ وَتَأَوَّلْتُهُ» ^(٧) ، فسأل الله ذلك ليكون إذا راجعهم في الدعاء إلى ربه ، فسألوا عن رؤية ذلك أن يقول: نعم ، ليقطع شغبهم.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) أخرجه المتقي الهندي في كثر العمال ج ٠/ص ٠/ح ٧٣٣٩.

(٦) لم أقف عليه.

(٧) لم أقف عليه.

وذكر عن ابن أبي طالب عليه السلام أنه ذكر الجنة والنار فوصفهما ثم قال: « نعم من حال بينه وبين هذا الثواب والخوف من العقاب تعبد المرء لمن رجا الدنيا في يديه ، فيستحري في الأمور سرتة ، ويسرع إلى محبته ، ويتعبد بدنه لمرضاته ، ويدنس عرضه ، ويجرح دينه ، ويضع شرفه حتى تذهب مروءته ، وحتى يحول هذا العبد بينه وبين ما يوقعه في عقابه ، وهو يدعي بزعمه أنه يرجو الله فيما أتاه ، لا يسيء ^(١) من دعواه ، في عمله ^(٢) وفعله ، يرجو الله في الكبير ويرجو العباد في الصغير ، ويعطي العبد ما لا يعطي الرب ، وكل من رجا عرف عمله في رجائه ^(٣) ، فما بال الله يقصر به عما يعمل لعبده.

إني أخاف أن يكون في رجائك كاذبا ، أو يكون رجائك مخالفا مدخولا ، وكذلك إن خاف عبد من عبده أعطاه في خوفه منه ما لا يعطي الله وهو في كل خوف خوف الله ورجايه وكذلك من عظمت الدنيا ف يصدره وكثر موقعها عنده أثرها على الله ، ولقد كان في رسول الله صلى الله عليه وعلى آله ما يدل على خراب الدنيا وعبثها ، إذ عرضت عليه الدنيا فأبى أن يقبلها ، علم أن الله عز وجل بغض شيئا فأبغضه ، وحظر شيئا فحظره ، وصغر شيئا فصغره ، فلو لم يكن فينا إلا حبنا ما أبغض ، وتعظيمنا لما صغر لكفانا ، ولقد أمر عائشة بإخراج شيء وقال: إذا رأيته ذكرت الدنيا « ^(٤) ، محبة منها ألا تتخذ منها رياشا ، فأمالها من القلب ، وأخرجها من النفس.

(١) في المخطوطات: بعد المن رجا. ولعلها مصحفة ، ولعل ما أثبت هو الصواب ، أو قريبا منه.

(٢) الكلمة مهملة في المخطوطات.

(٣) في (أ) و(ج): علمه.

(٤) في (أ) و(ب): رحاله. مصحفة.

(٥) لم أفق عليه.

وكذلك من أبغض شيئاً أبغض أن ينظر أو ينكر عنده ، فوفق الله عبداً تأسى بنيه عليه السلام ، وكذلك بأنبياء الله عليهم السلام ، كموسى بن عمران عليه السلام حين قال: ﴿ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ۝١٦ ﴾ [القصص: ٢٤] ، وكعيسى عليه السلام في زهده ورغبته في ثواب ربه ، والعمل لما عنده ، والرفض للدنيا وأهلها ، وإثاره على من سواه ، متوكلاً موقناً ، صابراً محتبساً ، فأعلى درجات المقربين عند الله وأشرفها وأسناها ما مَنَّ به عليهم ، ممن تأييداته التي هي ثواب لأعمالهم معجلاً من فضل ربهم ، التي يزدادوا بها يقيناً إلى يقينهم ، كما قال أبو بكر: خطبنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عام أول فقال: « عليكم بالصدق فإنه مع البر وهو يهدي إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإنه مع الفجور وهو يهدي إلى النار ، واسألوا الله اليقين والمعافة فإنه لم يعط عبد مع اليقين أفضل من المعافة »^(١).

فبدأ باليقين لأنه لا شيء أفضل من اليقين ، وهذا منه عليه السلام حض على الطاعة التي يستوجب العبد فيها من الزيادة ، ويزداد يقيناً بذلك ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَالَّذِينَ آهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَاتَّبَهُمْ تَقْوَاهُمْ ۝١٧ ﴾ [أحمد: ١٧] ، وقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ اللَّهُ قَلْبَهُ ۝١٨ ﴾ [التغابن: ١٨] ، وإنما حض عليه السلام على ذلك لأن معرفة الله واليقين به أخلص العمل له ، وباليقين يحسن نظره لعباده ، وأنه لا يفعل بهم إلا ما فيه صلاحهم ، رضوا عن الله في كل فعله ، وباليقين رفع الله قدر أصفياه من أنبيائه ، والصالحين من عباده.

وقال ابن عباس: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال له: « إن استطعت أن تعمل لله باليقين في الرضا فافعل ، وإلا ففي الصبر على ما تكره خير كثير

(١) لم أقف عليه.

« (١) ، فأقام النبي صلى الله عليه وآله وسلم على درجات الرضا اليقين ،
لوقوع الخيرة في كل ما فعله .

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « الحاذق بتلاوة القرآن
- وهو العالم بمحدوده - آناء الليل والنهار ، والذي يقرأه وهو عليه شاق له
ثواب القرآن مرتين ، بكل حرف عشر حسنات » (٢) ، كما قال عبد الله بن
مسعود لقراء القرآن: « أما إنكم تخرجون بكل حرف عشر حسنات ، أما
إني لا أقول: الم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف ،
فذلك ثلاثون حسنة » (٣) .

(١) لم أقف عليه .

(٢) ورد عن عائشة قالت: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: ((الماهر بالقرآن مع السفرة
الكرام البررة ، والذي يقرأه وهو يتعتع فيه وهو شاق عليه فله أجران)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٨٨٣/ح ٤٦٥٣ ، ومسلم في صحيحه ج ١/ص ٥٥٠/ح ٧٩٨ ،
وابن حبان في صحيحه ج ٣/ص ٤٥/ح ٧٦٧ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ١٧١/ح ٢٩٠٤ ،
وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٢٤٢/ح ٣٧٧٩ ، وأبو داود في سننه ج ٢/ص ٧١/ح ١٤٥٤ ، وابن
حنبل في مسنده ج ٦/ص ٤٨/ح ٢٤٢٥٧ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢١٠/ح ١٤٩٩ ،
والنسائي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٢١/ح ٨٠٤٥ ، وابن راهويه في مسنده
ج ٣/ص ٧١٠/ح ١٣١٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٣٩٥/ح ٣٨٦٠ ، وابن الجعد في
مسنده ج ١/ص ١٥٠/ح ٩٥٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ١٢٨/ح ٣٠٠٣٦ ، وابن أبي
شيبه في مصنفه ج ٣/ص ٣٧٥/ح ٦٠١٦ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٥٣٦/ح ٣٣٦٦ .

(٣) عن عبد الله قال: ((تعلموا هذا القرآن فإنكم تخرجون بتلاوته ، بكل حرف عشر حسنات ، أما
أني لا أقول: بآلم ، ولكن بآلف ولام وميم ، بكل حرف عشر حسنات)) . أخرجه الدارمي في
سننه ج ٢/ص ٥٢١/ح ٣٣٠٨ .

باب تبصرة الفطنة

وتبصرة الفطنة مرشدة رسوخ اليقين في القلب ، وذلك أن القلب إذا امتلأ من نور اليقين أشرق وأضاء له كل شيء كان أظلم عليه قبل ذلك ، وأشرقت الجوارح لشدة نور القلب ، وامتلأت سكينته ووقارا ، فنطق اللسان عن ذلك بالحكمة ، لأنه إنما يعبر عن ضمير القلب ، وأصاب الجوارح آداب الإيمان ، لأنها منتشرة من نور القلب متصرفة بتصريفه ومنادية بتعليمه ، وذلك أن القلب أمير البدن وهي له تبع ، فإذا صلح القلب صلحت بصلاحه ، وإذا فسد ^(١) فسدت بفساده. كما قال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب » ^(٢) ، فإذا أصابت الجوارح آداب الإيمان ونطق اللسان بالحكمة ، كان ذلك من شدة اشتعال القلب بنور اليقين ،

(١) في (أ) و (ب): فسدت. مصحفة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ٢٩/ح ٥٢ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٢٢٠/ح ١٥٩٩ ، والنسائي في سننه ج ٧/ص ٢٤٣/ح ٤٤٥٣ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٩٨/ح ٧٢١ ، والترمذي في سننه ج ٣/ص ٥١٢/ح ١٢٠٥ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣١٩/ح ٣٩٨٤ ، وأبو داود في سننه ج ٣/ص ٢٤٣/ح ٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٢٦٧/ح ١٨٣٧٣ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٠٧/ح ٧٨٨ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٤٠٨/ح ٩١٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ٣٣٣/ح ١٠٨٢٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢٣٩/ح ٥٢١٩ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٤٢/ح ٣٢ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٢٩٣/ح ٥١١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ١٢٨/ح ١٠٢٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٢٦٤/ح ١٠١٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٣/ص ٢١٥/ح ١٦٥٣ ، وابن الجارود في المنتقى ج ١/ص ١٤٤/ح ٥٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٤/ص ٤٤٨/ح ٢٢٠٠٣ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣١٩/ح ٢٥٣١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٢٠٤/ح ١٧٣٥ .

وأورثه ذلك النظر تبصرة الفطنة ، والإزكان ^(١) الذي يعطاه المؤمن عند الانقطاع إلى الله والإخلاص له ، وما يورثه من معرفة قدرة الله وعظيم سلطانه وسعة مكانته ، مع ما يخص به من الفطنة لأفعال الخلق والمعرفة بوجوه أفعالهم ، حتى كأنه مطلع على ضمائرهم ، لما قد اعتبروا علمه ^(٢) من تصرف أسبابهم ، وقد سمي الله جل وعز ذلك: توسما ، فقال: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحج: ٧٥] ، يعني: المعتبرين المتيقظين ، وسماه ابن عباس وغيره: إزكانا ، وسماه علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: تبصرة الفطنة ، وسماه النبي صلى الله عليه وآله وسلم في غير خبر: فراسة ، وهذه أربعة أسماء تنتظم معنى واحدا ، فطنة المؤمن ، وأدكار المؤمن ، وفراسة المؤمن ، وتوسم المؤمن. وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «المؤمن ينظر بنور الله» ^(٣) ، وقال عليه السلام: «ظن المؤمن كمعاناة الجاهل» ^(٤) ، فأهل المعرفة بالله في ذلك طبقات.

فمنهم من يفهم بالتوسم في الرجل إذا سمع كلامه ، فهذه درجة قوم لا تجاوز بهم درجاتهم.

ومنهم من يفهم ذلك بالنظر إليه ، فهؤلاء أيضا لا تجاوز بهم مترلتهم ، وهم أعلى من الطبقة الأولى.

(١) الرِّكْنُ: التفرس والظن. والإزكان: الفطنة والحس الصادق. لسان العرب مادة: زكن.

(٢) في (ج): اعتبر وعلمه.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ص ٢٩٩/ح ٣١٢٧ ، والطبراني في معجمه الكبير

ج ٨/ص ١٠٢/ح ٧٤٩٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٣٨٨/ح ٦٦٣.

(٤) لم أقف عليه.

ومنهم من يفهم درجة الرجل إذا ذكر له وعرض عليه قوله ، فيعرفه ويعرف منزلته بالوصف ، وهذه الدرجة لا يتجاوز بها أهلها ، وهم أعلام من الذين ذكرنا قبلهم.

ومنهم قوم أعلام من هؤلاء درجة في التوسم ، فهم يعتبرون الأشياء وما تؤول إليه عواقبها قبل وقوعها ، قد تبطنوا من خفيات الأمور ، والعلم بعواقب الدهور ، ونتائج الأسباب ، وما يؤول به بعضها فينظرون ^(١) إليها كأنها رأي عين ، فلا يخطئ توسمهم ، وهم بعد ذلك مستغرقون بهذه الطبقات الثلاث التي هي دون مقامهم ، وذلك أنهم علموا أن الله مؤيد من أطاعه ، وخاذل من عصاه ، فأروا أهل التصنيع ^(٢) مختلفة أقوالهم وأفعالهم ، علموا عند ذلك أنهم ليسوا أعمال الله ، وإذا رأوا أمور غيرهم تجري على اتساق علموا أنهم مؤيدون ، وأنهم لله عاملون ، لأن صفة عمال الله أنهم مؤيدون ، فإذا أتاهم التأييد من الله والهداية والموعظة ثم كانوا لها قابلين ، كانوا لمثلها لقبولهم مستحقين ، وليس من صفته جل ثناؤه قطع ذلك عنهم إذا تلقوه بالقبول والعمل به ، إلا أن يضيعوا ما يجب عليهم فيه ، ومتى أضاعوه سلبوا التأييد ، وخلوا وما احتاروه بأنفسهم ، فإذا رءاهم العاملون لله بهذه المترلة من التقصير أو الفترة عما كانوا عليه ، علموا بذلك أنهم ممنوعون بعض كرامات الله التي لا يقطعها ، ثم حكموا عليهم فيما يرونه منهم من مباح أو محظور أو فسق أو كفر ، لعلمهم بأحكام الله على مثلهم ، إذ كانوا في مثل أحوالهم ، وبذلك بانّت منازل أنبياء ^(٣) الله عليهم السلام ، إذ لم يطلع منهم في طول دهرهم على مناقضة في قول ولا فعل ، ولا فساد في تدبير ، ولا كذب في الأمور ،

(١) في (أ) و(ب): فينفرون.

(٢) في (ج): التصنيع.

(٣) في (ب): أولياء.

علم أنهم مؤدون ، وأنهم لو كانوا على الله كاذبين لظهر منهم التفاوت والاختلاف في أمورهم ، بخذلان الله لهم ، لأنه من صفة الله أن يخلي بين الكاذبين وبين الأمور التي لا تكون إلا من صفة الصادقين ، لأن الحكيم في حكمته أن يجعل بين الحق والباطل فصلا ، وبين منزلة الصادقين والكاذبين عليه فرقا ، وكذلك صفة المؤمن من العاملين المخلصين ، سيماهم مباين سيما الموهين.

وإنما تصح تبصرة الفطنة والتوسم لأهله من طريق حسن الظن لا من طريق الحكم بالتوسم والإزكان ، لأنه أطلق للمؤمن أن يحسن الظن بأخيه ويتوسم فيه الخير ، ولا يحكم له بذلك حكما لأنه لا يجوز الأحكام بما يتوهم القلب أو يزكي. وإنما الأحكام بالإقرار والشهادات ، فهذا هو موقع الحكم بالتوسم والفطنة ، لا يجوز غير ذلك ، وأن كان الأغلب سوء الظن لأن القطع بسوء الظن منهى عنه ، قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: ١٢] ، وروي عن زيد بن ثابت أن عمر بن الخطاب « ألفى رجلا يكلم امرأة في خلافته فعلاه بالدرة ، فقال: يا أمير المؤمنين هي محرمة ، فأتى ^(١) عمر بن الخطاب زيد بن ثابت فأخبره بالذي صنع ، فقال: هل سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يذكر في ذلك شيئا؟ فقال زيد: نعم ، سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحراب: ٥٨]. فقال عمر: أنت سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول هذا؟ قال: نعم ، فأعاد عليه القول فقال له زيد: سمعتها أذناي ، ووعاها قلبي ، وكتبتها يدي من النبي صلى الله

(١) في (أ) و(ب): وأتى.

عليه وآله وسلم. ولم يستأمر فيها الخطاب ولا ابنه ، فجعل عمر هيجا هيجا يبيكي «^(١).

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «الظن أكذب الحديث»^(٢) في حديث طلحة بن عبد الله ، إلا أن يرى المؤمن موضعاً يرتاب به ، ويرى لذلك دليلاً وشاهداً عليه ، من فعل فيتوسم ويزكن فيه ، على طريق ما رأى من الدلائل ، ولا يحكم في ذلك بالتوسم ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة يراها العبد الصالح أو ترى له»^(٣) ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [يونس: ٦٤].

وقال غير واحد من أهل العلم: «الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح أو ترى له»^(٤) ، وقال ابن مسعود الأنصاري: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إن

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((إياكم والظن فإن الظن أكذب الحديث)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ١٩٧٦/ح ٤٨٤٩ ، وفي الأدب المفرد أيضاً ج ١/ص ١٤٨/ح ٤١٠ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ١٩٨٥/ح ٢٥٦٣ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٢/ص ٥٠١/ح ٥٦٨٧ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٣٥٧/ح ١٩٨٨ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٨٠/ح ٤٩١٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٤٥/ح ٧٣٣٣ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٩٠٨/ح ١٦١٦ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٣٠/ح ٢٥٣٣ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٤٦٥/ح ١٠٨٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٩٧/ح ٩٥٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٨٥/ح ١١٢٣٩ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج ١/ص ٣٠/ح ٦.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرج ابن أبي شيبة عن عروة قال: ((هي الرؤيا الصالحة يراها العبد الصالح)). وأخرج عن مجاهد: ((هي الرؤيا الصالحة يراها المؤمن أو ترى له)). الدر المنثور ٤/٣٣٧.

مما أدرك من كلام النبوة الأولى إذا لم تستح فاعمل ما شئت «^(١) ، فقد فسر باب تبصرة الفطنة مع ما جاء في ذلك من الأخبار ، فبذلك فليقتد أهل العلم بالله.

باب تأويل الحكمة

وهو الشعبة الثانية من اليقين.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن أبصر الفطنة تأول الحكمة » ، وذلك أن تأويل الحكمة ميراث التبصرة ، فإذا استشعر القلب التبصرة وقف عند تأويل الحكمة ، ليفهم الصواب ثم وعاه فنطق به اللسان ، حتى صارت الحكمة مأوى القلب وشعاره ، وذلك أن الحكمة الإشتغال بدوام الفكر فيما يعني وترك ما لا يعني ، فيؤدي ذلك إخلاص العمل لله تعالى ، وأورثه ذلك حب دوام الذكر والإنس بالله ، أي: الإنس بطاعة الله ، فلما وصل إلى درجة المؤانسة أورثه ذلك دوام الفكر ، ودوام الفكر يورث الاعتبار ، وذلك كله لا يكون إلا بحب الخلوة ، وترك معاشرة القاطعين عن الله ، والمدخلين له في حوض ما لا يعنيه ، والقاطعين له عن الإشتغال بما يعينه ، مما خلق له وأمر به . وكذلك جاء الخبر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبرنا علي بن الجعد ، قال: أخبرنا مالك بن أنس ، عن الزهري ، عن علي بن الحسين قال: قال

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١٢٨٥/ح ٣٢٩٦ ، وفي الأدب المفرد ١/ص ٢٠٩/ح ٥٩٧ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج ١/ص ٣٧/ح ٨٣ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٠٠/ح ٤١٨٣ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٥٢/ح ٤٧٩٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ١٢١/ح ١٧١٣١ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٨٦/ح ٦٢١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٧/ص ٢٣١/ح ٦٤٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ١٨٧/ح ١١٥٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ١٩٢/ح ٢٠٥٧٦ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ١٣٠/ح ٨١٩ .

رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه »^(١) ، وقال مالك بن دينار: « قيل للقمان: أأست عبد بني فلان؟! فما بلغ بك ما ترى؟! قال: تركي ما لا يعنيني »^(٢) ، وكان لقمان عبدا أسود ذا مشفرين ، فرفع الله قدره بالحكمة وتركه ما لا يعنيه ، فأورثه ذلك درجة المؤانسة بالطاعة ، فنظر بالحكمة فسماه الله حكيما ، فقال سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ ﴾ [لقمان: ١٢].

وقالت عائشة: « إن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان متواصل الأحزان ، دائم الفكر »^(٣) ، وذلك كله من آثار المؤانسة بالله ، أي: بطاعته ، وما قرَّب منه وأورث الزلفة لديه ، وبما اختار الاشتغال بذكره ، والإيثار لمحبهته على كل محبوب دونه.

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أنه كان يحب الخلوة وكان إذا فُقدَ إنما يُوجد في بعض الأودية والخلأ بنفسه »^(٤).

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص ٥٥٨/ح ٢٣١٧ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣١٦/ح ٣٩٧٦ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٢٠١/ح ١٧٣٢ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٩٠٣/ح ١٦٠٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٣/ص ١٢٨/ح ٢٨٨٦ ، وفي معجمه الصغير أيضا ج ٢/ص ١١٩/ح ٨٨٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ١٤٤/ح ١٩١ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٤٢٨/ح ٢٩٢٥.

(٢) أخرجه ابن أبي الدنيا في كتاب (الصمت). الدر المنثور ٦/٥١٢.

(٣) عن هند بن أبي هالة قال: ((كان رسول الله صلى الله عليه وسلم متواصل الأحزان دائم الفكر ، ليست له راحة ، طويل السكت ، لا يتكلم في غير حاجة)) . أخرجه المهم والحرن ج ١/ص ٢٧/ح ١.

(٤) الحديث ورد عن عائشة بلفظ: ((أول ما ابتدأ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله كرامته ورحمة العباد به ، أن لا يرى شيئا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، فمكث على ذلك

وقال رجل للأحنف: « ما بلغ بك ما أرى؟ قال: تركي من أمرك ما عناك من أمري »^(١) ، فرأس الحكمة كله ترك ما لا يعني ، وإنما أريد بذلك ترك الدنيا وأهلها ، والإشتغال بها بالقلب وهو ما لا يعني ، لمن أيقن أنه لم يخلق لها ، وأن الوصول إليها قاطع عن مؤانسة الله والعمل لدار الآخرة ، وهو الذي يعني ومن أجله خلقت الدنيا وأهلها ، وقد قيل: شغلك بما لا يعنيك شغلك عما يعينك.

وكذلك روي عن عيسى بن مريم عليه السلام أنه قال: « حرام على قلب يحب الدنيا أن يذوق الحكمة ، وكيف يذوق طعم الحكمة من أثر الدنيا على الآخرة ، واشتغل بزيينة الدنيا عن الإستغال بما يقربه إلى الله »^(٢).

وقال عليه السلام: « يا معشر الحوارين ارضوا بالقليل من الدنيا مع كثرة الحكمة ، كما رضي أهل الدنيا بقليل الحكمة مع كثرة الدنيا »^(٣).

وقال الله جل ثناؤه: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ، فأهل الحكمة في ذلك رجالان: أحدهما أعلا من الآخر ، وأعلاهما درجة من وهب الله له الحكمة ، فهو يعمل بها ويعبرها بلسانه ، ويعلمها أهل الحكمة الذين تواضعوا للحكمة ، وتذللوا لله في التواضع لمن أفادهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « تواضعوا لمن تعلمون منه العلم »^(٤) ،

ما شاء الله أن يمكث ، وحب إليه الخلوة ، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو)). أخرجه الترمذي في سننه ج ٥/ص ٥٩٦/ح ٣٦٣٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) أخرجه المرشد بالله ٤٦/١ ، ٦٨ ، ٦٩ ، والكافي ٣٦/١ ، وأمالى الصدوق ٣٥٩/ ، وغرر الحكم ٣٤٩/.

وقال للعلماء: « تواضعوا لمن تعلمونه العلم ، وتعلموا للعلم السكينة والوقار والحلم ، ولا تعلم الحكمة غير أهلها فتكون طالما الحكمة » ^(١) ، كما قال عيسى عليه السلام: « لا تمنعوا الحكمة أهلها فتظلموها » ^(٢) ، وهو من رواية ابن عباس عن النبي عليه السلام قال: « ألا أن عيسى قام في بني إسرائيل خطيباً فقال: يا بني إسرائيل لا تكلموا بالحكمة عند الجهال فتظلموها ، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم » ^(٣) ، هذا الرجل الحكيم القلب واللسان ، فهو يعبر حكمة قلبه بلسانه ، فهذا إمام في الحكمة وقائد العلم والحجة لله في أرضه ، وسراج يضيء بنور الحكمة لأهل الجهالة ، وهو الذي قال الله سبحانه: ﴿ وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقِنَهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٥].

والرجل الآخر حكيم القلب يعمل بحكمة ، لم يفلح يفتح له المنطق بالحكمة وهو يفهم الحكمة بقلبه إذا سمعها ويعمل بها ، فهذا رجل منفعة لا تعدى نفسه ، وإنما ينفع أهل الإرادة بإرادته وما ظهر من فعله ، وأما الداعي لهم فقد نفعهم بما قد ظهر من فعله وإرادته ^(٤) ، وبما أبان من حجة ربه ، ونبه عليه من باطن حكمته ، وهي منازل الأنبياء والصديقين عليهم السلام ، وأهل العلم بالله لا يرضون لأنفسهم دون هذه المترلة.

باب موعظة العبرة

وهي الشعبة الثالثة من اليقين.

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ٢/ص ١٢٤/ح ١٠٢١ ، والحاتر الهيثمي في مسنده

(الزوائد) ج ٢/ص ٩٦٨/ح ١٠٧٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٢٢٥/ح ٦٧٥.

(٤) في (أ) و(ب): وإبادته. مصحفة.

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « فمن تأول الحكمة عرف العبرة » ، وذلك أن ميراث تأويل الحكمة موعظة العبرة ، وأهل الحكمة اعتبروا بالأمثال ، وما ضرب الله لهم في كتابه من ذكر الأمم قبلهم ، وما حركهم على الاعتبار به ، وعلموا أن ذلك لا يتم لهم إلا بإصلاح قلوبهم وإلا فأقاموا قلوبهم مقام الماء المعين تحت الأرض ، الذي لا يظهر إلا بكشط ما فوقه من التراب والحجارة. فترعوا عن قلوبهم عند ذلك درن الذنوب المغطي لها بالتوبة الخالعة ، وعلموا أن القلب كالنار التي إن أمدت بالوقود وإلا خمدت ، وكذلك إن أمد^(١) بالفكر والاعتبار والفهم عن الله بضرب الأمثال وإلا عمى وطغى ، فأقاموا أنفسهم عند ذلك في الاعتبار والإتعاظ والتيقظ بالفكرة ، حتى كأنهم قد امتحنوا مع من امتحن من الذين نزل بهم من الله ما نزل ، من القوارع والإستيصال ، وفهموا ما أريد بهم من الأمثال ، وما ذكروا من نعم الله عليهم ولطفه بهم ، إذ وعظهم بغيرهم ، ولم يكونوا هم عظة لغيرهم ، فدام شكر نعم الله في قلوبهم ، وحسن بلاؤه عندهم ، فلجأوا إليه عند كل خطرة ولحظة ، وخافوه في السر والعلانية ، فأرضوه بالقيام له في كل ما أمرهم به ، وأستخطوا من دونه ليرضوه بسخطهم ، إذ علموا أنه يملك ضرهم ونفعهم ، وتحببوا إليه بأداء شكر نعمه ، وما من به عليهم ، إذ لم يجعلهم عبرة لغيرهم ، وجعلهم المعتبرين بغيرهم ، فهم أولو الأبصار ، كما قال الله في قضية بني النضير إذ أجلاهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم من ديارهم فقال: ﴿يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُمْ بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدَى الْمُؤْمِنِينَ فَاعْتَبِرُوا يٰأُولِيَ الْبَصَرِ ۖ﴾ [الحشر: ٢] ، يقول: إذ عصوني وكفروا نعمتي ، فأبحت بذلك قتلهم وخراب ديارهم ، كانوا هم القاتلين لأنفسهم ، والمخربين ديارهم لمعصيتهم ، يقول: فاعتبروا أنه

(١) في (أ) و(ب): أمد. إلا أن الحرف الأول من الكلمة مهمل. وفي (ج): أمدوا. ولعل الصواب ما أثبت.

كل من عصاني فاستحق في حكمي عقوبي وناري فهو القاتل لنفسه ،
والمخرب لحسده وداره ، تعرض لما يوجب ذلك في حكمي عليه .
وقال سبحانه : ﴿ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الرعد: ١٩] ، يعني : ذوي
العقول ، وقال : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴾
﴿ [العنكبوت: ٤٣] ، وقال تعالى : ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ
وَتَبَيَّنَ لَكُم كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥] ،
يقول : فاحذروا أن يتزل بكم عند معصيتكم ما نزل بهم .

وروي عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : « نزل القرآن على أوجه
: حلال ، وحرام ، ومحكم ، ومتشابه ، وأمثال . فخذوا الحلال ، ودعوا الحرام
، وآمنوا بالمتشابه ، واعملوا بالمحكم ، واعتبروا بالأمثال يأهل المعرفة بالله ،
وتأدبوا بأداب الله الذي أمرهم ، وأنزلوا كل أدب في موضعه ، ولم يُقَصِّروا
فيما أمرهم به ربهم ، فكان لهم في كل شيء معتبر ، كما قال الله جل ثناؤه :
﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ ﴾ - وهم أولوا الأبصار - وَفِي أَنْفُسِكُمْ
أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠-٢١] » ^(١) .

وروي أن رجلا أتى إلى أبي حازم الأعرج فقال : « يا أبا حازم ما شكر
العينين؟ قال : إن رأيت بهما خيرا أعلنته ، وإن رأيت بهما شرا سترته . قال :
وما شكر الأذنين؟ قال : إن سمعت بهما خيرا أعلنته ، وإن سمعت بهما شرا
سترته . قال : وما شكر اليدين؟ قال : لا تأخذ بهما ما ليس لك ، ولا تمنع بهما

(١) ورد بلفظ : ((اعربوا القرآن والتمسوا غرائبه ، وغرائبه فرائضه وحدوده ، فإن القرآن نزل على
خمسة أوجه : حلال وحرام ومحكم ومتشابه وأمثال ، فاعملوا بالحلال ، واجتنبوا الحرام ، واتبعوا
المحكم ، وآمنوا بالمتشابه ، واعتبروا بالأمثال)) . رواه المتقي الهندي في كثر العمال
ج ٠ / ص ٢٧٨٢ .

حقاً هو الله فيهما. قال: وما شكر البطن؟ قال: أن يكون فيه العلم والصبر ، العلم باطنه ، والصبر ظاهره ، ويكون طعامه العلم ، وشرابه الصبر. قال: وما شكر الرجلين؟ قال: إن رأيت بهما منيباً حسدته واستعملت بهما مثل عمله ، وإن رأيت ميتاً ^(١) مقتته وكففتها عن مثل عمله. قال: فما شكر الفرج؟ قال: كما قال الله عز وجل: ﴿إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ﴾ ^(٢) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ﴿٣١﴾ [المؤمنون: ٦-٧، الماعراج: ٣٠ - ٣١] ، ^(٢) ، فإذا كنت كذلك كنت فاعلاً ما فعلت الله مخلصاً له لا لغيره ، وأنت شاكر لله حق الشاكرين.

قال: وأما من شكر بلسانه ولم يشكر بجميع أعضائه ، فإنما مثله مثل رجل أعطاه الله كساء فأخذ طرفه وترك سايره ، فلم ينفعه ذلك من البرد والثلج ، فأهل المعرفة بالله اعتبروا بسلفهم من الصالحين ، فأخذوا ^(٣) على مناهجهم وطريقهم فكانوا خلفائهم من بعدهم ، وأشركهم الله في أعمالهم ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وفي حديث أبي ذر ، وأنس بن مالك: « جاء إعرابي إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال: يا رسول الله متى الساعة؟ فقال النبي: ما أعددت لها يا أعرابي؟! فقال: ما أعددت كثيراً ، من صلاة ولا صيام ، إلا أني أحب الله ورسوله. فقال له النبي صلى الله عليه وآله: من أحب قوما فهو معهم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم ^(٤) ، وكذلك من اهتدى بقوم اتبع

(١) في (ج): بما ميتاً.

(٢) لم أفق عليه.

(٣) في (أ) و(ب): واتخذوا.

(٤) ورد عن أبي قتادة بلفظ: ((جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن الساعة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: فماذا أعددت لها؟ قال: حب الله عز وجل ورسوله صلى الله عليه وسلم. قال: فأنت مع من أحببت.))

طريقهم ، ومن أحب قوما أحب أن يفعل كفعالهم ، وإن لم يشهدهم وجعل معهم.

ثم استعمل أهل المعرفة والعبرة من غيرهم فشهدوا ما فعل بهم بقلوبهم ، إذ أمرهم الله بذلك في كتابه وضرهم لهم مثلاً ، كأنهم شاهدوهم ونظروا إلى ما أصابهم ، لقوله: ﴿ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسْكِينَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الْأَمْثَالَ ﴾ [إبراهيم: ٤٥] ، ثم قال: ﴿

فَهَلْ يَنْتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِهِمْ قُلْ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ ﴾ [يونس: ١٠٢] ، يقول: إما أن يترل الاستيصال أو الموت. وقال تعالى: ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴾ [الأحزاب: ٦٢] ، يخبر بإهلاك قوم لوط: ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَلَىهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَابًا مِّنْ سَجِيلٍ مُّنْضُودٍ ﴾ [هود: ٨٢-٨٣] .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١٣٤٩/ح ٣٤٨٥ ، وفي الأدب المفرد ج ١/ص ١٢٩/ح ٣٥٢ ،
ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢٠٣٢/ح ٢٦٣٩ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ١٨٥/ح ٨ ،
وابن خزيمة في صحيحه ج ٣/ص ١٤٩/ح ١٧٩٦ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٩٥/ح ٢٣٨٥ ،
وابن حنبل في مسنده ج ٣/ص ١١٠/ح ١٢٠٩٦ ، والطحاوي في مسنده ج ١/ص ٢٨٤/ح ٢١٣١ ،
والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٥٠٢/ح ١١٩٠ ، والطبراني في معجمه الكبير
ج ٣/ص ١٨٣/ح ٣٠٦١ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٩٩١/ح ١١٠٦ ،
والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢٢١/ح ٥٦٢٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٥/ص ١٤٧/ح ٢٧٥٨ ،
وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٤٠٣/ح ١٣٦٦ ، وابن الجعد في مسنده
ج ١/ص ٤٦٣/ح ٣١٨٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٤٠/ح ١٠٧ .

قال أبو إمامة: عن النبي عليه السلام: «يصبح قوم من هذه الأمة على معازفهم وخمورهم ولهوهم ، فيصبحون وقد مسخوا قردة وخنازير ، فقال النبي عليه السلام: والذي نفسي بيده ليكون في هذه الأمة مسخ وخسف فف وقذف ، وليرسلن عليهم الريح العقيم ، وليرسلن عليهم بقية الحجارة التي أرسلت على قوم لوط» ^(١) ، والأخبار في هذا كثير وفيما قلنا معتبر لأولي الأبواب ، ولأولي النهي والأبصار.

فأهل المعرفة بالله والاعتبار من شدة اعتبارهم قد شاهدوا ما أصاب القوم بقلوبهم ، وهم يخافون مع شدة اجتهادهم واعتذارهم ^(٢) أن يصيبهم مثلما أصابهم ، من شدة خوفهم ، ولما يعلمون من سالف دنوبهم ، فلما صاروا كذلك صاروا كأنهم كانوا معهم ، وذلك أن النبي صلى الله عليه وعلى آله عهد إليهم في غير خبر ، روى أبو واقد الليثي ، وأبو هريرة ، وغيرهما: أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شيرا بشير أو ذراعا بذراع ، حتى لو دخلوا في جحر ضب لدخلتم معهم. قيل: يا رسول الله اليهود والنصارى؟ قال: فمن إلا هم» ^(٣) ، فخافوا أن يكونوا الذين عني

(١) ورد عن بن عباس بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ليبتن قوم من هذه الأمة على طعام وشراب وهو ، ويصبحوا قد مسخوا قردة وخنازير)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص ١٣٥ ح ٢١٢٦٦ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٥٦١ ح ٨٥٧٢ ، والطبائسي في مسنده ج ١/ص ١٥٥ ح ١١٣٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٨/ص ٢٥٦ ح ٧٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ١١٦ ح ١٦٨.

(٢) في (ج): واعتبارهم.

(٣) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ستتبعون سنن من قبلكم باعا بيعا ، وذراعا بذراع ، وشيرا بشير ، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتم معهم. قالوا: يا رسول الله اليهود والنصارى؟! قال: فمن)).

النبي عليه السلام أن يفعلوا فعلاً أو يقولوا قولاً يلحقوا بهم ، فاشتد اعتبارهم وخوفهم فخلصوا أقوالهم وأفعالهم واعتقادهم ، وصفوه من الدنس والشبهة ، واستعملوا في ذلك كل اليقين والمعرفة ، فكانوا كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « من عرف العبرة فكأنما كان في الأولين ».



أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١٥/ص ٩٦/ح ٦٧٠٣ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٢٣/ح ٣٩٩٤ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢٨٩/ح ٢١٧٨ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٧٥٩/ح ٧٥٤.

باب العدل

وهو الدعامة الثالثة.

قال علي بن أبي طالب صلوات الله عليه: «والعدل منها على أربع شعب : على غايص الفهم ، وزهرة العلم ، وشرعية الحكم ، وروضة الحلم. فالعدل: هو القول بالحق كله على يقين أبوابه ، في كل ما [كان] للعبد أو عليه ، أو يقول بالعدل في جميع أحواله ، ويؤثر الصدق حيث يضره على الكذب حيث ينفعه ، فلا يقول إلا حقا ، صابرا محتسبا ..»

والعدل ينتظم جميع المعاني من القسط في العدل والحكم ، والفعل من الأخذ والإعطاء ، فيما للعبد [و] عليه ، وأشرف درجة العبد الإنصاف من النفس في كل حال ، حتى يقوم العبد بالإنصاف بنفسه ، فيعطي غيره من نفسه ما يأخذه لنفسه من غيره ، فإذا فعل المرء يدل ذلك قائما في درجة العدل ، وكمال درجة العدل أن يرضى للناس ما يرضى لنفسه ، وكما تحب أن يحسن إليك من أسأت إليه فأحسن إلى من أساء إليك ، وكما يحب العبد أن يُحلم عنه إذا جهل ، فكذلك يحلم هو عمن جهل عليه ، وكما يحب أن ينصفه الناس في الأخذ والإعطاء فكذلك يجب عليه أن ينصف هو من نفسه ، فإذا رضى للناس ما يرضى لنفسه ، وأحب لهم ما يحب لنفسه ، وكره لهم ما يكره لنفسه ، فقد قام في درجة العدل.

وكذلك روي عن ابن مسعود ، ووهب بن منبه ، أنهما قالوا: «التوراة والإنجيل والقرآن تدور على أن ترضى للناس ما ترضى لنفسك» ^(١). وقال الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَايَ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ

(١) لم أقف عليه.

عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ [النحل: ٩٠]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصْنُكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩١﴾﴾ [الأنعام: ١٥٢]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ [النساء: ٥٨]. ﴿

وروى سهل بن سعيد ، وأبو هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه: « كان يقسم غنائم بالجرعانة والذهب في حجرة بلال ، فجاءه رجل ثائر الرأس ، فقال له: يا محمد اعدل فوالله ما عدلت منذ اليوم!! فقال له النبي عليه السلام: ويلك إن لم أعدل عليكم فمن يعدل عليكم بعدي؟! »^(١) ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: « لو أفاء الله عليكم مثل سمر هامة نعماً لقسمته

(١) عن عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما قفل من غزوة حنين رقهه الناس يسألونه فحاصت به الناقة فخطفت رداءه شجرة ، فقال: ((ردوا علي ردائي ، أنخشون علي البخل ، والله لو أفاء الله عليكم نعماً مثل سمر هامة لقسمتها بينكم ، ثم لا تجحدوني بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً ، ثم أخذ وبرة من وبر سنام البعير فرفعها ، وقال: ما لي مما أفاء الله عليكم ولا مثل هذه إلا الخمس والخمس مردود عليكم ، فلما كان عند قسم الخمس أتاه رجل يستحله خياطاً أو مخيطاً ، فقال: ردوا الخياط والمخيط ، فإن الغلول عار ونار وشار يوم القيامة)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١٠٣٨/ح ٢٦٦٦ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٣/ص ٨٦/ح ٥٧٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٨٤/ح ١٦٨٢٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢/ص ١٣٠/ح ١٥٥٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٧/ص ١٧/ح ١٢٩٥٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٢٤٢/ح ١٨٦٤ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ج ١/ص ١١٥/ح ٣٧٩ .

بينكم ، ثم لا تجدوني بخيلا ولا جبانا ولا كذابا » ^(١) ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : « ما لي مما أفاء الله عليكم إلا مثل هذه من الخمس ، ثم ضرب بيده إلى وبرة من بعير ، ثم قال : والخمس مردود عليكم » ^(٢) .

قال : وروي عن الشعبي « أن عمر بن الخطاب كان بينه وبين أبي بن كعب خصومة فجعل بينهما زيد بن ثابت فأتياه في بيته ، فقال له عمر : أتيناك في بيتك وفي بيته يؤتى الحكم ، فرفع عمر إلى صدر المجلس ، فقال له ^(٣) عمر : هذا أول جورك جررت ^(٤) في حكمك ، أجلسني أنا وخصمي مجلسا واحدا ، فقصا عليه القصة ، فقال زيد لأبي : اليمين علي أمير المؤمنين ، وإن شئت أعفيتة ، فأقسم عمر ثم أقسم لزيد أنه لا يدرك مجلس العدل حتى لا تكون لي عندك على أحد من الناس فضيلة » ^(٥) .

وكتب عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبي سفيان « لو عدلت على أهل الأرض كلهم ثم جرث على رجل واحد لمال جورك بعدلك » ^(٦) . والأخبار في هذا تكثر .

فمن قام في درجة العدل أنصف الناس من نفسه واقتص لهم منها ، كما فعل النبي صلى الله عليه وآله وسلم « أقص أبا ذر من نفسه » ^(١) . وقال أبو

(١) هذا الحديث هو جزء من الحديث السابق .

(٢) أيضا هذا الحديث هو جزء من الحديث السابق .

(٣) في (أ) و(ب) : فهذا له .

(٤) في (أ) و(ب) : حررت .

(٥) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ج ١٠ / ص ١٣٦ / ح ٢٠٢٥٠ ، وابن الجعد في مسنده

ج ١ / ص ٢٦٠ / ح ١٧٢٨ .

(٦) لم أقف عليه .

هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « من كان عنده لأخيه مظلمة فليقص من نفسه ، أو ليتحللها منه ، قبل أن يقتصها منه في يوم لا دينار فيه ولا درهم »^(٢) ، لا وإنما يقع القصاص حينئذ على جسده.

باب غايص الفهم

وهو أول شعب العدل. فغايص^(٣) الفهم هو تأييد من الله يمن به على القابلين ينالون به غايص الفهم ، وهو تأييد ثواب الأعمال ، فقصودوا عند ذلك بفهمهم من العلم إلى ما أمرهم الله به ورسوله ، فلم يجاوزوه إلى غيره ، ولم يتكلفوا ويعتقدوا ويعنوا إلا بما صح عندهم من العلم ، ولم يتكلفوا علم ما لم يكلفوا علمه ، إذ علموا أن الله يسألهم عن تكلفهم ما لم يكلفهم ثم تكلفوا ، فحافوا عند ذلك فلم يجاوزوا محكم القرآن والسنة ، فما دلا من فروع العلم ، فواقفوا أنفسهم عند المتشابهة من علمهم أنه غير ناقض للمحكم ، ثم يحثوا عن العلم الذي اختلف فيه أهل الجهل ، فأصابوا حقيقته بغايص فهمهم من محكم كتاب ربهم ، وسنة نبيهم ، وفطر عقولهم الذي احتج الله به على خلقه

(١) أخرجه البيهقي في سننه الكبرى ج ٩/ص ٤٢/ح ١٧٦٨٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ١٧٦/ح ١٩٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ١٢٤/ح ٣٠٠٠١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٣/ص ٣٨٣/ح ٦٠٣٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٢/ص ٨٦٥/ح ٢٣١٧ ، وابن جبان في صحيحه ج ١٦/ص ٣٦٢/ح ٧٣٦١ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦١٤/ح ٢٤١٩ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٨٠٧/ح ٢٤١٤ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٤٣٥/ح ٩٦١٣ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٠٥/ح ٢٣٢١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٢١٨/ح ٣٤٨ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ٢/ص ٢٧٣/ح ١٣٢٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٣٦٩/ح ٦٣٠٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١١/ص ٤١٤/ح ٦٥٣٩ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٤٠٧/ح ٢٧٧١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ١٩١.

(٣) في (أ) و(ب): بغايص.

، وما أقام به من دلالاته في سماواته وأرضه ، فجلوا بذلك عن أنفسهم ظلم العماية ، وكانوا نورا يُستضاء بهم ، وأئمة يقتدى بهم ، فخلصوا ^(١) الضعفة من حيرتهم ، وكانوا دعاء إلى ربهم ، وكانوا هم القوام لله بقسطه في عبيده ، المعبرين عن كتابة وسنة نبيه صلى الله عليه وآله وسلم ، وعن حجج الله القائمة في سماواته وأرضه ، وما بين ذلك من أصناف صنعه ، فأولئك هم الذين أمر الله بطاعتهم ، وهم العترة الطاهرين من ذرية نبيكم ، وأقامهم أئمة يهدون بأمره ، وأمر الخلق كلهم أن يسألوهم إذا جهلوا ، وأن يردوا إليهم علم ما اختلفوا فيه ، لأنهم أهل الاستنباط من أهل البحث والنظر ، الذين أمر الله بالرد إليهم ، بقوله عز وجل: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِيَ الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: ٥٩] ، قال مجاهد ، وعطاء: « الفقهاء والعلماء من آل محمد » ^(٢). وقال: ﴿فَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الحل: ٤٣ ، الأنبياء: ٧] ، وقال تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِيَ الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣] ، فهم الذين علموا علم الكتاب والسنة ، وعرفوا مواقع حجج الله على خلقه في سماواته وأرضه ، وكلما اختلف فيه خلقه ، فأورثهم العلم بذلك غايص الفهم ، وكلما نزلت نازلة من خبر شبهة ، وإحداث بدعة ، رجعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه والحجج القائمة ، فغاصوا بالفهم فوجدوا ذلك كذلك باستنباط

(١) في (أ) و(ب): فحملوا الضعفة من حيرتهم. وفي (ج): فخلصوا الضعفة من أيدهم. ولفقت النص من الجميع.

(٢) أخرج سعيد بن منصور ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن أبي حاتم ، عن مجاهد قال: ((هم الفقهاء والعلماء)) . وأخرج ابن أبي شيبة ، وعبد بن حميد ، وابن جرير ، وابن المنذر ، عنه قال: ((أصحاب محمد ، أهل العلم والفقه والدين)) . الدر المنثور ٥٧٥/٢ .

غوصهم ، وليس ذلك لغيرهم من أهل الجهل ، الذين يضلون بغير علم ولا كتاب مبين ، فإذا كانوا كذلك وقاموا في درجة الفهم عن الله ثَبَّتَ الله قلوبهم بتأييده ، وأمدهم بمعونته ، وعصمهم من الزيغ والشبهة بعصمته .

وقد أخبرنا الله عز وجل أنه قد كفى عباده ما يحتاجون إليه بقوله: ﴿ مَا قَرَّرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ [الأنعام: ٣٨] ، وفيه مبینات كل شيء ، فالمدركون له علماء آل محمد عليهم السلام .

وقال في التكليف لنبيه عليه السلام قل يا محمد: ﴿ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦] . وروي عن عائشة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: « قد ربما ضر المتكلف نفسه » ^(١) ، وقال: « المتكلف لا أرضا قطع ، ولا ظهرا أبقى » ^(٢) ، ثم قال عز وجل: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣] .

وقال عمر بن الخطاب ، وابن عباس: « لقد اتخذنا يومها عيدا ، نزلت ليلة الجمعة عشية عرفة » ^(٣) ، وقال تعالى: ﴿ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ

(١) لم أقف عليه .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) ورد عن ابن عباس بلفظ: ((أنه تلا هذه الآية ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً ﴾ وعنده رجل من اليهود ، فقال: لو أنزل علينا هذا لأتخذنا يومها عيدا . فقال ابن عباس: لقد أنزلت في يوم الجمعة ، يوم عرفة أو عشية عرفة)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٦٠٠/ح ٤١٤٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢٣١٣/ح ٣٠١٧ ، والنسائي في سننه ج ٥/ص ٢٥١/ح ٣٠٠٢ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٤١٤/ح ١٨٥ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٢٥٠/ح ٣٠٤٤ ، والطبراني في مسنده ج ١/ص ٣٥٣/ح ٢٧٠٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ١٨٥/ح ١٢٨٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٤٢١/ح ٣٩٩٧ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٢٥٣/ح ٨٣٠ .

شَيْءٍ ﴿[النحل: ٨٩] ، وقال أبو ذر: « قبض النبي عليه السلام وما ترك لنا طائرا يقلب بجناحيه في الهواء إلا أنبأنا من ذلك علما ، عَلِمَهُ مَنْ عَلِمَهُ ، وجهله من جهله »^(١).

ومحال أن يكون أمر بترك الأمة يحتاجون إلى ذلك العلم فيه ، ولا يكون موجودا عند أهل الاستنباط المعترين عن الله ، بحججه القائمة على خلقه ، غير أنهم سَوَّسُوا لذلك العلم الذي فهموه عن ربهم ، ولا يخرجون منه إلا بقدر ما يحتاجون إليه ، ولا يكلمون الخلق إلا بما يفهمونه عنهم ، ولا يعتنون^(٢) عقولهم فيحملون عليها من العلم ما لا تفهمه ، فتتحل قوى عقولهم عند ذلك ، ويكونوا هم سبب تحيرهم ، ولكنهم لما فهموا عن ربهم أنه فَضَّلَ بعض خلقه على بعض ، كلفوا كلا على قدر طاقته ، وما يحمله وسعهم ، وبهذا الأدب جاء الخبر عن نبينا صلى الله عليه وأئمة الهدى من آله.

وروي عن علي بن أبي طالب عليه السلام أنه قال: « كلموا الناس بما يعرفون ، ودعوا ما ينكرون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله »^(٣) ، وكذلك روي عن زيد بن ثابت أنهم أتوه في مسألة فقال لهم: « هل وقعت؟ قالوا: لا ، قال: فلم تسألون عنها قبل وقوعها؟! قالوا: نسأل لنعلمها ، فإذا وقعت أجبتنا فيها. فقال زيد: إذا علم الله الصدق من قولكم عند وقوع المسألة وفقكم للسداد ، حتى تقولوا فيها بصواب الحق »^(٤). وكان عبد الله بن مسعود إذا سؤل عن

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ) و(ب): يعتنوا.

(٣) قال علي: ((حدثوا الناس بما يعرفون ، أتحبون أن يكذب الله ورسوله)) . أخرجه البخاري في

صحيحه ج ١/ص ٥٩/ح ١٢٧.

(٤) لم أقف على هذه الرواية.

مسألة قال: «أوقعت؟ فإن قالوا: لم تقع، قال: لا أجيب فيها»^(١)، وقد اختلف الناس إليه في تزويج ابنه واشق حتى قال: وقال عمر بن الخطاب: نعوذ بالله أن يتزل بنا معضلة لا نعد لها علي بن أبي طالب.

وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «إن هاهنا لعلماء جماً لو أجد له حملة»^(٢). وأهل غايص الفهم الذين لا يتكفون بنطق ما لم يكلفوا النطق فيه، ولا يسألون عما لم تقع، فإذا وقع الشيء لزمهم النطق فيه بالعلم، فوجدوه في الكتاب والسنة والأدلة القائمة، ولم يقولوا في دين الله وأحكامه وشرائعه برأيهم وقياسهم، بل يغوصون عليه بغايص فهمهم، حتى يخرجونه من الكتاب والسنة، كما ذكر ذلك عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه حين أراد عمر أن يرحم امرأة أتت بولد لستة أشهر، فقال: «إن خاصمتكم بكتاب الله خصمتكم، قال الله: ﴿حَمَلُهُ وَفِصْلُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحاف: ١٥]، فخلا عمر سبيلها»^(٣).

قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «طلب العلم فريضة على كل مسلم»^(٤)، وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: «قيمة كل أمرء ما يحسنه، اغد عالماً أو متعلماً ولا تكن الثالث فتهلك»^(٥)، فهكذا صفة أهل الاستنباط والبحث والنظر بغايص الفهم، وهو الذي عني أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فبذاك فليقتد أهل العلم بالله والخشية.

(١) لم أقف على هذه الرواية.

(٢) نهج البلاغة، قصار الحكم/٤٩٦.

(٣) رواه المتقي الهندي في كثر العمال ج ١/ص ١٤٥٠٨.

(٤) أخرجه أبو طالب في أماليه/٢٠٢ (١٣٨)، والمرشد بالله في أماليه ١/٥٧، ٦٨، والكليني في

الكاظمي ١/٣٠، والطوسي في أماليه/٤٨٧.

(٥) نهج البلاغة، قصار الحكم/٨١.

باب زهرة العلم

وهو الشعبة الثانية من العدل ، فزهرة العلم الباطن الذي قد رسخ في القلب من خشية الله ، وهو رأس العلم وزهرته ، وذلك أن العلم بالله يؤدي إلى خشية الله ، والعمل بالعلم على ما وصفناه إنما هو الاقتداء بالكتاب والسنة ، وما أقام الله من الدلالة مع إصابة الحق فيه ، وإصابته على ما شرحناه وبيناه ، ونزيد في ذلك بيانا إن شاء الله تعالى ، قال الله جل ذكره: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، ومن أطاع الرسول فقد أطاع الله ، ثم قال تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَّعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] ، ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: إلى محكم كتابه ، وما أقام الله من أدلته ، وإلى الرَّسُولِ ﴿أي: إلى سنته الجامعة ، إذا لم يكن من العترة من يُرد إليه ، لأن الكتاب والسنة والعترة الطاهرة أما في أهل الخشية الذين يلجئون إليه عند كل شبهة وفتنة ، بوزن ذلك جاء الخبر عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «إنها ستكون فتنة ، قلت يا رسول الله فما المخرج منها لمن فتن؟ قال: كتاب الله في خير ما قبلكم ، وحكم ما يأتيكم ، فمن ابتغى الهدى في غيره ، أو سأل عنه غير أهله أضله الله ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن اهتدى به هدى ، ومن دعا إليه هتفوا صراطا مستقيما» (١) .

(١) عن معاذ بن جبل قال: ((ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما الفتن فعظهما وشدهما ، فقال علي بن أبي طالب: يا رسول الله فما المخرج منها؟ فقال: كتاب الله فيه حديث ما قبلكم ونبأ ما بعدكم ، وفصل ما بينكم ، من تركه من جبار قصمه الله ، ومن تتبع الهدى في غيره أضله

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «أصدق الحديث كتاب الله ، وأحسن الهداية هدي محمد صلى الله عليه وآله الطيبين ، وشر الأمور محدثاتها» ^(١) ، وقال ابن مسعود: «إن الله شرع لنبيه عليه السلام سنن الهدى ، وأهل الحشية لله لا يجاوز عملهم الكتاب والسنة ، والأعلام القائمة الداعية إلى الله من العترة ، الذين لا يتكلمون من العلم ما لم يكلفوا ، ولا يتكلمون فيما كلفوا إلا في موضعه ، ولا يضعونه إلا في أهله ، لأنهم علماء بالعلم والسياسة للعلم ، ويعملون لله بالعلم في السر والعلانية ، فإذا كانوا كذلك أورثهم الله زهرة العلم ، وهو العلم الباطن الذي هو فهم القلوب لكل معتبر به وصاحب العبرة فيه ، ومن استخرجهم له من ^(٢) البرهان ، وحشاه من الدلالة عليه فيورثهم ذلك النطق بالحكمة ، والعبادة عنها والدعاء لمن حد عنها إليها ،

الله ، هو حبل الله المتين ، والذكر الحكيم ، والصراط المستقيم ، هو الذي لما سمعته الجن قالت: ﴿إنا سمعنا قرآنا عجبا﴾ ، هو الذي لا تختلف به الألسن ولا تختلف كثرة الرد)).
أخرجه الترمذي في سننه ٥/ص ١٧٣/ح ٢٩٠٦ ، والطبراني في معجمه الكبير ٢٠/ص ٨٥/ح ١٦٠ ،
والدارمي في سننه ٢/ص ٥٢٨/ح ٣٣٣٢.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص ٢٢٦٢/ح ٥٧٤٧ ، والنسائي في سننه ٣/ص ٥٨/ح ١٣١١ ،
وابن خزيمة في صحيحه ٣/ص ١٤٣/ح ١٧٨٤ ، وابن ماجه في سننه ١/ص ١٨/ح ٤٦ ،
وابن حنبل في مسنده ١/ص ٣٠٢/ح ٢٧٤٩ ، والحاكم في مستدركه ٢/ص ١٩٩/ح ٢٧٤٤ ،
والطبراني في مسنده ١/ص ٤٥/ح ٣٣٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ٨/ص ٣٠٥/ح ٨١٤٨ ،
والنسائي في سننه الكبرى ١/ص ٣٩٠/ح ١٢٣٤ ، والقضاعي في مسند الشهاب
ج ٢/ص ٢٦٤/ح ١٣٢٥ ، والبيهقي في سننه الكبرى ٣/ص ٢١٥/ح ٥٥٩٣ ، وأبو يعلى في
مسنده ج ٩/ص ١٦٨/ح ٥٢٥٧ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٣٠/ح ٨٨ ، والشافعي في مسنده
١/ص ٦٧/ح ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ١٩١/ح ٢٢٠٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج
٢/ص ١١٢/ح ١٤٢٠.

(٢) في (أ) و(ب): ومن استجزا به له من. مصحفة.

وذلك أن العلم علمان» ^(١) ، كما روى الحسن عن النبي صلى الله عليه : « العلم علمان ، فعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم ، وعلم في القلب فذلك العلم النافع» ^(٢) .

وقال سليمان رحمة الله عليه لرجل من بني عبس حين صحبه : « يا أخا بني عبس انزل فاشرب من ماء دجلة ، فقال لي سليمان : كم نقص شربك؟ قال : قلت فما عسى أن ينقص شربي من ماء دجلة؟! قال : فكذلك العلم لا يفنى فعليك بما ينفعك» ^(٣) ، وروى أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله في

(١) ورد في رواية عن ابن مسعود أنه قال : ((من سره أن يلقي الله غدا مسلما فليحافظ على هذه الصلوات المكتوبات حيث ينادي من فإغن من سنن الهدى وإن الله شرع لنبىكم صلى الله عليه وسلم سنن الهدى ولعمري ما إخال أحدا منكم إلا قد اتخذ من بيته مسجدا ولو أنكم صليتم في بيوتكم كما يصلي هذا المتخلف في بيته لتركتم سنة نبىكم صلى الله عليه وسلم ولو تركتم سنة نبىكم صلى الله عليه وسلم لضللتم ولقد رأيتنا وما يتخلف عنها إلا منافق معلوم أو معروف نفاقه ولقد رأيت الرجل يهادى بين الرجلين حتى يقام في الصف فما من رجل يتطهر فيحسن الطهور فيخطو خطوة يعمد إلى المسجد من المساجد إلا كتب الله له بها حسنة ورفع به درجة وحط عنه بها خطيئة حتى إن كنا لنقارب في الخطا)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج ١/ص ٤٥٣/ح ٦٥٤ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٢٥٦/ح ٧٧٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٨٢/ح ٣٦٢٣ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٤٢/ح ٣١٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٩/ص ١١٦/ح ٨٥٩٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٢٩٧/ح ٩٢٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٥٩/ح ٤٧٣١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١/ص ٥١٦/ح ١٩٧٩ .

(٢) عن الحسن قال : ((العلم علمان فعلم في القلب فذلك العلم النافع ، وعلم على اللسان فذلك حجة الله على ابن آدم)). أخرجه الدارمي في سننه ج ١/ص ١١٤/ح ٣٦٤ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٧/ص ٨٢/ح ٣٤٣٦١ .

(٣) ورد عن رجل من بني عبس أنه قال : ((صحبت سلمان فأثنى على دجلة فقال : يا أخا بني عبس انزل فاشرب ، قال : فترلت فشربت ، ثم قال : يا أخا بني عبس انزل فاشرب ، قال : فترلت

حديث الحضر عليه السلام حين قال لموسى صلى الله عليه وآله وسلم: « إنك على علم من علم الله لم يعلمنيه ، وأنا على علم من علم الله لم يعلمكه »^(١) ، فذلك قوله: ﴿ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴾ [الكهف: ٨٢] ، فهو الباطن وهو العلم النافع ، وهو العلم بباطن الأمور ، خفي سرها وعلم مخزونها ، وهو المورث لخشية الله في السر والعلانية. ومصادقه ما قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨] ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٧٧] ، وقال: ﴿ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ [المجادلة: ١١] .

وقد سمى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم العلم بالله رأس العلم حين سألته الأعرابي فقال: « يا رسول الله علمني من غرائب العلم؟ فقال له النبي: ما قد صنعت في رأس العلم؟ فقال: يا رسول الله ما رأس العلم؟ قال: معرفة الله حق معرفته ، ثم قال النبي عليه السلام: اذهب فتعلم رأس العلم ، ثم قال: تعال

فشرت ، ثم قال: ما أفنى شربك من هذا الماء؟ قلت: وما عسى أن يفنى. قال: كذلك العلم فعليك منه بما ينفعك ، ثم ذكر ما فتح الله على المسلمين من كنوز كسرى ، فقال: إن الذي أعطاكموها وفتحها لكم وخولكموه للمسك خزائنه ومحمد حي ، لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينار ولا درهم ولا مد من طعام ، فبم ذاك يا أخا بني عبس ، ثم مر ببيادر تدرى فقال: إن الذي أعطاكموه وخولكموه وفتحها لكم لمسك خزائنه ومحمد حي ، لقد كانوا يصبحون وما عندهم دينار ولا درهم ولا مد من طعام فيما ذاك)) .

أخرجه الطيالسي في مسنده ١/ص ٩١/ح ٦٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ٢٦٥/ح ٦١٧٣ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٩٩٥/ح ١١١١ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٣٦/ح ١٢٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ١٢٢/ح ٣٤٦٧٣ .

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ص ١٧٥٦/ح ٤٤٤٩ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ١٨٤/ح ٣٧١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٣٩١/ح ١١٣٠٨ .

فتعلم من غرائب العلم ، فرأس العلم معرفة الله «^(١) ، وهي خشيته لأن من خشى الله عرف الله خشى على قدر معرفته ، وهو العلم النافع ، وهو أول علم الباطن ، لأن الله جل ذكره ليس مما يُخَيَّلُ وإنما يُعَلَمُ بالأدلة والنظر فيما ذرأ من خلقه ، وبث من آياته ، وذلك كله علم ويقين بباطن وغيب ، يقوم عند أهل اليقين مقام المعاينة ، بما قد سخوا فيه من العلم بما دلت عليه الحجة القاهرة ، والأعلام الظاهرة.

ثم الميزة الثانية من علم الباطن: العلم الباطن لذات باطنه ، فمن كان من أهل الباطن وحصلت له هذه الميزة كان عمله عمل السر ، لأن أهل السر لا يعبدون بعمل ظاهر ، لعلمهم بما يدخل فيه من الآفات المفسدة له ، والمصرفه له^(٢) عن جهة الإعلان به ، فإن كان فرضي ، ولهم أيضا في ذلك من تضاعف الأعمال كما روي^(٣) الفضل ، وذلك أن « أعمال السر تضاعف على عمال العلانية بسبعين ضعفا »^(٤) ، كما جاء في الخبر ، وقال الله جل ثناؤه وقال الله جل ثناؤه: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيَتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ، فهذا التثبيت هو إسرار العمل وإرادة الله به مخلصا. وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِن تُبَدُّوْاْ الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوْهَا الْفُقَرَاءَ فَهِيَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢٧١] ، فأخبر جل ثناؤه أن إخفاء العمل خير لهم ، لعلمه بما في إظهاره عليهم من الفتنة والفساد ، وما

(١) أخرجه السيد أبو طالب في أماليه / ٢٠٩ (١٤٩) ، والإمام الموفق بالله في الاعتبار وسلوة العارفين ٢٤٨ / (٣١٦).

(٢) سقط من (أ) و(ب): له.

(٣) في (أ) و(ب): فرضي ، فلما أيضا في ذلك من تضاعف الفضل وذلك.

(٤) عن عائشة قالت: ((الذكر الخفي الذي لا يكتبه الحفظة ، يضاعف على ما سواه من الذكر

سبعين ضعفا)) . أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج ٦ / ص ٨٥ / ح ٢٩٦٦٤.

يلحق الأعمال من الرياء والعجب وحب السمعة والإمتنان ، الذي يحبطها ويطل أجورها ، وكذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَبْطُلُوا صَدَقَتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِثَاءَ النَّاسِ﴾ [البقرة: ٢٦٤] ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حسي الذكر الخفي» ^(١). وعن أبي هريرة رواه عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: «سبعة يظلمهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، رجل تصدق بصدقة فأخفى عن شماله ما تنفق بيمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه من خشية الله ...» ^(٢).

(١) عن سعد بن أبي وقاص قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: ((خير الذكر الخفي ، وخير الرزق أو العيش ، ما يكفي)) .

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ٣/ص ٩٢/ح ٨٠٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ١٧٢/ح ١٤٧٧ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٢١٧/ح ١٢١٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٨٢/ح ٧٣١ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٧٦/ح ١٣٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٨٤/ح ٣٤٣٧٧ .

(٢) عن أبي هريرة ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((سبعة يظلمهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله ، إمام عدل وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه ، ورجل دعت امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق بيمينه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه)) .

أخرجه مسلم في صحيحه ج ٢/ص ٧١٦/ح ١٠٣١ ، والبخاري في صحيحه ج ١/ص ٢٣٥/ح ٦٢٩ ، والنسائي في سننه ج ٨/ص ٢٢٣/ح ٥٣٨٠ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٠/ص ٣٣٩/ح ٤٤٨٦ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ١/ص ١٨٦/ح ٣٥٨ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٩٩/ح ٢٣٩١ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٤٣٩/ح ٩٦٦٣ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٩٥٣/ح ١٧٠٩ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٢٣/ح ٢٤٦٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٨/ص ٢٤٠/ح ٧٩٣٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٦١/ح ٥٩٢١ ، والبيهقي في سننه

فمن كان عمله سرا كان ذلك دليلا منه على الإيقان بالغيب ، و يقينا منه لخالقه ، وما ندبه إليه من دار كرامته علم باطن وهو محض اليقين ورأس الخشية ، قال الله جل ثناؤه: ﴿ بِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾ [١] وَأُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ [لقمان: ٤-٥].

وروى أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة » ^(١) ، والأخبار في ذلك تكثر ، فذلك زهرة العلم علم الخشية ، وهو علم الباطن لعمل الباطن لدار باطنة وهي الآخرة ، ولا توصل إلى اليقين بها إلا بما ذكرناه من العلم بخالقها ، واليقين بقدرة موعدها ^(٢) ، والعمل الذي يراد به ظاهر الدنيا ، فهو علم ظاهر على اللسان ، يرا بأعمال ^(٣) تعمل ظاهرة وهو التصنع للمخلوقين لدار ظاهرة وهي الدنيا ، فهذا العلم هو مثل العلم بالكلام والنحو والعتب والأحكام ، ليعلو بها العبد ويرتفع بها في الدنيا عند الناس والسلطين ، وغيرهم من أبناء الدنيا ، وكذلك يعلم أهل هذه الطبقة بسائر العلوم ، وإنما أرادوا به العلو والكثرة في العاجلة ، دون التقرب إلى الله والعمل له لدار الآخرة ، فهم العلماء السوء ، كما قال عيسى بن مريم: « ويلكم يا علماء السوء قعدتم على باب الجنة فلم تدخلوها ولم يدعوا غيرهم يدخلها » ^(٤) ، وقال النبي صلى الله

الكبرى ج ٣/ص ٦٦/ح ٤٧٦٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ١٢١/ح ٣٤٦٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص ٢٥١/ح ٦٣٢٤.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٥/ص ٢٣٥٧/ح ٦٠٥١ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة

٢/ص ٧٩٨/ح ١٤٢٩ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ١٧٣/ح ١١١٦.

(٢) في (ج): موعودها والعمل.

(٣) كذا في المخطوطات.

(٤) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

عليه وآله وسلم: « يا علماء السوء لا تأخذوا مما تعلمون أكثر مما أعطيتموه ،
ويا ملح الأرض لا تفسدوا ، فإن كل شيء إذا فسد دوي بالملح وإن الملح إذا
فسد لم يكن له دواء » ^(١) ، وقال عيسى عليه السلام: « ويلكم يا علماء
السوء مثلكم مثل الدفلى ^(٢) زهرها حسن ويقتل ضرها من يأكلها » ^(٣) .
وقال الله تبارك وتعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ
مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ
اللِّلْعَنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩] ، وقال: ﴿ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّاهُ
فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾ [البقرة: ١٦٠] ، فجعل توبتهم
على شريطة ألا تقبل منهم إلا بالبيان لما كتموا ، وقال تعالى: ﴿ لَوْلَا يَنْتَهُهُمْ
الرَّبِّيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَعْلَاهُمْ السُّحْتُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا
يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ٦٣] ، وقال: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا
قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] .

(١) قال عيسى عليه السلام: انتم — ملح — الأرض . ولكن ان فسد الملح فيماذا يملح . لا يصلح بعد
لشيء الا لان يطرح خارجا ويداس من الناس . إنجيل متى ٥: ١٣ .
وقال عليه السلام: الملح جيد . ولكن اذا صار الملح بلا ملوحة فيماذا تصلحونه . ليكون لكم في انفسكم
— ملح — وسالموا بعضكم بعضا . إنجيل مرقس ٩: ٥٠ .
(٢) الدفلى: شجر من أخضر حسن المنظر وهي من السموم .
(٣) لم أقف على هذه الرواية في الإنجيل .

وقال غير واحد من أهل العلم: «إنهم أخذوا به الدنيا» ^(١) ، وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم سمعته يقول: «أخوف ما أخاف على أمتي منافق عليم اللسان» ^(٢) .

وقال الحسن: قرأ القرآن ثلاثة وتعلم العلم ثلاثة ، رجل قرأ القرآن وتعلم العلم فاتخذه بضاعة ينقله من مصر إلى مصر ، يستأكل به الناس .

وقوم قرأوا القرآن وتعلموا فاستدروا به الولاية ، واستطالوا به على أهل بلادهم . قد كثر هذا الضرب في حملة القرآن . لا كثر الله أهل هذا الضرب .

وقوم قرأوا القرآن وتعلموا العلم فهم كما قال الله بعد استعمالهم لما تعلموا:

﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ

ءَايَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [الأنفال: ٢] ، فهو لاء في

حملة القرآن ، والعلم أعز وأقل من الكبريت الأحمر . أحيأ الله بهم الدين وأطفأ بهم جور الظالمين .

وقد روي أن ابن عجلان قال: قوم قرأوا القرآن وتعلموا العلم حتى إذا

أحكموها جميعاً عمد أحدهم إلى الدنيا فجعلها على رأسه وضمها إلى نحره ،

فرأه ثلاثة من الناس: رجل أعمى ، وامرأة ضعيفة ، وأعرابي جاهل ، فقالوا:

فلان أقرأ لكتاب الله منا ، وأعلم بسنة نبيه منا ، لو لا أنه رأى في الدنيا

ذخيرة خير ما جمع منها ما جمع ، ولا ادخر منها ما ادخر ، فاجمعوا كما جمع

، وادخروا كما ادخر ، فمثله كما قال الله: ﴿ لِيَحْمِلَنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا

مَعَ أَثْقَالِهِمْ ﴾ [العنكبوت: ١٣] ، وقال عز وجل: ﴿ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ

(١) لم أقف عليه .

(٢) أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ص ٢٢/ح ١٤٣ ، والطبراني في معجمه الكبير

الْقِيَمَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾
[النحل: ٢٥] ، وقال جل ثناؤه: ﴿فَأَعْرِضْ عَنْ مَن تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا
الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ ﴿٢٦﴾ ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ﴿[النجم: ٢٩ - ٣٠].

وقال أبو حازم للزهري حين دخل على عبد الملك: « كانت الأمراء تأتي العلماء إلى بيوتهم ، ويقتبسون من علمهم ، وكان في ذلك صلاح للراعي والرعية ، فلما رأى ذلك سفلة الناس وأنذاهم ، تعلموا العلم للدنيا ، فصارت العلماء تأتي الأمراء إلى بيوتهم ، وكان في ذلك هلاك الراعي والرعية »^(١).

(١) عن الضحاك بن موسى قال: ((مر سليمان بن عبد الملك بالمدينة وهو يريد مكة فأقام بها أياماً فقال هل بالمدينة أحد أدرك أحدنا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فقالوا له أبو حازم فأرسل إليه فلما دخل عليه قال له يا أبا حازم ما هذا الجفاء قال أبو حازم يا أمير المؤمنين وأي جفاء رأيت مني قال أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتي قال يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان تقول ما لم يكن ما عرفني قبل هذا اليوم ولا أنا رأيتك قال فالتفت سليمان إلى محمد بن شهاب الزهري فقال أصاب الشيخ وأخطأت قال سليمان يا أبا حازم مالنا نكره الموت قال لأنكم أخربتم الآخرة وعمرتم الدنيا فكرهتم ان تنتقلوا من العمران إلى الخراب قال أصبت يا أبا حازم فكيف القسوم غدا على الله قال أما المحسن فكالغائب يقدم على أهله وأما المسيء فكالآبق يقدم على مولاه فبكى سليمان وقال ليت شعري مالنا عند الله قال اعرض عملك على كتاب الله قال وأي مكان أجسده قال إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم قال سليمان فأين رحمة الله يا أبا حازم قال أبسو حازم رحمة الله قريب من المحسنين قال له سليمان يا أبا حازم فأني عباد الله أكرم قال أو لو المروءة والنهي قال له سليمان فأني الأعمال أفضل قال أبو حازم أداء الفرائض مع اجتناب المحارم قال سليمان فأني الدعاء أسمع قال أبو حازم دعاء المحسن إليه للمحسن قال فأني الصدقة أفضل قال للسائل البائس وجهه المقل ليس فيها من ولا أذى قال فأني القول أعدل قال قول الحق عند من تخافه أو ترجوه قال فأني المؤمنين أكيس قال رجل عمل بطاعة الله ودل الناس عليها قال فأني المؤمنين أحق قال رجل انحط في هوى أخيه وهو ظالم فباع آخرته بدنياه غيره قال له سليمان أصبت فما تقول فيما نحن فيه قال يا أمير المؤمنين أو تعفني قال له سليمان لا ولكن نصيحة تلقوها

إلي قال يا أمير المؤمنين ان آباءك قهروا الناس بالسيف وأخذوا هذا الملك عنوة على غير مشورة من المسلمين ولا رضا لهم حتى قتلوا منهم مقتله عظيمة فقد ارتحلوا عنها فلو شعرت ما قالوه وما قيل لهم فقال له رجل من جلسائه بئس ما قلت يا أبا حازم قال أبو حازم كذبت ان الله أخذ ميثاق العلماء ليبينه للناس ولا يكتُمونه قال له سليمان فكيف لنا ان نصلح قال تدعون التصلف وتمسكون بالمرءة وتقسمون بالسوية قال له سليمان كيف لنا بالمأخذ به قال أبو حازم تأخذه من حله وتضعه في أهله قال له سليمان هل لك يا أبا حازم ان تصحبنا فتصيب منا ونصيب منك قال أعوذ بالله قال له سليمان ولم ذاك قال أخشى أن أركن إليكم شيئاً قليلاً فيذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات قال له سليمان أرفع إلينا حوائجك قال تنجيني من النار وتدخلي الجنة قال سليمان ليس ذاك إلي قال أبو حازم فمالي إليك حاجة غيرها قال فادع لي قال أبو حازم اللهم ان كان سليمان وليك فيسره لخير الدنيا والآخرة وان كان عدوك فخذ بناصيته إلى ما تحب وترضى قال له سليمان قط قال أبو حازم قد أوجزت وأكثرت ان كنت من أهله وان لم تكن من أهله فما ينفعني ان أرمي عن قوس ليس لها وتر قال سليمان أوصي قال سأوصيك وأوجز عظم ربك ونزله ان يراك حيث نمأك ويفقدك حيث أمرك فلما خرج من عنده بعث إليه بمائة دينار وكتب إليه ان أنفقها ولك عندي مثلها كثير قال فردها عليه وكتب إليه يا أمير المؤمنين أعيذك بالله ان يكون سؤالك إياي هزلاً أو ردي عليك بذل وما أرضاها لك فكيف أرضاها لنفسي وكتب إليه ان موسى بن عمران لما ورد ماء مدين وجد عليها رعاء يسقون ووجد من دونهم اريتين تزودان فسألهما فقالتا لا نسقي حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال رب إني لما أنزلت إلي من خير فقير وذلك انه كان جائعاً خائفاً لا يأمن فسأل ربه ولم يسأل الناس فلم يظن الرعاء وفطنت الجاريتان فلما رجعتا إلى أبيهما أخبرتاه بالقصة وبقوله فقال أبوهم وهو شعيب هذا رجل جائع فقال لإحدهما فادعيه فلما أتته عظمتة وغطت وجهها وقالت إن أبي يدعوك ليجزيك أجر ما سقيت لنا فشق على موسى حين ذكرت أجر ما سقيت لنا ولم يجد بدا من ان يتبعها انه كان بين الجبال جائعاً مستوحشاً فلما تبعها هبت الريح فجعلت تصفق ثيابها على ظهرها تنصف له عجيزتها وكانت ذات عجز وجعل موسى يعرض مرة ويفض أخرى فلما عيل صيره ناداه يا أمة الله كوني خلفي وأريني السميت بقولك ذا فلما دخل على شعيب إذ هو بالعشاء مهياً فقال له شعيب اجلس يا شاب فتعش فقال له موسى أعوذ بالله فقال له شعيب لم أما

وقال وهب بن منبه: « كان أهل العلم ممن كان قبلكم استغنوا بعلمهم عن دنيا غيرهم فزهد أهل العلم في دنياهم رغبة في علمهم ، وأهل العلم اليوم بذلوا علمهم رغبة في دنيا غيرهم فزهد أهل الدنيا في علمهم ، لسوء موقعه عندهم »^(١). وذكر أن الحسن مر على باب من أبواب الملوك الجبابرة فرأى أقواما عليهم زي النسك فقال لهم: ما لي أراكم شمرتم ثيابكم ، وجززتم شعوركم ، وقصرتم أكمامكم ، فضحتم القرآن فضحككم الله ، ثم قال: أما والله لو زهدتم فيما عندهم لرغبوا فيما عندكم ، قوموا فتفرقوا فرّق الله بين أجسادكم وأرواحكم.

وروي أن عيسى بن مريم عليه السلام عاب علماء عدلوا عن الحق ، فقال: « علماء السوء يصفون البعوض من شراركم ويزردون الجمال بأحمالها ، يصلون الصلاة في زوايا المساجد ، ويأكلون من ذخائر الأرامل^(٢) ، ويوقدون في قبور الأنبياء ، مراتب اليتامى تكرمه لهم ويحمل أحدكم العشر على ظهر أخيه ولا يمسه بيده ، يا أشباه القبور المحصنة ، أعلاها حسن ، وفيها النتن »^(٣). وقال أيضا في حديث آخر: « يلبسون مسوك الضأن في قلوب الذياب ، ألسنتكم أحلى من السكر ، وقلوبكم أَمْرٌ من الصبر »^(٤) ، والأخبار في هذا

أنت جائع قال بلى ولكني أخاف ان يكون هذا عوضا لما سقيت لهما وأنا من أهل بيت لا نبيع شيئا من ديننا بملء الأرض ذهبا فقال له شعيب لا يا شاب ولكنها عادتي وعادة آبائي نقريء الضيف ونطعم الطعام فجلس موسى فأكل ان كانت هذه المائة دينار عوضا لما حدثت فالميتة والدم ولحم الخنزير في حال الاضطراب أحل من هذه وان كان لحق في بيت المال فلي فيها نظراء فإن ساويت بيننا وإلا فليس لي فيها حاجة)). أخرجه الدارمي في سنه ج ١/ص ١٦٣/ح ٦٤٧.

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (ب): الأنامل. مصحفة.

(٣) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

(٤) لم أقف على هذا النص في الإنجيل.

تكثر ، فهذا دليل على الظاهرة ، وهو العلم الذي قال النبي عليه السلام: « علم في اللسان وميراثه النفاق » ^(١) ، كما قال أيضا: « أكثر منافقي أمي قراؤها » ^(٢) ، في حديث حذيفة. فهذا ميراث أهل العلم الظاهر ، الطالبين به الرياء والسعة ، إذ أعمالهم للدنيا ظاهرة والتصنع لأهلها ، كما قال الله سبحانه: ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَىٰ مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴾ [البقرة: ٢٠٤] ، وكما قال: ﴿ اشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبَيَّسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧] ، وقال: ﴿ وَمَا مَتَّعَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ [التوبة: ٣٨] ، ﴿ قُلْ مَتَّعَ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء: ٧٧] ، وقال المسوردي أخو بني بمر: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « والذي نفسي بيده ما الدنيا في الآخرة إلا مثل ما يبل أحدكم إصبعه السبابة في اليم فلينظر بم ترجع إليه » ^(٣). وقد فسرنا زهرة العلم والله محمود. وعلم الباطن

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ١٧٥/ح ٦٦٣٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٧/ص ١٧٩/ح ٤٧١.

(٣) ورد عن المستورد الفهري بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه في البحر فلينظر بم يرجع)).

أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢١٩/ح ٢٨٥٨ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٠/ص ١٧٤/ح ٤٣٣٠ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٦٢/ح ٢٣٢٣ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٧٦/ح ٤١٠٨ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٢٢٩/ح ١٨٠٣٧ ، والحاكم في مستدركه ج ٣/ص ٦٨٤/ح ٦٥١٠ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٣٧٨/ح ٨٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٠/ص ٣٠١/ح ٧١٣ ، وفي معجمه الصغير ج ١/ص ٣٢٩/ح ٥٤٥ ، والقضاعي

وفرقنا بين علم الباطن وعلم الظاهر ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن فهم » فسر جمل العلم ، وأهل الفهم هم أهل زهرة العلم ، وهم الخلفاء من أهل بيته ، المعبرون عن آياته وبيناته.

باب شريعة الحكم

وهي الشعبة الثالثة من العدل.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « ومن علم عرف شريعة الحكم » ، يريد بذلك: من علم زهرة العلم دلّه ذلك على شرائع الحكم ، وكان حاكما بالعدل لغيره ، مثل حكمه لنفسه ، وهو إصابة الحق في الحكم ، فلا يجاوز به حكم الله وحكم رسوله.

وقال: « إن شريعة الحكم لها أول وآخر ، أولها إنصاف الخلق في الحكم ، وهو التسوية بينهم في الغضب والرضا ، وآخرها الاجتهاد في إعطاء صواب الحق من نفسه » ، يريد بذلك: الحكم لله ولرسوله ، فلا يجاوز من ذلك ما أمر به بعد يقين منه للزوم ما حكم به ، وأنه حكم الله وحكم رسوله ، فإذا أصاب ذلك وأقامه في حدوده لم يتجاوز قدره بميل إلى هوى ولا إثارة لنديا ، وكان من الصفوة صفوة الرسول وذريته ، وكان من الذين قال الله فيهم: ﴿ وَإِنْ حَكَمْتَ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ ﴾ [المائدة: ٤٢] ، وكان من الذين قال الله: ﴿ كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ﴾ [النساء: ١٣٥] ، وقال لداود عليه السلام: ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾ [ص: ٢٦] ، وقوله تعالى: ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفِثَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا

لِحُكْمِهِمْ شَهِدِينَ ﴿٧٨﴾ [الأنبياء: ٧٨] ، فَفَهَّمُ اللهَ سليمانَ الحكمَ في ذلك ، ولم يكن أخطأ داود الحكم في ذلك ، إلا أن سليمان كان أعلى حكماً في ذلك بعينه ، لأن الله فهمه إياه.

وقال النبي عليه السلام في حديث مختصر: « إن ناقة النبي عليه السلام أفسدت على قوم حرثاً لهم ، فقضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن على أهل الأموال حفظ أموالهم بالنهار ، وأن على أهل المواشي حفظ مواشيهم بالليل ، فما أصاب المواشي بالليل ضمن أهلها » ^(١) ، فكان هذا حكم رسول الله عليه السلام في مثل ذلك الحكم ، ثم أخبر الله تعالى أنه آتاه داود الحكمة وفصل الخطاب.

وقال قتادة: « اليمين على المدعى عليه والبيان على المدعي » ^(٢). وقال ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله: « لو يعطى الناس بدعواهم لأدعى قوم دماء قوم وأموالهم لهم ، ولكن البينة على المدعي واليمين على من أنكر » ^(٣) ،

(١) لم أقف على هذا الحديث.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) عن ابن أبي مليكة: أن امرأتين كانتا تخرزان في بيت أو في الحجرة ، فخرجت إحداهما وقد أنفذ بإشقي في كفها فادعت على الأخرى ، فرفع أمرهما إلى ابن عباس ، فقال ابن عباس: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لو يعطى الناس بدعواهم لذهب دماء قوم وأموالهم ، ذكروها بالله ، وأقرؤوا عليها)) إن الذين يشتركون بعهد الله ﴿ فذكروها فاعترفت ، فقال ابن عباس: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((اليمين على المدعى عليه)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٦٥٦/ح ٤٢٧٧ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٣٣٦/ح ١٧١١ ، والنسائي في سننه ج ٨/ص ٢٤٩/ح ٥٤٢٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ١١/ص ٤٧٧/ح ٥٠٨٢ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٧٧٨/ح ٢٣٢١ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٤٣/ح ٣١٨٨ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج ٣/ص ١٩٢/ح . ، والطبراني في

فهذا مثل ما حكم به داود عليه السلام ، وكان هذا الحكم من طريق زهرة العلم ، وهو التفهم عن الله لأهل شريعة الحكم والتأييد لهم ، الذين آتاهم الله الحكمة كما قال سبحانه: ﴿ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ [البقرة: ٢٦٩] ، فهذا الخير الكثير من الله لأهل زهرة العلم ، والدليل على أن شرائع الحكم وإصابة حدودها من مواهب الله تعالى وتبيينه ، على الحجة فيها وتوقيفه لذلك: ﴿ فَابْتَغُوا حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَ إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا ﴾ [النساء: ٣٥] ، فمن قصد إلى الله بحكمه ، وطلب الوسيلة إليه ، بصّره وهداه لرشده ، ونبهه على دلائله ، وهداه للتي هي أقوم من أمره ، لأنه قال: ﴿ وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩] ، يقول تعالى - وعز عن معاني المخلوقين - : من جاهد عدوه ونفسه في أن لا يقول على الله إلا الحق ، ويتحرى مجني في أموري ، هديته لرشده ، وقبضت له التوفيق في أمره ، وهو مثل ما قال زيد بن ثابت حين « سؤل عن شيء لم يقع؟ فقال: قد وقع ذلك؟ قالوا: لا ، إلا أنا نريد أن نعلم الشيء قبل أن يقع ، فإذا وقع قلنا بذلك فيه. فقال زيد: إن الله إذا علم الصدق من قلوبكم وفقكم لسداد الحق حتى تقولوا فيه بالصواب »^(١).

وقال جابر بن عبد الله: « لما نزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ بعث النبي صلى الله عليه وآله إليه فجيء به من المدينة ، فكأنني أنظر إليه على أتان تحته قطيفة حمراء والناس يكلمونه ، ويقولون: يا سعد رضي القوم بك

معجمه الكبير ج ١١/ص ١١٧/ح ١١٢٢٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٣٣٢/ح ١٠٥٨٥

، والشافعي في مسنده ١/ص ١٥٣/ح ٠ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ٨/ص ٢٧٣/ح ١٥١٩٣.

(١) لم أقف عليه.

فأحسن إليهم ، إذ نزلوا على حكمك ، وهو ساكت لا يرد على أحد منهم شيئاً ، حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه فطرح له النبي قطيفة وأجلسه إلى جنبه ، ثم قال: يا سعد قد نزل القوم على حكمك فاحكم فيهم ، فقال: يا رسول الله أرى أن تقتل مقاتلتهم ، وتسي ذراريهم ، ويقسم فيئهم ، وتخرب ديارهم ، وتحرق نخيلهم. فقال له النبي عليه السلام: حكمت فيهم بحكم الله « (١).

وفعل النبي عليه السلام ذلك بهم ، فكان حكمه موافقاً لحكم الله فيهم ، وذلك من زهرة العلم ، فعرف بزهرة العلم شريعة الحكم ، فوفقه الله لذلك ، وكان سبب ذلك دعوة سعد حين رموه فأصابوا أكحله ، فقال: « اللهم لا تخرج نفسي من الدنيا حتى تشف قلبي من بني قريظة ، فسكن الدم ، قال



(١) عن أبي سعيد ، أنه سمعه لما نزل أهل قريظة على حكم سعد ، أتى النبي صلى الله عليه وسلم على حمار فقال: ((إن هؤلاء نزلوا على حكمك ، قال: فإني أحكم أن تقتل مقاتلتهم ، وتسي ذراريهم. قال: حكمت فيهم بحكم الملك)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١١٠٧/ح ٢٨٧٨ ، وفي الأدب المفرد ١/ص ٣٢٦/ح ٩٤٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٣٨٩/ح ١٧٦٨ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٥/ص ٤٩٧/ح ٧٠٢٦ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٣٥٥/ح ٥٢١٥ ، وابن حنبل في مسنده ج ٣/ص ٢٢/ح ١١١٨٤ ، والطبراني في مسنده ج ١/ص ٢٩٧/ح ٢٢٤٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٦٥/ح ٥٩٣٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٥٨/ح ١١٠٩٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٤٠٦/ح ١١٨٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٨٠/ح ١٤٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٣٧٩/ح ٣٦٨٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٨٩/ح ١٣٤١.

جابر بن عبد الله: كأني أنظر وقد كاد يلتحم ، فلما حكم النبي صلى الله عليه وآله فيهم بحكم سعد انبعث الدم فمات «^(١)» .
وقال عبد الله بن عمير: سمعت عطية القرطبي يقول: « إن مما أنعم الله عليّ أن كنت يوم بني قريظة ممن حكم سعد فشكوا في أمري فكشفوا عني فوجدوني لم أنبت فخلوا سبيلي فها أنا بين أظهركم »^(٢) ، والأخبار في ذلك تكثر .

باب روضة الحلم

وهو الشعبة الرابعة من العدل .

(١) عن عائشة أن سعد بن معاذ رمي في أكحله فضرب له النبي صلى الله عليه وسلم خباء في المسجد ليعوده من قريب ، فقال سعد: ((اللهم إنك تعلم أن أحب الناس إلي قتالا قوم كذبوا نبيلك وأخرجوه ، وفعلوا وفعلوا ، وإنّي أظن أن قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، اللهم إن كنت أبقيت بيننا وبينهم حربا فأبقني لهم ، وإن كنت قد وضعت الحرب بيننا وبينهم ، فافجر هذا الكلم ، واجعل موتي فيه ، فبينما هو ذات ليلة إذ انفجر كلمه من لبتة وإلى جنبه أهل خباء ، فسأل السدم حتى دخل الخباء ، فنادوهم: يا أهل الخباء ما هذا الذي يجئنا من قبلكم فنظروا ، فإذا سعد بسن معاذ قد انفجر كلمه من لبتة ، وإذا لدمه هدير ودوي ، قال: فمات عنه)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ١٧٧/ح ٤٥١ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٣٨٩/ح ١٧٦٩ ، والنسائي في سننه ج ٢/ص ٤٥/ح ٧١٠ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٥/ص ٤٩٨/ح ٧٠٢٧ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ٢/ص ٢٨٨/ح ١٣٣٣ ، وأبي داود في سننه ج ٣/ص ١٨٦/ح ٣١٠١ ، وابن حنبل في مسنده ج ٦/ص ٥٦/ح ٢٤٣٣٩ ،

و الطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ٧/ح ٥٣٢٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٢٦١/ح ٧٨٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٣٨١/ح ٦٣٧٩ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٧/ص ٤٥٢/ح ٤٤٧٧ .

(٢) عن عطية القرطبي قال: كنت فيمن حكم عليه سعد ، فشكوا في أمن المقاتلة أنا أم من الذرية ، فنظروا إلى عاني فوجدوها لم تطلع فآلقوني في الذرية . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج ١٧/ص ١٦٤/ح ٤٣٤ .

قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « من حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا ». فروضة الحلم هو جماع الحلم ، وذلك أن الحلم شطر البر كله ، وهو ملك النفس عند الغضب ، فكيف يملكها عند الرضا؟! فإذا ملك العبد نفسه عند الغضب كان أشد الناس قهرا لهواه ، فلم يكاف بالسيئة السيئة ، ولكن يكافي بالسيئة الحسنة ، وكيف بمكافأة الحسنة؟! وذلك أن العبد إذا قام مقام روضة الحلم ، كان دليله الصفح والعفو عمن أساء إليه ، والتجاوز عن جميع الخلق إذا اعتذروا إليه من إساءتهم ، وتابوا إلى رهم ، فأما وهم مصرون فلا محل للعفو عنهم ، كما أنه ليس من حلم الله ذلك إلا بالتوبة ، وإنما يكون العفو عند التوبة بأن يكون العبد له أن يقبض فيعفو وأن يكون ^(١) له أخذ ظلامته فيصفح عند ما يظهر من توبته وبدعها لله سرورا منه بتوبة عبده إليه ، فأما من عفا عن المصيرين المقيمين على المعاصي فقد خالف الله في أدبه وحكمه ، لأنه تعالى هكذا قال: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] بقوله: ﴿ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(٢) أُولَٰئِكَ جَزَاءُ هُمْ مَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ ﴾ [آل عمران: ١٣٥ - ١٣٦] ، فجعل المغفرة على شريطة الترويع عن الإصرار بترك الذنوب والرجوع إلى الندم والإستغفار ، وكذلك ينبغي للعالم بأحكام الله أن يستعمل في ذلك أدب الله مع ^(٣) تَحَرُّزُهُ عندما يتزل به من الظلامة أن يتعدى في المكافأة بها ، إن أثر من ذلك عليه أن يأخذ الحق من نفسه لهم على قدر طلبه لنفسه منهم ، فإذا كان العبد كذلك رأى أن حق الخلق كلهم يلزمه ^(٣) ، ولا يرى له حقا قبل أحد من الناس إلا قام لله بالقسط فيه ، فأورثه

(١) في (أ) و(ب): أو يكون.

(٢) في (ب): ما. مصحفة.

(٣) العبارة قلقة ، أما المعنى فواضح. لعله فيها تصحيفا.

ذلك النظر فيما للخلق قبله، فلم ير لنفسه شيئا دونهم، ولم يحكم لنفسه إلا بما يحكم لهم، فكان ذلك روضة الحلم.

وقال أيوب السجستاني: « لا يحلم الرجل حتى يكون فيه خصلتان: العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم وانتظار الإنابة لهم »^(١). وقال بعض أهل العلم: « وبذل معروفه لهم »^(٢). فمن ذلك ما أخبر الله عز وجل في كتابه، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم في خبره، فمن ذلك قول الله تعالى: ﴿ أَذْفَعُ بِلَئِي هِيَ أَحْسَنُ ... إِلَى قَوْلِهِ: ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤ - ٣٥]، وقوله تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٣٤]، وقال: ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ ﴾ ... إلى قوله: ﴿ الظَّالِمِينَ ﴾ [الشورى: ٣٩-٤٠]، فأخبر أن التعدي في المكافأة ظلم، وأن أشرف العفو وأصل العدل أن^(٣) يكون إذا عصى الله عبد ألا تعصي الله فيه، ولا ترآده بكلام يخرجك إلى ذلك، بل تكظم غيظك، وتكف لسانك، وتستعمل حلمك، وتحاف إن أضعت ذلك إسقاط ربك، وإن آثرت الإقتياد^(٤) على العفو كنت كما قال الله: ﴿ فَمَنْ أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا أَعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٩٤] (٥)، اتقوه أن تجاوزوا من ذلك

(١) عن أيوب السجستاني: ((لا يبذل الرجل حتى يكون فيه خصلتان، العفة عما في أيدي الناس، والتجاوز عما يكون منهم)) مكارم الأخلاق ج ١/ص ٢٨/ح ٤٢.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في (أ) و(ب): بأن.

(٤) الكلمة غير واضحة في (أ) و(ب). وفي (ج): الإيثار.

(٥) في المخطوط: ﴿ ... واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾.

إلى ما ليس لكم في قول ولا فعل ولا نية ، ﴿ وَأَنْ تَعْفُوا أَقْرَبَ لِلتَّقْوَىٰ وَلَا تَنْسُوا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقد روى عن بعض الحكماء أن رجلاً سأله فقال: « ما الأعمال؟ فقال: التخلص بالحلم ، فإن الله حلیم عن الخاطين فمن حلم عن الخاطئين ، وافق الله في محبته » ^(١). ولما نزلت هذه الآية على النبي: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٩٩] ، قال النبي صلى الله عليه وآله: « يا جبريل ما هذا؟ قال: إن الله يأمرك أن تعطي من حرمك ، وتصل من قطعك ، وتعفو عمن ظلمك » ^(٢) ، ومعنى قوله: « تعطي من حرمك » ، يقول: إن عصي الله عاص في تضييع ما يجب من حقه ، أو منعك حقاً لك ، فلا تعارضه بمثله ، بل تصله بأن تؤدي إليه ما له قبلك من حقه ، وترعى له من ذلك ما قد أضاعه لذلك. فأما العفو فهو ما شرعناه أنفاً.

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « ليس الإحسان أن تحسن إلى من أحسن إليك ، فذاك مكافأة ، ولكن الإحسان أن تحسن إلى من أساء إليك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك » ^(٣) ، وقيل في صفة النبي صلى الله عليه وآله: « ما غضب لنفسه قط ، ولا انتصر لها ، ولا رأى حرمة لله

(١) لم أقف عليه.

(٢) عن سهل بن معاذ بن أنس ، عن أبيه ، عن رسول الله قال: ((أفضل الفضائل أن تصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ، وتصفح عمن شتمك)) .

أخرجه ابن حنبل في مسنده ج ٣/٤٣٨ ص ١٥٦٥٦ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/١٧٨ ص ٧٢٨٥ ، وابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/٢٣ ص ١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٧ ص ٢٧٠/٧٣٩ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/٢٤٩ ص ١٢٨٩ .

(٣) لم أقف عليه.

منتكهة إلا كان أبعد الناس من الإثم حتى ينتصر الله» ^(١) ، وكذلك يجب على المؤمن أن يقتدي في ذلك بنبيه صلى الله عليه ، فلا يدع الله حرمة منتكهة يمكنه في ذلك دفع بنفسه وماله إلا أمضاه ، غضبا لله ولدنيه ، واقتداء برسول الله وعترته ، وقد وصف الله نبيه عليه السلام فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ...﴾ [آل عمران: ١٥٩] الآية ، وإنما عني بالاستغفار ، أي: للمؤمنين خاصة ، فجمع له تعالى جميع مكارم الأخلاق وأمره بها ، وبالندبة إليها ، والدليل على أن الاستغفار للمؤمنين خاصة قول الله عز ذكره: ﴿وَأَخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٥] ، وقد أدب النبي عليه السلام أبا بكر عند ما تناوله رجل والنبي جالس قال أبو بكر: « فذهبت أكافيه وأرد عليه ، فقام النبي عليه السلام ، قال: فقلت: يا رسول الله كنت جالسا فلما قمتم أرد عليه قمتم!! فقال النبي عليه السلام: لما كان الملك يرد عليه وهو جالس جلست ، فلما قمتم ترد عليه قام الملك فقمتم » ^(٢) .

وقيل لقيس بن عاصم: بم نلت السؤدد؟ قال: بتركي الأذى وبذلي القرى ، ونصري للمولى .

وروي عن عمير بن حبيب وكان له صحبة ، أنه أوصى بنيه فقال: « إياكم ومجالسة السفهاء ، فإن مجالستهم داء ، مَنْ تَحَلَّمَ عَنِ السَّفِيهِ فَسَدَ حَلْمُهُ ^(٣) ، ومن أحب السفيه ندم على حبه ، ومن لا يقر لقليل ما يأتي به السفيه يقر

(١) لم أقف عليه .

(٢) لم أقف عليه .

(٣) في (أ) و (ب): تحلّمه .

بالكثير^(١) ، ومن يصير على ما يكره يدرك ما يجب ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر فليوطن نفسه على الصبر على الأذى ، وليثق بالثواب من الله ، فإنه من يثق بالثواب من الله لا يجد من الأذى^(٢) .
وقال رجل للأحنف بن قيس: « ما بلغ بك ما أرى؟ قال: تركي من أمرك ما عناك من أمري »^(٣) . وقال الأحنف: « تعلمت الحلم من عمومي تعلمنا »^(٤) .
ويروى عن صفوان بن الأهميم أنه قال له أبو جعفر: « لم سادكم الأحنف ولم يكن بأكثركم مالا ، ولا أجملكم وجها ، ولا أشرفكم بيتا؟! فقال له صفوان: إن شئت أخبرتك في ثلاث وإن شئت في ثنتين وإن شئت في واحدة. فقال له أبو جعفر: هاتهما في ثلاث وهاتهما في ثنتين وهاتهما في واحدة. فقال: أما الثلاث فإني لم أر هذه الأخلاق المذمومة في أحد أغمض منها فيه: البغي والحسد والكبر. قال: هاتهما في ثنتين. قال: كان موفقا ملقا ، يلقي بالخير ويرقى الشر. قال: هاتهما في واحدة. قال: ما رأيت أحدا أغلب لهواه منه ، وإنما نال من^(٥)

(١) العبارة قلقة ولعلها مصحفة أو ناقصة.

(٢) ورد عن عمير بن حبيب بلفظ: وكان قد بايع النبي صلى الله عليه وسلم وصي بنية قال لهم: ((أي بني إياكم ومخالطة السفهاء فإن مجالستهم داء ، وإنه من يحلم عن السفية يسر بحمله ، ومن يجه يندم ، ومن لا يقر بقليل ما يأتي به السفية يقر بالكثير ، وإذا أراد أحدكم أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، فليوطن نفسه قبل ذلك على الأذى ، وليوقن بالثواب من الله ، فإنه من يوقن بالثواب من الله لا يجد مس الأذى)) .

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٧/ص ٥١/ح ١٠٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٩٥/ح ١٩٩٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٢٣٤/ح ٢٥٥٩٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٣٧٠/ح .

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) في (ب): قال ما. مصحفة.

نال روضة الحلم بقهر غلبة الهوى ، فإذا ضعفت ^(١) دواعي الهوى ، وضعفت منازعته ذلعت ^(٢) النفس ولم يطعها إلى التغرر ^(٣) بهواها ، فحينئذ تعتق القلب من أسر الهوى وغلبة النفس ^(٤) .

وكذلك روي عن النبي صلى الله عليه في حديث أبي هريرة: « أنه مر يقوم يتعاطون حجرا ، فقال لأصحابه: من الشديد عندكم؟ قالوا: يا رسول الله الصراعة للرجال ، فقال لهم: ليس الشديد الذي يشغل الحجارة ولا الصرعة للرجال ، ولكن الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب ^(٥) » ، والأخبار في ذلك تكثر.

فمن وصل إلى روضة الحلم طابت له الحياة الدنيا ، وكان الناس منه في راحة وسرور ، ونفسه منه في تعب ومشقة ، ومجاهدة شديدة ، وذلك أنه يأخذ من نفسه لغيره ، ولا يأخذ لها بحقها من غيره ، إلى من الوجه الذي يقيم الحكم لله

(١) في المخطوطات: ضعف. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) في (أ): ذلقت.

(٣) في (ج): التعرر.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ٢٢٦٧/ح ٥٧٦٣ ، وفي الأدب المفرد ١/ص ٦٦/ح ١٥٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢٠١٤/ح ٢٦٠٩ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٩٤/ح ٧١٧ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٤٨/ح ٤٧٧٩ ، وابن خنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٣٦/ح ٧٢١٨ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٩٠٦/ح ١٦١٣ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٢٩/ح ٢٥٢٥ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ١٠٥/ح ١٠٢٢٦ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٤٤٧/ح ٥١٦ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٢١٤/ح ١٢١٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٢٣٥/ح ٢٠٨٧٤ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٢١٦/ح ٢٥٣٨٥ .

على من فعل ذلك به ، وعلى قدر ما أخرجه وأبانه ، فأما ما كان لنفسه وهبه متقربا به ، ثم عليه أن يزمها عن المزاح وكثرة الكلام ، وترك ما لا يعنيه ، فإذا فعل ذلك أورثه ذلك ^(١) روضة الحلم وطول الحزن فيما يعنيه ، وكذلك روي عن علي عليه السلام أنه قال: « من كثر ضحكك قلت هيبته ، ومن مزح استحق به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه » ^(٢).

وقد فسرنا روضة الحلم وهو أعلى درجات الحلم. وإذا وصل العبد إلى ذلك رضي الخلق كلهم عنه ، لأنه يأخذ لهم بحقهم من نفسه ، ولا يطالبهم بحق نفسه إلا من جهة قيامه بحكم الله عليهم ، على حد

(١) في المخطوطات: أورثه الله ذلك. ولعلها زيادة سهو.

(٢) ورد عن علي عليه السلام بلفظ: ((من نظر في عيب نفسه اشتغل عن عيب غيره ، ومن رضي برزق الله لم يحزن على ما فاتته ، ومن سل سيف البغي قتل به ، ومن كابد الأمور عطب ، ومن اقتحم اللحج غرق ، ومن دخل مداخل السوء أتهم. ومن كثر كلامه كثر خطوؤه ، ومن كثر خطوؤه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه ، ومن مات قلبه دخل النار ، ومن نظر في عيوب الناس فأنكرها ، ثم رضيها لنفسه ، فذلك الأحمق بعينه ، والقناعة مال لا ينفد ، ومن أكثر من ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير ، ومن علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه)) . نهج البلاغة ، قصار الحكم ٣٤٩.

وورد أيضا عن ابن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((من كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر كلامه كثر كذبه ، ومن كثر كذبه كثرت ذنوبه ، ومن كثرت ذنوبه كان النار أولى به)) .

وعن الأحنف بن قيس قال: قال لي عمر: ((يا أحنف من كثر ضحكك قلت هيبته ، ومن فرح استخف به ، ومن أكثر من شيء عرف به ، ومن كثر كلامه كثر سقطه ، ومن كثر سقطه قل حياؤه ، ومن قل حياؤه قل ورعه ، ومن قل ورعه مات قلبه)) . أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٢٣٧/ح ٣٧٤.

ما شرحنا ، فذلك كمال الإحسان إليهم عامة وإلى نفسه خاصة ، وقد طُبع الخلق على حب من أحسن إليهم ، وبغض من أساء إليهم ، كما قال السني صلي الله عليه وآله وسلم: « جملت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها »^(١) ، فإذا كان ذلك يجب للخلق لما يكون منهم ، فهو لله جل ثناؤه أوجب ، إذ كان هو المبتدئ للإحسان ، وهو الأمر بالإحسان ، فيه عرف الإحسان ، ولولا تعريفه فيه وفوائده وهدايته وكثرة خواطره لم يُعقل الإحسان. فهذا قول علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن حلم لم يفرط في أمره ، وعاش في الناس حميدا » ، نسأل الله البر الرحيم ، أن يمن علينا بسلامة الصدور ، والاجتناب لجميع الشرور.



(١) أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٣٥٠/ح ٥٩٩.

باب الجهاد

وهو أول الدعامة الرابعة من الإيمان.
فالجهاد على أربع شعب على: الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنآن الفاسقين.
فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ، ومن نهى عن المنكر أرغم أنف المنافق ، ومن صدق في المواطن قضى ما عليه من شئى الفاسقين ، و[من] غضب لله غضب الله له.

باب الجهاد

فالجهاد فرض على جميع المسلمين.
والجهاد على معينين:
معنى يجزي بعضهم عن بعض في مواضع الجهاد.
ومعنى لا يجزي بعضهم عن بعض وهو جهاد النفس الأمانة بالسوء.
فجهاد النفس أن يكون العبد يجاهد نفسه بمخالفة الهوى وهو فرض ، عليه أن يخالف هواه المخالف لطاعة ربه في كل ما أمر به ونهى عنه ، وذلك أن النفس طبعت على محبة المحبوب وكراهة المكروه ، وهي أعدى عدو للمؤمنين ، ومجاهدتها فرض على المؤمنين ، وهو مخالفة هواها في الطاعة والمعصية ، فأما مخالفة هواها في الطاعة والمعصية ، فإنها تكره الطاعة فإذا خولف هواها أجابت إلى الدخول في الطاعة ، ثم دعت التصنع بالطاعة ، لأن هوى النفس بالطاعة أن تمدح بها وتذكر بها ، ويثنى عليها من أجلها لما كان من غيرها ، فإذا خولف هواها بدفع التصنع ، وعرف القلب بما أفيد من فوائد العلم أن التصنع يحبط الأعمال ويطلها ، أخلص العمل لله بمخالفة الهوى ، فكان ذلك من مخالفة النفس في المعصية ، فإنه فرض على المؤمن أن يجاهد نفسه ألا يقبل ما

يلقي الشيطان من وسوسة المعصية وذلك أن النفس مائلة لغلبة الهوى عليها إلى حب المعصية ، ومائلة إلى ما يلقي من ذلك إليها الشيطان ، ففرض على المؤمنين فخالفوا عن ذلك هواهم ، ويكبحوها عن جماحها وطماحها ، وما يسوقها إلى المنهي عنه من فعلها ، وأن يذكروا مقام الله عليهم في ذلك ، وثوابه ونعمه عليهم ، فيراقبوه بالخشية له ، والحياء منه ، والإحلال لمقامه ، ويتذكروا ما أوعد على ذلك من انتقامه ، فيخالفوا الهوى مخافة الوقوف بين يديه ، والسؤال لهم عن الاستخفاف بأمره ، والجرأة عليه.

وإذا قام العبد بذلك على نفسه ، كان من أهل الثواب الذين وصفهم الله بقوله: ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ ۖ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤٠﴾ [النازعات: ٤٠-٤١] ، ولم يكن من الذين قال: ﴿ فَأَمَّا مَنْ طَغَىٰ ۝٣٩ وَءَاثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾

[النازعات: ٣٧-٣٩] ، وقد قال جل ثناؤه: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ﴾ [البقرة: ٢٦٥] ، التثيت هاهنا هو: مجاهدة النفس بإخلاص العمل ، وطلب الزلفة لديه دون من سواه من جميع خلقه ، وقال: ﴿ بَلِ الْإِنسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝١٤ وَلَوْ أَلْقَىٰ مَعَاذِيرَهُ ۝١٥﴾ [القيامة: ١٤-١٥] ، يقول: وهو الرقيب على نفسه مما يكون منه ، والشاهد

عليها غدا بما كان منها ، وهو قوله تعالى: ﴿ الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ ... ۖ﴾ [يس: ٦٥] الآية ، وقال تعالى: ﴿ فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ۝١٣٠﴾ ... إلى قوله: ﴿ فَكُ رَقَبَةً ۝١٣١﴾ [البلد: ١١-١٣] إلى آخرها.

وهو مجاهدة النفس عن هواها في طاعته ، واتباع محبته.

وقد ذكر ذلك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أخباره ، قال عليه السلام حين رجعوا من غزوهم: « رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر

، وهو مجاهدة النفس ومخالفة الهوى «^(١) ، وعن النبي عليه السلام أنه قال: « ليس عدوك الذي إن قتلته آجرك الله في قتله ، وإن قتلك أدخلك الجنة ، ولكن أعدى عدو لك هي نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك ، وأولادك الذين من صلبك »^(٢) ، فهؤلاء أعدى عدو لك ، وفي مصداق ذلك يقول الله سبحانه: ﴿ إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ ﴾ [يوسف: ٥٣] ، وقال تعالى: ﴿ إِنْ مِنْ أَرْوَاجِكُمْ وَأَوْلَدِكُمْ عَدُوٌّ لَكُمْ ... ﴾ [التغابن: ١٤] الآية.

وكيف لا يجب حذر النفس وهي تدعو^(٣) إلى ما في إتيانه خسران الدنيا والآخرة ، ولا أحد وإن بلغت عداوته ما بلغت يقدر أن يحمل على ما فيه خسران ذلك ، إن لم يكن له معين من هوى النفس ومساعدة من الهوى ، فهي على هذا أعدى الأعدا ، فليكن مقدار حذر الفهم عن الله على حسب عظيم جناحتها ، وعلى كبر تصرف معاصيها ، فيما تدعو إليه من عجبها ، وكثرتها وزيادتها وبذخها.

ومن أقوى الأعوان له على ذلك التفكير ، هل يعجب بمثله عاقل؟! وذلك أن الفهم عن الله عز وجل إذا علم أن جميع ما كان منه من برد إحسان إنما كان بمعونته عليه ، وهدايته إليه ، كان الحمد له في ذلك دون غيره واجبا.

(١) عن جابر قال: قدم على النبي صلى الله عليه وسلم قوم غزاة فقال: ((قدمتم خير مقدم ، قدمتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر مجاهدة العبد هواه)) . أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج. ١/ص ١١٧٧٩.

(٢) ورد بلفظ: ((ليس عدوك الذي إن قتلك أدخلك الله الجنة ، وإن قتلته كان لك نورا ، ولكن عدوك نفسك التي بين جنبيك ، وامرأتك التي تضاجعك على فراشك ، وولدك الذي من صلبك ، فهؤلاء أعدى عدو هو لك)) . أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج. ١/ص ١١٢٦٤.

(٣) في (أ) و (ب): ترحوا. مصحفة.

ثم إذا علم أنه قد سلف له ذنوب قدرهن بإغفاله ، ووجب بحكم الله الوعيد عليه بها ، وقد راجع عنها ولا عِلْمَ له هل ناصح في المراجعة أم لا؟ فإن كان ناصحا في المراجعة فلا عِلْمَ له هل ما أتى من العمل على جهة ما يتقبل مثله أم لا؟ وإن كان قد أتى به على حد ما أمر فلا علم له أيضا لعله أن يأتي بما يحبطه. فإذا كان العالم بالله وبأحكامه على حد ما وصفنا ما باله بالعجب بما كان منه من البر ، وهو لا يحيط في أي من المنازل مما وصفنا هو ، وهل رأى حكيما يعجب من أمر من أمور الدنيا يريد به ابتياع شيء لا يعلم أنه لا يقبل مثله في ثمن ما يتبايعه أو لا؟ دون أن يقف على علم ذلك ويتحققه؟! فمن أنزل نفسه بالمنازل التي شرحنا ، وفهم أمره على حد ما وصفنا ، لم يعجب بشيء مما يكون من طاعته ، ومتى خلص من العجب بها خلص من الرياء بها ، لأن من لم يكن منه عند نفسه من يعجب أهل الفهم عن الله بمثله لم يراءهم به ، لأن حكيما لو رأى أمرا من الأمور يحضره حكماء هو يعلم أنهم لا يعجبون بمثله ، ويعلم أيضا أنهم يحكمون على من أعجب به من النقص والعيب ، لم يكن شيء أكره عنده من اطلاعهم على ذلك من أمره ، وإذا نجا العبد من العجب والرياء ، نجا من الكبر ، لأن الكبر إنما هو نتاج ورثته من العجب والرياء ، وذلك أن العبد إذا توهم أنه قد أتى أمرا يعجب بمثله ، أنه قد بان بفضيلة على غيره ، فيدخله التكبر على من توهم عليه أن قد علاه وباينه في منزلته ، فإذا كبح نفسه ووقفها ، وفهم ما كان منها وحاسبها ، لم يجد للعجب والكبر والرياء مشاغا ، ولا وجها بوجه من الوجوه ، ومع ذلك إنه لو علم أن عمله مقبول ، وأنه قد أتى جدود ما أوجب عليه وبعاقة ما يختم له ، وعلم بنجاته ، ثم خطر من وجه النظر لعلم واستيقن أنه لا مساغ ولا وجه للعجب والرياء والتكبر من أحد من الحكماء. وذلك أنه لو كان للعجب وجه لما كان الإيمان يعجب لما أوصله إلى ذلك وتفضل به عليه ، مما لا يصل نفع ذلك إليه ، وإن كان أعلى المنازل في ذلك ترك المدح والتكبر

والعجب به ، وأما أن يكون إذا عمل عملاً إنما يرجع بالنفع على نفسه دون غيره ، والمعجب به إلا في أقل المنازل أهل السخف ، فكيف تكون منازل الحكماء؟!

فمن عرف نفسه وعرف ما لله عليه من تواتر نعمه ، ودفع السوء عنه ، وعرف قدر عظمة الله ، وعرف قدر نفسه ، وعرف ضعفها ، وعرف ما يكون منها وإلى ما تدعوه ، لم يداخله العجب ولا الكبر ولا الرياء بشيء يكون منها ، وإن كبر وبلغ غايته أبداً ، ونجا من الكبر فيه والمرايات به ، وحذر نفسه في ذلك حَذَرٌ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّهَا تَبْخُلُ عَلَيْهِ بِالْعَمَلِ فِي نَجَاتِهَا ، وتميل به إلى كل ما يضرها ^(١) ويهلكها ويفضحها في عاقبتها على رءوس الأشهاد.

فمن أقام نفسه هذا المقام ، أمدّه الله بنصرته ، وأيده بمعونته وقوته ، وعصمته وبتأييده. وقد قال النبي صلى الله عليه لأصحابه: « ما تقولون في نفس إن تبعها صاحبها فذل لها ذمّته غدا بين يدي الله ، وإن أتبعها وأنصبها مدحّته غدا بين يدي الله؟! » ثم قال: تلك أنفسكم التي بين أجنابكم ^(٢).

قال وهب بن منبه: « أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود عاد نفسك في محبتي ، ودنّني بذلك ، واستعن بي على ذلك ، فنعن العون ونعم المستعان » ^(٣). ويروى عن علي بن أبي طالب عليه السلام عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « أخوف ما أخاف على أمتي اتباع الهوى وطول الأمل ، فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق ، وأما طول الأمل فإنه ينسي الآخرة » ^(٤) ، فمن اتبع هواه لم يجاهد نفسه ، وفي ذلك صد له عن الحق ، كما قال الله تعالى لداود عليه

(١) في المخطوطتين: ما سرها. لعلها مصحفة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) سبق تخريجه.

السلام: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ...﴾ [ص:٢٦] الآية ، فوكد الوعيد على المؤمنين في اتباع الهوى في الحكم ، وكذلك وجوبه في سائر النهي عنه.

وروي عن عبد الله بن مسعود أنه قال: « إنكم في زمان كثير علماؤه ، قليل خطباؤه ، الصلاة فيه طويلة ، والخطبة فيه قصيرة ، الهوى فيه تابع للعمل ، وخير العمل مجاهدة النفس في الإخلاص بالعمل ، ومخالفة الهوى في ذلك بالميل إلى ترك التصنع ، وسيأتي عليكم زمان كثير خطباؤه ، قليل علماؤه ، الخطبة فيه طويلة ، والصلاة فيه قصيرة ، والعمل فيه تابع للهوى »^(١) ، يعني: عمل الطاعة باتباع الهوى ، وترك المجاهدة بالإخلاص والنصفة للعمل.

وقال أبو ثعلبة الجشنبي: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل أمرئ بنفسه ورأيه ، فعليك بخاصة نفسك ، ودع عنك العوام »^(٢). ومعنى قوله عليه السلام: « شح

(١) ورد عن عبد الله بلفظ: ((إنكم في زمان الصلاة فيه طويلة ، والخطبة فيه قصيرة ، وعلماؤه كثير وخطباؤه قليل ، وسيأتي عليكم زمان الصلاة فيه قصيرة ، والخطبة فيه طويلة ، خطباؤه كثير وعلماؤه قليل ، يؤرخون الصلاة صلاة العشاء إلى شرق الموتى ، فمن أدرك ذلك منكم فليصل الصلاة لوقتها ، وليجعلها معهم تطوعا ، إنكم في زمان يغط الرجل فيه علي كثرة ماله وكثرة عياله ، وسيأتي عليكم زمان يغط الرجل فيه على قلة عياله وخفة حاده ، ما أدع بعدي في أهلي أحب إلي موتا منهم ، ولا أهل بيت من الجعلان ، وإني لأحبهم كما يحبون أهليكم)) . أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج ٩/ص ١٠٨/ح ٨٥٦٧.

(٢) عن أبي أمية الشعباني قال: أتيت أبا ثعلبة الجشنبي فقلت له: كيف تصنع بهذه الآية ، قال: آية آية. قلت: قوله: ﴿يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم﴾ ، قال: أما والله لقد سألت عنها خبيرا ، سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ((بل اتمروا بالمعروف ، وتناهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحا مطاعا ، وهوى متبعا ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأي برأيه ، فعليك بخاصة نفسك ودع العوام ، فإن من ورائكم أياما الصر

مطاع» له ظاهر وباطن ، فظاھرہ شح الإنسان بماله على نفسه ، وهو على يقين من فراقه ، وباطنه شحه في الحقيقة بمال غيره على نفسه وقد خَوَّلَه ، وذلك أن ماله عارية لله في يده ، وإن كان في حكمه قد ملكه بتحويله ، وهذا فيما يتعارفه الناس فيما بينهم النذالة ، لأن فيما يتعارف أن من بخل على محتاج بماله فمقصر عن الفضيلة في نفسه ، ومن بخل عليه بمال غيره فذلك غاية النقص والنذالة عندهم ، كيف به عندهم إذا كان حكمه في نفسه بمال غيره؟! والباطن من الشح المطاع الذي له أيضا باطن وظاهر ، شح العبد بنفسه على ربه وهو مالكة ، وفيما يتعارفه الناس بينهم أن من شح على رب مالك بملكه فقد بلغ غاية النقص والشح ، ولا سيما وللمالك عليه من الأيادي على المخوَّل له ماله ، لا ما يسوغ له معه البخل عليه بما كان لو كان له ، فكيف بما هو له دونه؟!

وباطن الشح أن العبد لم يشح في الحقيقة على ربه ، لأنه غير محتاج إليه ، ولا منتفع بطاعته ، وإنما أمره بطاعته لينفع نفسه ، فكأنه في حقيقة شحة إنما شح

فيه مثل القبض على الجمر ، للعامل فيه مثل أجر خمسين رجلا ، يعملون مثل عملكم)). وفي لفظ: ((أجر خمسين منا أو منهم ، قال: بل أجر خمسين منكم)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٥٤٠/ح ٣٠٤ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٤٦٨/ح ٢١٦٨ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٢٧/ح ٤٠٠٥ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ١٢٢/ح ٤٣٣٨ ، وابن حبان في مسنده ج ١/ص ٢/ح ١ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣٥٨/ح ٧٩١٢ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ٤/ح ٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٢/ص ٢٢١/ح ٥٨٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٣٣٩/ح ١١١٥٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٤٢٩/ح ٧٥٣ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ج ١/ص ٩٣/ح ٦٢ ، ج ١/ص ٩٤/ح ٦٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٩١/ح ١٩٩٧٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ١١٨/ح ١٢٨ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٣٠/ح ١ ، والبخاري في خلق أفعال العباد ج ١/ص ٦٤/ح ٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٥٠٤/ح ٣٧٥٨٣.

بنفسه عن نفسه ، وبخل بنفسه على نفسه ، وغير ^(١) نفسه في نفسه ، فذلك على الخسران والأسف لمن فهم عن ربه ، وعلم لماذا خلقه؟ ولأي علة تعبده؟ وعلى أي سبيل أمره؟ ولأي نعمة عرضة؟ وذلك ما قال جل ثناؤه: ﴿وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦] ، فعلى حد ما شرحنا تفسير قوله: « وهوى متبع وإعجاب كل ذا رأى برأيه » ، في آفات العجب والرياء ، وقد قدمنا ذلك بما فيه كفاية إن شاء الله.

ثم ليعلم الفهم عن الله أنه قد خلف في زمان الذي عمل البر فيه قد غلبه اتباع الهوى ، فليس يرى رجلا يعمل بشيء من الطاعة إلا رأته متبعا لهواه ، متطاولا بها على غيره ، فمتى خولف هواه فيه رأته قد خرج إلى العداوة والبغضاء!! غضبا لهواه متغضبا ^(٢) له ، لا يرجع إلى حلم في دين ، ولا فيه لمروءة وذلك معنى قول ابن مسعود: « العمل فيه تابع للهوى ». ويروى عن عامر بن عبد الله العنبري أنه كان يقول لنفسه إذا قام بها من الليل فملأت في القيام: « قومي يا مأوى كل سوء ، فوالله لا زدتك رحف البعير » ^(٣) ، والأخبار في ذلك تكثر.

فمن من الله عليه بمحاسبة نفسه ، وقام لله عليها بقسطه ، أعطاه الله القهر لها ، وأعلاه بالظفر على هواها ، فمده بالعلم المؤيد له في جهادها وجهاد عدوها ، وعلم أنها له أعدى من عدوها ، لأن عدوها لا يقدر على اضطهادها ، فإنما بليته منها في اتباعها لما زين لها عدوها ، فأقام نفسه مقام المحارب لها ، وتفرغ من كل شيء إلا من مجاهدتها ، شدة حذر منها ، ولعلمه وشدة مطالبته لانتهاك حريمها ، والوقوع في غيها ، فإذا كان العبد كذلك ، كان عبدا كيسا

(١) الكلمة مهملة في المخطوطات.

(٢) الكلمة مهملة فلعلها كما أثبت ، أو: متعصبا.

(٣) لم أقف عليه.

بصيرا محاسبا. كما روي عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه أنه قال: «سأله رجل فقال: يا رسول الله أي المؤمنين أكيس؟ فقال صلى الله عليه: أكثرهم للموت ذكرا، وأشدّهم له استعدادا، أولئك الأكياس»^(١)، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه قال: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وزنوها قبل أن توزنوا، وتأهبوا للعرض الأكبر على الملك الأكبر»^(٢).

ومن لم يكن كذلك غلبه هواه بتركه الإعتصام. يريد: الانقطاع إليه، فلا يلوم إلا نفسه، فإنه لم يقع في عمائه وتكتمه وصممه إلا من قبلها. كما روى أبو الدرداء عن النبي صلى الله عليه أنه قال: «حبك للشيء يعمي ويصم»^(٣). وقال عطاء السلمي: بلغنا أن الهوى والشهوة يغلبان العقل والعلم والبيان.



(١) ورد عن ابن عمر أنه قال: أتيت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فجاء رجل من الأنصار فقال: يا نبي الله من أكيس الناس وأحزم الناس؟ قال: ((أكثرهم ذكرا للموت، وأشدّهم استعدادا للموت قبل نزول الموت، أولئك هم الأكياس، ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة)).
أخرجه ابن أبي الدنيا في مكارم الأخلاق ١/ص ١٨/ح ٣، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ٤١٧/ح ١٣٥٣٦، وفي معجمه الصغير ج ٢/ص ١٩٠/ح ١٠٠٨، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٩٩٨/ح ١١١٦، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٦/ص ٣٠٨/ح ٠٠.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) كثر العمال ٠/٠ (٤٤١٠٤).

باب الفرق بين العقل والهوى

فالعقل على معنيين:

عقل مخلوق وهو عقل الحجة الذي احتج الله به على خلقه ، يكون مع العبد عندما يعرف النفع من الضر ، والخير من الشر ، وغير ذلك ، فهذا هو العقل الذي يحتاج الله به على عبادته ، عند تركيبه وقت بلوغه وإيجاب التكليف به ، وقد جعل الله هذا العقل متصرفا في الوجوه ، وممكن به صاحبه درك ما كُلف ، والحذر مما خُوف ، وقد فهم بعقله المضار والمنافع ، وحجب إليه اجترار منافعها ، والهرب من مضارها ، وجعل نافعها لا يوصل إليه إلا بتحمل مؤونه ومضارها ^(١) ، لا تنصرف عليه إلا بتكلف مشقة ، وجعل مع ذلك نافعها وإن كان مرغوبا فيه وإن كان لا ثبات له بعد حله له ^(٢) ، ثم نبه على دار غير داره التي خلق فيها ودعا إليها ورغب فيها ، وزجر عن التخلف عنها بدار مؤلمة مضرة لمن حلها ، وضرب له من المثل على قدر ما شاهده ، وقدر الأمر عنده على قدر ما طُبِع عليه ، لأنه لا يصل إلا من رغب فيه ، إلا بالحمل على نفسه ، ولا ينجو مما حذره إلا بالحمل على نفسه ، ولا ينجو من كراهة ما طُبِع على كراهته إلا بالحمل على بدنه ، وإنما فعل به ذلك كله ليسهل به عليه سبيل ما دعا إليه ، وما أجرى بخلق له ، ولتكن مسارعة إلى ذلك ، ومنافسته فيه ، على تفاضله في محبوه ومكروهه ، لأنه قد طبع اعتقاد البعث على قدر ما يعلم من منتفع به والمهروب منه ، فيكون ذلك له أساسا يعمل عليه ، فيما رغب فيه ورهب منه ، فمن فهم عن ربه ، وعقل عن خالقه ، وتيقن حقيقة أمره ، سهل عليه مضارّة نفسه في طاعة ربه ، واستغل

(١) الوضر: الدرن.

(٢) العبارة غير واضحة المعنى.

كل غاية عمل فيها لخالفه ، وأسف على كل خطرة ولحمة فاتته من أجله ، وفوّت العمل فيها لما خلق له ، فخفت عليه المكابدة ، وسكنت عنه المجاهدة ، وصار إلى درجة أهل اليقين والطمأنينة ، بما قد أيده الله به من نور حكمته ، وحرسه بما مكّنه ، وصرف عنه كيد عدوه ، وجعل له واعظا من نفسه ، يراقب ^(١) به سر نجواه حال ذكره ، وخطرات عدوه ، فيكون عند ذلك كما جاء الخبر عن ابن عمر أنه قال: « لن يحب العبد حقيقة التقوى حتى يكون له واعظ من نفسه » ^(٢) ، والواعظ كما قال النبي صلى الله عليه في حديث وابصة بن معبد ، والنواس بن سميان ، وثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وغيرهم ، قالوا كلهم: « عن النبي صلى الله عليه أنه قال لوابصة حين سأله عن البر والإثم؟ فقال: يا وابصة استد لقلبك ، يا وابصة استعد لنفسك ، البر ما سكن إليه القلب واطمأن إليه النفس ، والإثم ما حاك في صدرك فدعه وإن افتاك فيه المفتون » ^(٣). فهذا دليل الواعظ في القلب ، وهو الذي يعرف

(١) في المخطوط: يواقب. لعل الصواب ما أثبت.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) عن وابصة بن معبد الأسدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لوابصة أت تسأل عن البر والإثم قال قلت نعم قال فجمع أصابعه فضرب بها صدره وقال استفت نفسك استفت قلبك يا وابصة ثلاثا البر ما اطمأن إليه النفس واطمأن إليه القلب والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك

أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤/ص ١٩٨٠/ح ٢٥٥٣ ، والبحاري في الأدب المفرد ١/ص ١١١/ح ٢٩٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ١٢٤/ح ٣٩٧ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٥٩٧/ح ٢٣٨٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ١٨٢/ح ١٧٦٦٨ ، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ١٧/ح ٢١٧١ ، ٢/ص ١٧/ح ٢١٧٢ ، وابن أبي الدنيا في التواضع والخمول ١/ص ٢٢٥/ح ١٧٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٨/ص ١١٧/ح ٧٥٣٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ٢/ص ٩٦/ح ٩٨٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٦٦/ح ٥٣ ، والبيهقي في

به البر من الإثم ، فليل ^(١) في القلب البر ويدع الإثم وما تشابه منه ، كما روي عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: « لا يجد العبد طعم الإيمان حتى يدع الإثم وما تشابه منه » ^(٢) ، ومعنى « يدع الإثم » أي: يدع الحرام ، « وما تشابه » يعني: المتشابه وبعض ما أطلق له ليجعله حاجزا بينه وبين الحرام ، فإذا نزل العبد بهذه المترلة كان ممن له واعظ من نفسه.

وكذا روي عن النعمان بن بشير ، عن النبي عليه السلام أنه قال: « حلال بين ، وحرام بين ، وشبهات بين ذلك ، فمن ترك الشبهات استبرأ لعرضه ودينه ، وكان لما سواه من الحرام أترك ، ومن يواقع ^(٣) الشبهات يوشك أن يواقع الحرام ، كالمرتعي حول الحمى أوشك أن يواقع الحمى ، ألا وإن لكل ملك حما ، ألا وحما الله في الأرض المحارم » ^(٤). فأهل الوعظ للأنفس هم الذين

سننه الكبرى ج ١٠/ص ١٩٢/ح ٢٠٥٧٤ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٢١٢/ح ٢٥٣٣٥ ،

والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٢٠/ح ٢٥٣٣٣.

(١) الكلمة مهمة وغير واضحة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المخطوطتين: موافقة. مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

(٤) عن النعمان بن بشير قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: وأهوى النعمان بإصبعيه إلى أذنيه ((إن الحلال بين ، وإن الحرام بين ، وبينهما مشبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام ، كالراعي يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه ، ألا وإن لكل ملك حمى ، ألا وإن حمى الله محارمه ، ألا وإن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهي القلب)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ٢٩/ح ٥٢ ، ومسلم في صحيحه ج ٣/ص ١٢٢٠/ح ١٥٩٩ ،

والنسائي في سننه ج ٧/ص ٢٤٣/ح ٤٤٥٣ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٩٨/ح ٧٢١ ،

والترمذي في سننه ج ٣/ص ٥١٢/ح ١٢٠٥ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣١٩/ح ٣٩٨٤ ،

وأبو داود في سننه ج ٣/ص ٢٤٣/ح ٣٣٢٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٢٦٧/ح ١٨٣٧٣ ،

يدعون الشبهات ، كما روي عن أيوب السجستاني أنهم تذكروا الورع عن ابن سيرين فقالوا: « أشد شيء علمنا تخلص الحلال من الحرام ، فجاء حسان بن أبي سيار فقال: فيما أنتم؟ فأخبروه ، فقال: لكني ليس شيء أهون علي من ذلك ، إذا حاك في صدري شيء تركته » ^(١). فكان هذا ترك الشبهات ، وهو دليل الواعظ لنفسه ، والمراقب لله في معاملته ، والواهب له نفسه ، والبائع دنيا بآخرته.

والوجه الثاني من الجهاد: جهاد العدو من أهل الحرب ، والبيعة على المسلمين ، من المتبرين لأموالهم وأحكامهم ، فهذا فرض عليهم جميعا ، إلا أنه قام به بعضهم أجزأ عن بعض ، إذا كفى ذلك بعضهم بعضا في نفورهم ، وكان بأذن إمامهم في رباطهم وحصونهم ، وسدا إذا أطرافهم فإذا استنفروهم ففرض أن يخرجوا إليهم ، ويذلوا أموالهم وأنفسهم ليدبوا بذلك عن حريم المسلمين ، كما قال الله عز وجل: ﴿ وَإِنْ أَسْتَنْصَرُكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمْ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ﴾ [الأنفال: ٧٢] ، وقال الله جل ثناؤه: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ ﴾

والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٠٧/ح ٧٨٨ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٤٠٨/ح ٩١٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ٣٣٣/ح ١٠٨٢٤ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢٣٩/ح ٥٢١٩ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٤٢/ح ٣٢ ، وفي مسند الشاميين ج ١/ص ٢٩٣/ح ٥١١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ١٢٨/ح ١٠٢٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٢٦٤/ح ١٠١٨٠ ،

وأبو يعلى في مسنده ج ٣/ص ٢١٥/ح ١٦٥٣ ، وابن الجارود في المنتقى ج ١/ص ١٤٤/ح ٥٥٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٤/ص ٤٤٨/ح ٢٢٠٠٣ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣١٩/ح ٢٥٣١ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٢٠٤/ح ١٧٣٥ .

(١) لم أقف عليه .

يُقْتَلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ
وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِنِعْمِ اللَّهِ الَّذِي
بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ [التوبة: ١١١] ، ثم بين من يستحق
هذا الفوز والثواب العظيم وبما وصفهم به ، ليعمل كل على بينة من ربه ،
ولفلا يظن من لا علم له أن كل مقاتل يستحق ذلك ، فقال عز وجل: ﴿
الَّذِينَ بَوَّأُوا الْعُرُودَ...﴾ [التوبة: ١١٢] الآية ، فأخبر أن هؤلاء هم المؤمنون
المستحقون لكامل ما وصفهم به للموعود من ثوابه ، والجزيل من كرامته.
وقال عز وجل: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهُ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا
شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١٦]
الآية.

وقال جابر بن عبد الله ، وعبادة بن الصامت: « بايعنا رسول الله صلى الله
عليه على ألا نفر » ^(١) ، قال جابر بن عبد الله ، وسلمة بن الأكوع ،
وغيرهما: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه على السمع والطاعة في المنشط
والمكسل ، وعلى الفقه في العسر واليسر » ^(٢) . وقد ذم الله عز وجل أقواما

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن عبادة بن الصامت بلفظ: ((بايعنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على السمع والطاعة
في المنشط والمكسر ، وأن لا ننازع الأمر أهله ، وأن نقوم أو نقول بالحق حيثما كنا ، لا تخاف في
الله لومه لائم)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦/ص ٢٦٣٣/ح ٦٧٧٤ ، ومسلم في صحيحه
ج ٣/ص ١٤٦٧/ح ١٨٣٦ ، والنسائي في سننه ج ٧/ص ١٣٨/ح ٤١٤٩ ، وابن حبان في صحيحه
ج ١٠/ص ٤١٤/ح ٤٥٤٧ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٩٥٧/ح ٢٨٦٦ ، وابن حنبل في مسنده
ج ٢/ص ٣٨١/ح ٨٩٤٠ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٤٤٦/ح ٩٦٠ ، والحميدي في مسنده

هموا بالتخلف وأنزل الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ أَنْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَنَا قُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرْضَيْتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَّعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ... ﴿[التوبة: ٣٨ - ٣٩] الآية.

وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه: «الجهاد ماض إلى يوم القيامة ، وآخر من يقاتل أمي الدجال» (١) ، والجهاد الذي هو جهاد العدو فرض على المسلمين ، على حد ما وصفنا. والجهاد في مجاهدة النفس في تقوى الله ، والإخلاص له بالأعمال والتقرب إليه بها ، وطلب الزلفة لديه ، وخلاصه في تصفية (٢) عمله حتى يكون لله خالصا ، أن يحمد الله على طاعته ، ويُسر بها لا من جهة العجب بها ، ولكن من جهة ما يؤمل عند الله بها ، ولا يستر بمدح

ج ١/ص ١٩٢/ح ٣٨٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤٢١/ح ٧٧٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ١٤٢/ح ٢٢٥ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٦٣٥/ح ٦٠١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٨/ص ١٤٥/ح ١٦٣٢٨ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٢٦١/ح ١٧٣٣ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٤٦٤/ح ٣٧٢٥٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٩٢/ح ٢٧٧.

(١) ورد عن أنس بن مالك بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((ثلاثة من أصل الإيمان الكف عمن قال لا إله إلا الله ، ولا تكفره بذنب ، ولا تخرجه من الإسلام بعمل ، والجهاد ماض منذ بعثني الله إلى أن يقاتل آخر أمي الدجال ، لا يطله جور جائر ، ولا عدل عادل ، والإيمان بالأقدار)).

أخرج عنه أبي داود في سننه ٣/ص ١٨/ح ٢٥٣٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ٢٧٢/ح ١٣٠٨٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٩/ص ١٥٦/ح ١٨٢٦١ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٧/ص ٢٨٧/ح ٤٣١١.

(٢) في المخطوطتين: تصفيقه. لعلها مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

الناس له عليها ، ولا يخطر بباله ذلك إلا من جهة طاعتهم لله لمدحهم بها ، إذ ^(١) كان الله قد أوجب عليهم أن يمدحوه ويزكوه بها ، ولا بسوء ذمهم له بها ، ولا بسوء ظنهم به فيها ، إلا من جهة معصيتهم الله فيه ، إذ كان الله قد زجرهم عنه ، فيكون حينئذ إنما سروره بطاعة الله في كل أحواله ، وغضبه الله في كل أحواله ، ولا يكون لنفسه في ذلك شيء ، إذ كان الذي يجب عليه مقيما لسوء ما يعلم منها. وكذلك إذا كان في معصيته يجب عليه البغض لنفسه فيها ، والمحبة لكل من أبغضه من أجلها ، والبغضاء لكل من أحبه فيها ، والانتقلاع عنها ، والسخط على كل من لا يزجره عنها ، وينبئه على قبيح ما كان منه في تقحمها ، بعيدا كان أو قريبا.

فإذا كان العبد كذلك كان لله في كل أمره خالسا ، إذ كان الله قد أوجب عليه أن يكون في كل الأمور له مؤثرا ، ولطاعته واتباع محبته راضيا ما رضى به ، وساخطا لما سخطه ، وأن لا تأخذه فيه لومة لائم في طاعته ومعصيته ، وعلى جميع ما كان من أحواله. فإذا استعمل العبد ذلك وقام لله به ، خلص له عمله بتوفيق الله وعونه ، وهذا هو أعلا الجهادين وأشرفهما ، والذي لا يقبل الله عملا مع تضييعه ، ولا يوصل إلى مرضاته إلا برعايته وحفظه ، والاستقامة على ذلك حتى يأتيه اليقين.

والجهاد الأصغر هو الذي قاله أمير المؤمنين عليه السلام: «الجهاد على أربع شعب: على الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، والصدق في المواطن ، وشنان الفاسقين». وسنذكر ذلك إن شاء الله ولا قوة إلا بالله ، وإياه نسأل العصمة والتوفيق ، والبلاغ إلى أفضل طاعته ومحبته ، بمنه وقدرته وفضله ، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(١) في المخطوطتين: إذا. ولعل الصواب ما أثبت.

باب الأمر بالمعروف

وهو أول شعب الجهاد. والأمر بالمعروف حب العبد لكل طاعة وبر وأمر بذلك ، وتعليمه لكل من علمه من المريدين ، أو سأل عنه من جميع الخلق كلهم أجمعين ، على النصح لله بذلك في عبادته ، وإصلاح بلاده ، والإنارة لحججه ، والذب عن دينه ، والعبارة عن كتابه وسنة نبيه ، والنصح للرسول عليه السلام في أمته ، ولأئمة الهدى بعده من ذريته ، ولجماعة المسلمين من إخوانه ، لأن الأمر بالمعروف فرض على كل مسلم بقسطه ، وحظه من القوة والضعف ، ومبلغ العلم في الكثرة والقلة ، ومخرجه من الجهاد ، وهو فرض على كل مسلم. ومخرج الجهاد من القيام لله بأمره في كل موطن ، ومخرج القيام لله بأمره في كل موطن. من النصح لله في كل حال من الأحوال ، المنشط والمكسل.

فإذا وصل العبد إلى درجة النصح لله فقد بلغ أعلى درجات المطيعين له ، وهي درجة الأنبياء والصديقين من الأئمة من بعد ، وذلك فرض على العبد أن ينصح لله في خلقه وعباده وبلاده ، فإذا بلغ العبد درجة المناصحة فقد جعل إماما يقتدى بهدايته ، ونورا يضيء في كل ظلام ، وشفاء من كل سقام ، وجلا لكل حيرة ، ومجليا عن كل شبهة ، ومفرقا في كل معضلة ، وكهفا في كل مُلْمة ، وعمادا في كل مشكلة ، وفارقا عن كل مبهمة ، فهذه صفة أهل المناصحة لله ، الذين جعلهم أمناء في أرضه ، وسفراء إلى خلقه ، يعبرون لهم ما أظلم عليهم من نور حكمته ، ويكشفون عن حجب خفيات سره ، وما استجن به من البرهان في خلقه ، ويبيّنه في سماواته وأرضه ، وبره وبحره ، وما يرى وذرا من عجائب خلقه ، وتقديره وحكمته ، ويستنبطون على ذلك المحكم من كتابهن والمتجلي من واضح سنة رسوله صلى الله عليه وعلى أهل بيته ، والمبين البارز من أدلته ، فيهم أنقذ الله أهل العماية من عمايته ، وابناش أهل الجراءة من سكرتهم ، ونهّوهم في بدعهم ، فهم ورثة الأنبياء ، وزهرة

الحكماء ، ومستنبطوا العذب من الماء ، وحياة العباد ، وإنارة البلاد ، والأمناء على الدين ، والقوام بأمور المسلمين ، وهم كما روى وهب بن منبه أنه قال: « أوحى الله إلى داود عليه السلام: يا داود إنك إن استنقذت سكرانا من سكرته ، كتبك عندي جهيدا »^(١) ، فهؤلاء جهادة الدين ، والنصحاء لله في أنفسهم وفي غيرهم ، صابرين محتسبين على ما أصابهم من الأذى والمكروه في جنب الله ، كما أخبر الله عنهم وأخبر النبي عليه السلام بصفتهم وحالهم ، فقال جل ثناؤه: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ... ﴾ [آل عمران: ١٤٦] الآية. والربانيون: هم أصحاب الرسل عليهم السلام ، فكانوا أشد ما كانوا الله طاعة ، ووجلا وخوفا ، واستغفاراً وإنابة وحذراً ، ووجلا من سالف أعمالهم ، وما تقدم من دين أفعالهم ، وقال جل ثناؤه في صفة لقمان: ﴿ يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَنْتَ عَنِ الْمُنْكَرِ... ﴾ [لقمان: ١٧] الآية ، ثم أدبه بالتقوى فقال: ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾^(٢) وَأَقْصِدْ فِي

مَشْيِكَ... ﴾ [لقمان: ١٨ - ١٩] الآية ، فنبه أن الفاعل لما نهاه عنه يقوم في جهله وقبح ما يكون منه مقام الحمير فيما يكون منها ، فهكذا يكون حقيقة الأمر بالمعروف على الحقيقة ، إنهم أهل خشية ومنافيه^(٣) ، وحياء وتواضع وطاعة في السر والعلانية ، وصبروا على ما نالهم ، وأنهم ممن لا تأخذه في الله لومة لائم.

وقال تميم الداري ، وأبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال: « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولرسوله

(١) لم أقف عليه.

(٢) الكلمة مهملة وغير واضحة.

ولكتابيه ولأئمة المسلمين ولعامتهم» ^(١) ، فلم يبق أحد إلا وقد وجب له النصح ، لأن ذلك كله من النصح لله. وقال جابر بن عبد الله: «بايعنا رسول الله صلى الله عليه وعلى السمع والطاعة ، ولم يبايعنا حتى اشترط علينا النصح لكل مسلم» ^(٢) ، فهذه درجة المناصحة لله في خلقه التي افترضها عليهم ، والأمر بالمعروف فرض على كل مسلم ، أن يُعلم الخير كل من سألَه وقصد

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ج ١/ص ٧٥/ح ٥٥ ، والنسائي في سننه ج ٧/ص ١٥٦/ح ٤١٩٧ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٠/ص ٤٣٥/ح ٤٥٧٤ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٣٢٥/ح ١٩٢٦ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٨٦/ح ٤٩٤٤ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٣٥١/ح ٣٢٨١ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٣٧٠/ح ٨٣٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢/ص ٥٢/ح ١٢٦٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤٣٢/ح ٧٨٢٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ٢/ص ١٣١/ح ٩٠٧ ، وفي مسند الشاميين ج ١/ص ٧٥/ح ٩٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٤٥/ح ١٧ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٨/ص ١٦٣/ح ١٦٤٣٤ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٤/ص ٢٦١/ح ٢٣٧٢ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٣٩٢/ح ٢٦٨١ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٤٠٢/ح ٢٧٥٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٤٢/ح ١١٨٤ .

(٢) عن جرير بن عبد الله قال: ((بايعت النبي صلى الله عليه وسلم على النصح لكل مسلم)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٦/ص ٢٦٣٤/ح ٦٧٧٦ ، مسلم في صحيحه ج ١/ص ٧٥/ح ٥٦ ، والنسائي في سننه ج ٧/ص ١٤٠/ح ٤١٥٧ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٠/ص ٤١٢/ح ٤٥٤٦ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ١٥٠/ح ١٥٩٣ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٩٥٨/ح ٢٨٦٨ ، وأبو داود في سننه ج ٣/ص ١٣٣/ح ٢٩٤٠ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٩/ح ٤٥٦٥ ، ومالك في الموطأ ج ٢/ص ٩٨٢/ح ١٧٧٤ ، والحاكم في مستدركه ج ٣/ص ٧١٩/ح ٦٦٠٢ ، والطبائسي في مسنده ج ١/ص ٢٥٦/ح ١٨٨٠ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٢٨٥/ح ٦٤٠ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢/ص ٢٩٩/ح ٢٢٥٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤٢٣/ح ٧٧٧٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٢٧١/ح ١٠٢٣١ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٧/ص ٢٩٥/ح ٤٣٢٧ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٢٢٢/ح ١٤٨١ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٦/ص ٩٨٢٢ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٣٢/ح ١١٤٣ .

إليه ، وذلك أن الله افترضه عليهم وأخذ عليهم المواثيق به ، فقال عز وجل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ. فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْتَرُوا...﴾ [آل عمران: ١٨٧] الآية ، فأخبر بسوء منقلبهم بكتماهم النصيحة ، وأوجب عليهم بذلك اللعنة والسخطة.

وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « من سئل عن علم وهو يعلمه وكنمه جاء يوم القيامة وهو ملجم بلجام من نار »^(١).

وقال أبو هريرة ، وجابر بن عبد الله ، وغيرهما: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إنما بعثتكم معلمين ، ولم أبعثكم منفرين ، فاعلموا الجاهل »^(٢) ، قال أبو ذر رحمه الله: « مر النبي عليه السلام على المسلمين بمجلسين ، أحدهما يتعلمون العلم ويعلمونه ، والآخر يقرؤون القرآن ويدعون إليه ويرغبون فيه^(٣)

(١) ورد عن عبد الله بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((إنما رجل أتاه الله علما فكنمه ، ألقمه الله يوم القيامة بلجام من نار)).

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٢٩٨/ح ٩٥ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٣٠/ح ٢٦٤٩ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٩٧/ح ٢٦١ ؛ وأبو داود في سننه ج ٣/ص ٣٢١/ح ٣٦٥٨ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٢٦٣/ح ٧٥٦١ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ١٨٢/ح ٣٤٥ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٣٠/ح ٢٥٣٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٨/ص ٣٣٤/ح ٨٢٥١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ١١٢/ح ١٦٠ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٢٦٧/ح ٤٣٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٤/ص ٤٥٩/ح ٢٥٨٥ ، وأبو خيثمة في العلم ج ١/ص ٣٣/ح ١٤٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٣١٥/ح ٢٦٤٥٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ٣٨٢/ح ..

(٢) لم أقف عليه.

(٣) في المخطوط: إليه. لعل الصواب ما أثبت.

، فقال: كلا المجلسين على خير وإنما بعثت معلما ، فجلس مع الذين يعلمون العلم»^(١).

وقال أبو هريرة وغيره: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « العالم والمتعلم في الأجر سواء »^(٢) ، وقال جابر بن عبد الله وغيره: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « كل معروف صدقة »^(٣) ، وقال عليه

(١) عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: ((دخل النبي صلى الله عليه وسلم المسجد فرأى مجلسين ، أحد المجلسين يذكرون الله عز وجل ويرغبون اليه ، والآخر يتعلمون الفقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كلا المجلسين على خير ، أحدهما يذكرون الله عز وجل ويرغبون اليه ، فان شاء اعطاهم ، وان شاء منعهم ، وأما هؤلاء يتعلمون ويعلمون الجاهل ، وإنما بعثت معلما ، وهؤلاء أفضل فجلس معهم)) .

أخرجه ابن ماجه في سننه ج ١/ص ٨٤/ح ٢٢٩ ، والطيايسي في مسنده ج ١/ص ٢٩٨/ح ٢٢٥١ ، والحاارث / الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ١/ص ١٨٦/ح ٤٠ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ١١٢/ح ٣٤٩ .

(٢) عن أبي الدرداء قال: ((معلم الخير والمتعلم في الأجر سواء ، وليس لسائر الناس بعد خير)) . أخرجه القضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ١٨٩/ح ٢٧٩ ، وأبو خيثمة في العلم ج ١/ص ١٥/ح ٥١ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ٩١/ح ٢٤٧ .

(٣) عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((كل معروف صدقة ، وإن من المعروف أن تلقى أخاك بوجه طلق ، وأن تفرغ من دلوك في إناء أخيك)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ٢٢٤١/ح ٥٦٧٥ ، وفي الأدب المفرد ج ١/ص ٨٨/ح ٢٢٤ ، ومسلم في صحيحه ج ٢/ص ٦٩٧/ح ١٠٠٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ٨/ص ١٧٢/ح ٣٣٧٨ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٣٤٧/ح ١٩٧٠ ، وابن حنبل في مسنده ج ٣/ص ٣٦٠/ح ١٤٩٢٠ ، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ٥٨/ح ٢٣١١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١/ص ٣٦٧/ح ١١٢٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٥٢٣/ح ١١٧٠١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٦٠/ح ٦٤ ، والدارقطني في سننه ج ٣/ص ٢٨/ح ١٠١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٨٧/ح ٨٨ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني

السلام: « ما تصدق عبد بصدقة أعظم عند الله من موعظة يعظ بها قوما فيقوم أحدهم وقد نفعه الله بها » ^(١) ، وقال ابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وأنس بن مالك: عن النبي عليه السلام أنه قال: « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ^(٢) ، وقال صفوان بن مسكان المرادي: عن النبي [صلى الله عليه وآله وسلم]: « إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا بما يصنع » ^(٣) ،

ج ٤/ص ١٣٨/ح ٢١١٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٨٨/ح ١١٢٤٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٤/ص ٣٧/ح ٢٠٤٠ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٣٢٧/ح ١٠٨٣ .

(١) لم أقف عليه .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) عن زر بن حبیش قال: أتيت صفوان بن عسال المرادي فقال: ما جاء بك يا أصلع ، فقلت: ابتغاء العلم . فقال: لقد بلغني ((أن الملائكة تضع أجنحتها لطالب العلم رضى بما يصنع)) ، فقلت: إنه حاك أو حال في نفسي المسح على الخفين ، فهل حفظت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شيئا؟ قال: نعم ، كنا إذا كنا سفرا أو مسافرين أمرنا أن لا نخلع خفافنا ثلاثا إلا من جنابة ، لكن من غائط وبول ونوم ، قلت: فهل حفظت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الهوى شيئا؟ قال: نعم ، كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كذا وكذا فنأداه رجل في أخريات القوم بصوت له جهوري أعراي جلف جاف ، فقال: يا محمد يا محمد ، فقال له القوم: مه فإنك قد همت عن هذا ، فأجابه رسول الله صلى الله عليه وسلم على نحو من صوته ، فقال: هاؤم ، قال: المرء يحب القوم ولم يلحق بهم ، قال: المرء مع من أحب ، قال: فما برح يحدثني حتى حدثني أن الله عز وجل جعل بالمغرب بابا مسيرة ، عرضه سبعون عاما للتوبة ، لا يغلق حتى تطلع الشمس من قبله ، وذلك قول الله عز وجل: ﴿ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيْمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ﴾ .

أخرجه النسائي في سننه ١/ص ٩٨/ح ١٥٨١ ، وابن حبان في صحيحه ج ٣/ص ٣٨٣/ح ١١٠٠ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٥٤٦/ح ٣٥٣٥ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٢٤٠/ح ١٨١١٨ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ١٨١/ح ٣٤١ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ١/ص ٨٢/ح ٠ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٣٩٠/ح ٨٨١ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٨/ص ٥٤/ح ٧٣٤٧ ،

وذلك أن طلب العلم للعمل بالعلم هو الذي يزول عنه الجهل ، فيصبح عمله بالعلم ، لأن كل عمل يعمل به صاحبه يعلم وإن قل ، هو أكثر عند الله وأزكى من كثير العمل مع الجهل ، كما جاء الخبر: « قليل العلم مع العلم كثير ، وكثير العمل مع الجهل قليل » ^(١) ، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿ لِلْفُقَرَاءِ

الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أَخْرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ [الحشر: ٨] ، يقول: هذا من فعلهم هو على التصديق لهم ، والإيقان بخالقهم ، فاستوجبوا بذلك صدق مواعده ، وجزيل ثوابه ، وتتابع نصره ، وعموم نعمه ، في عاجل دنياهم وآجل آخرهم ، وهؤلاء هم أهل العلم الباطن ، الذين نظروا إلى دناءة الدنيا بقلوبهم ، ورفعة الآخرة ، فلم يلفتوا إلى الدنيا فهانت في صدورهم ،

والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٩٣/ح ١٣٢ ، والدارقطني في سننه ج ١/ص ١٩٧/ح ١٥٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١/ص ١١٤/ح ٥٥٧ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٣٧٩/ح ٢٥٨٧ ، والشافعي في مسنده ج ١/ص ١٨/ح ٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ١/ص ١٦٢/ح ١٨٦٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١/ص ٢٠٥/ح ٧٩٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ١١/ح ١٩ .

(١) عن هشام صاحب الاستواء قال: ((قرأت في كتاب بلغني انه من كلام عيسى تعملون للدنيا وأنتم ترزقون فيها بغير عمل ولا تعملون للآخرة وأنتم لا ترزقون فيها إلا بالعمل وإنكم علماء السوء الأحر تأخذون والعمل تضيعون يوشك رب العمل ان يطلب عمله وتوشكون ان تخرجوا من الدنيا العريضة إلى ظلمة القبر وضيقه الله ينهاكم عن الخطايا كما أمركم بالصلاة والصيام كيف يكون من أهل العلم من سخط رزقه واحتقر منزلته وقد علم ان ذلك من علم الله وقدرته كيف يكون من أهل العلم من أقام الله فيما قضى له فليس يرضى شيئا أصابه كيف يكون من أهل العلم من دنياه أثر عنده من آخرته وهو في الدنيا أفضل رغبة كيف يكون من أهل العلم من مصيره إلى آخرته وهو مقبل على دنياه وما يضره أشهى إليه أو قال أحب إليه مما ينفعه كيف يكون من أهل العلم من يطلب الكلام ليخبر به ولا يطلبه ليعمل به)) . أخرجه الدارمي في سننه ج ١/ص ١١٥/ح ٣٦٨ .

وَقُلْتُ فِي أَعْيُنِهِمْ ، فَرَجَحُوا وَأُنْجَحُوا ، ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢] .

فأما من خالفهم من الذين ذمهم الله من أهل العلم الظاهر ، المحجوبة قلوبهم عن اليقين بالآخرة إلا من جهة الإقرار والتصديق ، فمنهم كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِن جَاءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ...﴾ [العنكبوت: ١٠] الآية ، وقال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أكثر منافقي أمتي قرأوها » ^(١) ، وهذا ميراث أعمالهم الظاهرة.

وقال عمر بن الخطاب: سمعت النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] يقول: « أخوف ما أخاف على أمتي منافقوا اللسان » ^(٢) ، وبه قال كعب بن عجرة ، وأبو سعيد الخدري عن النبي عليه السلام أنه قال: « سيكون بعدي أمراء فمن دخل عليهم وصدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه ، ولم يرد علي الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يصدقهم بكذبهم ولم يعنهم على ظلمهم فهو مني وأنا منه ، وإنه يرد على الحوض » ^(٣).

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ورد عن قيس بن جابر الصديقي ، عن أبيه ، عن جده ، بلفظ: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : ((سيكون من بعدي خلفاء ، ومن بعد الخلفاء أمراء ، ومن بعد الأمراء ملوك ، ومن بعد الملوك جبابرة ، ثم يخرج رجل من أهل بيتي يملأ الأرض عدلا كما ملئت جورا ، ثم يؤمر القحطاني ، فوالذي بعثني بالحق ما هو. دونه من يكنى أبا العلاء)) .

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٣/ص ٢٧/ح ١١٢٢٨ ، والحاكم في مستدركه ٤/ص ٥١٢/ح ٨٤٣٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ١٣٦/ح ١٠٢٢٧ ، والحاثر الهيثمي في مسنده (الزوائد)

قال النعمان ، وأنس: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لان بين الساعة فتن كقطع الليل المظلم ، يصبح الرجل فيها مؤمنا ويمسي كافرا ، ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا ، يتبع أقواما في خلافتهم لغرض من الدنيا يسير »^(١) ،

٢/ص ٧٨٤/ح ٧٨٨ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٥١٢/ح ٣٧٦٣٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٨/ص ١٧٨/ح ٨٣٢٥ .

(١) عن عياض بن حمار المجاشعي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ذات يوم في خطبته : ((ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا كل مال نخلته عبدا حلال وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم وإهم أتتهم الشياطين فاحتالتهن عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم وأمرهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانا وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عرهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال إنما بعتك لأتليك وأبتلى بك وأنزلت عليك كتابا لا يغسله الماء تقرؤه نائما ويقظان وإن الله أمرني أن أحرق قریشا فقلت رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة قال استخرجهم كما استخرجوك واغزهم نغرك وأنفق فسنفق عليك وابعث جيشا نبعث خمسة مثله وقاتل بمن أطاعك من عصاك قال وأهل الجنة ثلاثة ذو سلطان مقسط متصدق موفق ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم وعفيف متعفف ذو عيال قال وأهل النار خمسة الضعيف الذي لا زبر له الذين هم فيكم تبعا لا يتبعون أهلا ولا مالا والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش ولم يذكر أبو غسان في حديثه وأنفق فسنفق عليك)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٤/ص ١٨٨٩/ح ٤٦٥٨ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢١٩١/ح ٢٨٥٥ ، وابن حبان في صحيحه ج ٢/ص ٤٢٥/ح ٦٥٣ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٤٤١/ح ٣٣٤٣ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٦٣٨/ح ١٩٨٣ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ١٧/ح ١٦٢٦٦ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٤٦/ح ١٠٧٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٧/ص ٣٥٩/ح ٩٨٧ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٥/ص ٢٦/ح ٨٠٧٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٧/ص ٣٠٥/ح ١٤٥٥٧ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ١٩٨/ح ٢٢٢٠ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص ٢٠٦/ح ٢٩٣٣ .

قال الحسن: « قد والله رأيتهم فراش نار ، وذياب طمع ، يغدون بدرهمين ويروحون بدرهمين ، يبيع أحدهم دينه شراء العبيد » ^(١).

وقال ابن مسعود: « يدخل أحدهم على الرجل ومعه دينه ويخرج من عنده وما معه من دينه لا قليل ولا كثير » ^(٢) ، فهذه صفة أهل العلم الظاهر ، الذين نظروا بظاهر أبصارهم إلى ظاهر الدنيا ، وحجبوا قلوبهم عن أمور الآخرة الباطنة ، وتركوا أمر الله من أجلهم فيهم.

وأما أهل المعرفة بالله واليقين به ، والفهمون عنه ، فهم القائلون لله بالصدق في مواطن المحن ، وهم الذين يؤثرون أمر الله على كل حال ، من شدة أو رخاء ، أو عافية أو بلاء ، لا تأخذهم فيه لومة لائم ، كما قال أبو ذر رحمة الله عليه: « إني لأرجو أن لا تأخذني في الله لومة لائم » ^(٣) ، وقال الله سبحانه: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٥٤].

وقال جابر بن عبد الله: « بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [بيعة العقبة ، وقلنا: يا نبي الله على ما نباعك؟ فقال: على البسمع والطاعة في المنشط والمكسل ، وعلى النفقة في العسر واليسر ، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولا تأخذكم في الله لومة لائم ، وأن تمنعوني إذا قدمت عليكم بما تمنعون منه أنفسكم وأهاليكم ، ولكم الجنة. فقام سعيد بسن زرارة فقال: يا معشر الأنصار كفوا أيديكم ، فإننا والله لم نضرب إليه من يشرب إلا ونحن نعلم أنه رسول الله حقاً، وإن إخراجهم اليوم قبل إخراجكم ، ومفارقة العرب كافة ، وإن كنتم على عض السيوف إذا أخذلكم وقتل أحياركم ،

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وفارقتكم العرب كافة ، فخذوه على ذلك ، وإن كنتم تخافون من أنفسكم خيفة فدعوه فهو عذر لكم عند الله ، فقالوا: امض عنا يا سعيد بن زرارة ، فوالله لا نستقبل هذه البيعة ولا نقيلها أبدا ، فقاموا إليه رجل رجل فبايعوه ويعطيهم على ذلك الجنة ^(١) .

(١) عن جابر بن عبد الله الأنصاري ، ((أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث عشر سنين يتبع الناس في منازلهم في الموسم ومحنة وعكاظ ومنازلهم من مني من يؤوييني من ينصري حتى أبلغ رسالات ربي فله الجنة فلا يجد أحدا ينصره ولا يؤويه حتى أن الرجل ليرحل من مصر أو من اليمن إلى ذي رحمه فيأتيه قومه فيقولون له أحذر غلام قريش لا يفتنك ويمشي بين رحاطهم يدعوههم إلى الله عز وجل يشيرون إليه بالأصابع حتى بعثنا الله من يثرب فيأتيه الرجل منا فيؤمن به ويقرئه القرآن فينقلب إلى أهله فيسلمون بإسلامه حتى لم يبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رهط من المسلمين يظهرون الإسلام وبعثنا الله إليه فائتمروا واجتمعنا وقتلنا حتى متى رسول الله صلى الله عليه وسلم يطرد في جبال مكة ويخاف فرحلنا حتى قدمنا عليه في الموسم فواعدنا بيعة العقبة فقال له عمه العباس يا بن أخي لا أدري ما هؤلاء القوم الذين جاءوك أي ذو معرفة بأهل يثرب فاجتمعنا عنده من رجل ورجلين فلما نظر العباس في وجوها قال هؤلاء قوم لا نعرفهم هؤلاء أحداث فقلنا يا رسول الله على ما نبأيك قال تباعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل وعلى النفقة في العسر واليسر وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وعلى أن تقولوا في الله لا تأخذكم لومه لائم وعلى أن تنصروني إذا قدمت عليكم وتمنعوني مما تمنعون عنه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة فقمنا نبايعه وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو أصغر السبعين إلا أنه قال رويدا يا أهل يثرب إنا لم نضرب إليه أكباد المطي إلا ونحن نعلم أنه رسول الله وأن إخراجهم اليوم مفارقة العرب كافة وقتل خياركم وأن يعضكم السيف فيما أنتم قوم تصيرون عليها إذا مستكم وعلى قتل خياركم ومفارقة العرب كافة فخذوه وأجركم على الله وإما أنتم تخافون من أنفسكم خيفة فذرروه فهو عذر عند الله عز وجل فقالوا يا أسعد امط عنا يدك فوالله لا نذر هذه البيعة ولا نستقبلها قال فقمنا إليه رجلا رجلا فأخذ علينا ليعطينا بذلك الجنة)) .

وقال عبادة بن الصامت لأبي هريرة في قصة معاوية حين كلمه أبو هريرة: «يأخي ما شأن معاوية يشكوك فدعه وما يقول! فقال عبادة بن الصامت: اسكت لم يكن معنا حين بايعنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [بيعة العقبة على أن نقول في الله ، لا تأخذنا فيه لومة لائم]» ^(١) ، فذكر عبادة نحو حديث جابر بن عبد الله.

فمن كان من أهل القيام له بالصدق في مواطن المحن والشدة ، كانت هذه صفته ولم يخف غير الله ، وكيف يخاف غيره ويقوم مقامه عنده أهيب من مقام ربه؟! مع فهمه عن الله قوله: ﴿أَتَخْشَوْنَهُمْ فَأَلَّهَ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣] ، فأضاف بكامل ^(٢) الخشية له جل ثناؤه دون غيره إلى الإيمان به واليقين بواجب حقه ، وأنه لا أحد أحق بالخشية منه تعالى وعز ، وكان أيضا كما قال بعضهم: «إنا لنستحيي من الله أن نخاف شيئا سواه» ^(٣) ، قال أبو ذر رحمة الله عليه: «بما تهددني قريش هل هو إلا القتل فوالله للموت أحب إلي من الحياة ، ولبطن الأرض أحب إلي من ظهرها ، وللفقراء أحب إلي من الغنى ، فيما تهددني قريش؟!» ^(٤) ، فإذا قام العبد بدرجة الصدق في المواطن كان على معنيين:

إما أن يصدق في المواطن فيرجع بأفضل الجهاد والسلامة.

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ١٧٥/ح ٦٢٧٤ ، وابن حبان في مسنده ج ٣/ص ١٥١/ح ١٢٥٥١ ، والحاكم في مستدركه ج ٢/ص ٦٨٢/ح ٤٢٥١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٨/ص ١٤٦/ح ١٦٣٣٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٦/ص ٢٦٩/ح ٣٥٧٢.

(١) لم أقف عليه.

(٢) الكلمة غير واضحة المعنى.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

وإما أن يصدق في المواطن فيحكم الله بأفضل الجهاد والشهادة.
وقال الحسن: «يجزي من العمل مع العلم مثل ما يجزي الطعام من الملح» ^(١)
، وروي عن النبي صلى الله عليه وعلى آله: «أنتم اليوم في زمان العمل ،
وسياقي على الناس زمان يكون العمل فيه خيرا يفتح من العلم ، وإن زحف
العالم في علمه زحفا» ^(٢) ، وقال الله تبارك وتعالى: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا
مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المائدة: ٧] ، ثم بين أهل العلم منهم فقال:
﴿كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨] ، فهم أهل الخشية
والمراقبة ، والحياء والسكينة ، كما قال سبحانه: ﴿فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى
رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا
وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الفتح: ٢٦] . فقاموا بعلمهم ،
وبما حكم به لهم وعليهم في أرض الله تعالى ، وأدوا إلى عباده الأمر من عنده
، فهم النصحاء القائمون بقسطه في عباده وبلاده ، كما أمرهم الله في كتابه ،
وأوجب عليهم في سنة نبيه ، وهم الأئمة الهداة بعده من عترته ، وأتباعهم من
أهل ولايته ، فهذا الأمر بالمعروف الذي افترضه الله على المؤمنين ، من حب
كل طاعة وبر وفعلهما ، فذلك التعاون على البر والتقوى ، الذي ندب الله
إليه عباده بقوله: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى...﴾ [المائدة: ٢] الآية ، وهو
التعلم للخير والتعليم له.

وقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ
وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ...﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية ، فلم يوجب لهم الرحمة مع

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

الأمر والنهي إلا باجتماع الطاعة بكمالها ، لأنه قد يكون أمر وناهي غير مؤتمر ولا منتهي ، كما أنبأنا في كتابه قصة من كانت هذه صفته ، فقال: ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ... ﴾ [البقرة: ٤٤] الآية ، وقال تعالى يمدح آخرين ويثني عليهم: ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ [الأعراف: ١٥٧] ، وقال: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ... ﴾ [النحل: ٩٠] الآية ، وقال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا... ﴾ [الأنعام: ١٥٢] الآية.

والوفاء بعهد الله فرض واجب ، وكذلك التعاون على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهو الأمر بكل طاعة والدعاء إليها بأحسن القول وأعدله ، كما قال: ﴿ وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ﴾ [الأنعام: ١٥٢] ، وكذلك التعلم لكل بر والتعليم له ، كما قال النبي عليه السلام في حديث أبي ذر قال: « يا رسول الله أخبرني بالإيمان؟ فتلا النبي عليه السلام: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قَبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ... ﴾ [البقرة: ١٧٧] إلى آخرها ، وقال: يا رسول الله أقلل لي. فقال عليه السلام: المؤمن الذي تسره حسنته وتسوءه سيئته ، فهو مؤمن » ^(١). وقد فسرنا معنى السرور بالحسنة وبيناه آنفا.

قال النعمان بن بشير: عن النبي صلى الله عليه وسلم: « مثل الإيمان من المؤمن مثل الرأس من الجسد ، يألم الرأس فيألم له الجسد » ^(٢) ، وقال النبي عليه

(١) لم أقف عليه.

(٢) ورد عن بشير بن سعد بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((منزلة المؤمن من المؤمن

منزلة الرأس من الجسد ، متى ما اشتكى الجسد اشتكى له الرأس ، ومتى ما اشتكى الرأس اشتكى

سائر الجسد)) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج ٢/ص ٤٠/ح ١٢٢٣.

السلام: « مثل المؤمنين بعضهم من بعض مثل البنيان يشد بعضه بعضا »^(١). وقال النعمان بن بشير ، وأبو هريرة: عن النبي عليه السلام: « مثل المؤمنين في توادهم وتعارفهم وتراحمهم مثل الجسد ، إذا اشتكى شيء منه تداعا سائرته بالحمى والسهر »^(٢).

فهذه صفات أهل النصح لله في خلقه ، الذين يؤدبونهم بالمعروف ، ويعلمونهم ما افترض الله عليهم من العلم ، بالشفقة والرحمة عليهم ، مع خفض الجناح لهم ، وبذل المعروف والإحسان إليهم ، والتواضع لهم ، واحتمال جهلهم ، والصبر على تعليمهم ، محتسبين بذلك القرية من الله ، فإذا كانوا كذلك شدوا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ١٨٢/ح ٤٦٧ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ١٩٩٩/ح ٢٥٨٥ ، والنسائي في سننه ج ٥/ص ٨٠/ح ٢٥٦٠ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٤٦٨/ح ٢٣١ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٣٢٥/ح ١٩٢٨ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٤٠٥/ح ١٩٦٤٠ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٣١٣/ح ٧٧٤٩٩ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٦٨/ح ٥٠٣ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٣٤٠/ح ٧٧٠ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٤١/ح ٢٣٤١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ١١٢/ح ١٣٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٩٤/ح ١١٢٩١ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١٣/ص ٢٨٠/ح ٧٢٩٥ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ١٩٦/ح ٥٥٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ٢٢٣٩/ح ٥٦٦٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢٠٠٠/ح ٢٥٨٦ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٤٧٠/ح ٢٣٣ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٢٦٨/ح ١٨٣٨١ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٠٧/ح ٧٩٠ ، والحميدي في مسنده ج ٢/ص ٤٠٩/ح ٩١٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٦/ص ١٣١/ح ٥٧٤٣ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ٢٣٥/ح ٣٨٢ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٢٩٤/ح ٥١٢ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ٢٨٣/ح ١٣٦٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٣٥٣/ح ٦٢٢٣ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ١٠٢/ح ٦٠٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٨٩/ح ٣٤٤١٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص ٦٩/ح ٤٦٩٦.

ظهورهم ، وأعانوهم على أداء فرائضهم ، وجعلوا لهم السبيل إلى رضوان ربهم ، ودلوهم على منهاج نبيهم عليه السلام ، وذلك كله من النصيح له ورسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « فمن أمر بالمعروف شد ظهر المؤمن ». وقد فسرنا [هـ] والحمد لله ، وإياه نسأل التوفيق ، وبالله نستعين ، وسنفسر باب النهي عن المنكر ولا قوة إلا بالله.

باب النهي عن المنكر

وهو الكلام عن الشعبة الثانية من الجهاد ، والنهي عن المنكر هو بغض العبد لكل معصية ، ونهي عن كل إثم ، وذلك فرض على جميع المسلمين أن يمتنعوا المعاصي وأهلها وينهوا عنها ، بطاقتهم وجهادهم ، لأن الله أبغضها ونهى عنها ، فمن وافق الله في محبته في بغض المعاصي وأهلها ، ونهى عنها وغضب على أهلها بغضب الله عليهم ، فقد أدى ما يجب عليه في كراهة ما كرهه الله ، وبقدر معرفة العبد بما يجب لله على خلقه ، وعظيم ما ارتكبوا من معصيته ، يكون فيه عن المنكر ، وإذا علت درجة العبد ورسخ يقينه كان أشد إنكاراً للمعاصي وما أشبهها ، وإذا ضعفت معرفته ضعف نكرانه على قدره ، والإنكار على قدر ضعف العبد وقوته ، وعلى قدر علمه وبصيرته ، وعلى قدر إجلال الله في قلبه وكبره.

فالنهي فرض على كل مسلم على قدر طاقته ^(١) ، واتساع علمه ، ورسوخ بصيرته في نفسه وغيره ، وقد بين الله ذلك بقوله: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ... ﴾ [آل عمران: ١١٠] الآية ، فقرن الأمر والنهي في الإيمان بالله تأكيداً لفرضه ، وقال تعالى فيما حكى عن

(١) في المخطوط: طاعته. ولعل الصواب ما أثبت.

لقمان عليه السلام ليحمله قدوة: ﴿يَبْنِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [النساء: ١٧] ، وقال: ﴿لَوْلَا يَنْتَهُهُمْ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَخْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السَّخْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٦٣] ، وقال عز وجل: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلَوِهِمْ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩] ، وقال: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِنْ قَبْلِكُمْ أُولُوا بَقِيَّةٍ يَنْتَهُونَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦] ، وقال تعالى: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [النساء: ٧٨ - ٧٩] . فهذا ^(١) ذكر النهي عن المنكر في الكتاب وما افترضه الله عليهم ، وأمروا أن يأخذوا ما آتاهم به الرسول عليه السلام وينتهوا عما نهاهم عنه ، فقال جل ثناؤه: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا...﴾ [الحشر: ٧] الآية ، فالفرض على جميع المسلمين النهي عن المنكر والبغض لأهلها ، والفرض عليهم على قدر ضعفهم وقوتهم ، وعلمهم ونقصهم ، وهم على ثلاثة أوجه الناس فيها على طبقات ثلاث:

فأول الوجوه وهو أعلاها وأشرفها عند الله قدرا ، هي درجة المقربين من خلقه وأنبيائه وأصفياؤه ، وأئمة دينه من أهل صفته ، وهو النهي عن المنكر

(١) في المخطوط: فهذه. ولعل الصواب ما أثبت.

باليد والغضب لله عند انتهاك محارمه ، كما يغضب النمر عند فريسه ^(١) ، فإن النمر إذا غضب لم يبال قل الناس أم كثروا.

ويروى أن الله تبارك وتعالى أوحى إلى موسى عليه السلام أن: « كن محارباً كالنمر ، وكن سريعاً كالنسر ، وكن ضعيفاً كالصبي » ^(٢) ، يقول: كن جريئاً كالنمر على أهل معصيتي ، وكن سريعاً كالنسر أي: أجهض ^(٣) في طاعتي ، وكن ضعيفاً كالصبي أي: اخفض جناحك للمؤمنين ، فلم يرض الله من أهل الصدق إلا بالقيام بأعلا درجات النهي والغضب عند انتهاك محارمه ، كما قال جل ثناؤه: ﴿يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ...﴾ [المائدة: ٥٤] الآية ، وقال تعالى في صفة هود عليه السلام: ﴿مِنْ دُونِهِ فَكِدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونَ﴾ [١١] إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى اللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْ

... [هود: ٥٥ - ٥٦] الآية. وقال علي بن أبي طالب عليه السلام: كان النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « إذا غضب لله يتطايير من حوله كما يتطايير الوبر عن ظهر البعير ، حتى يسكن من شدة غضبه لله » ^(٤) . وقال أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « المعروف باليد ، فباللسان ، فمن لم يستطع باللسان فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان » ^(٥) ، وإنما عني بالمعروف:

(١) الفريس: الفريسة.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) أجهض: أعجل.

(٤) لم أقف عليه.

(٥) عن أبي سعيد الخدري قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من رأى منكراً فغيره بيده فقد برئ ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فقد برئ ومن لم يستطع أن يغيره بلسانه فغيره بقلبه فقد برئ وذلك أضعف الإيمان)).

تغيير المنكر ، لأن تغيير المنكر هو المعروف يأمر به ، فقد ينصرف على نهي المنكر ، وعلى الإزدياد في المعروف والترغيب فيه ، كل ذلك في اللغة جازر .
وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « المعروف باليد فإن لم يستطع باليد فباللسان ، فإن لم يستطع باللسان فبالقلب وذلك أضعف الإيمان ، وإذا صار العبد إلى ترك تغيير القلب نُكسَ القلب فجعل أعلاه أسفله ، فحينئذ لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا » ^(١) ، فقد فسرته علي بن أبي طالب على ما ذكره النبي عليهما السلام ثلاثة وجوه :

فأعلاها درجة اليد وهي التي وصفنا من فعل النبي عليه السلام والأئمة من عترته ، الذين لم يرض لهم بالتقصير في أمره ، وقد ذَكَرَ أهل التقصير عن أمره فذمهم بما كان من تقصيرهم وأنزل بهم عقوبته .

وقال ابن مسعود: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « لما وقع النقص في بني إسرائيل ، كان الرجل يرى أخاه على الفاحشة فلا ينهأ عنها ، ثم لا يمنعه ما رأى منه أن يكون أكيله وشريبه ، فضرب الله قلوب بعضهم ببعض ، وأنزل فيهم قرآنا ، وليجعلهم معتبرا لمن بعدهم ، وتحذيرا لمن فهم عن الله خبرهم ، فقال تعالى: ﴿ لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَىٰ

أخرجه النسائي في سننه ٨/ص ١١٢/ح ٥٠٠٨ ، ٨/ص ١١٢/ح ٥٠٠٩ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ١٢٣/ح ٤٣٤٠ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢٩٢/ح ٢١٩٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٥٣٢/ح ١١٧٣٩ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢٩٧/ح ٥٩٩٧ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٤١٤/ح ١٢٠٣ .

(١) ورد عن علي بلفظ: ((إن أول ما تغلبون عليه من الجهاد الجهاد بأيديكم ثم الجهاد بالسنتكم ثم الجهاد بقلوبكم ، فأى قلب لم يعرف المعروف ولا ينكر المنكر نكس ، فجعل أعلاه أسفله)) .

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص ٣٨٦/ح ٢٣٣٢٨ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٥١٤/ح ٨٤٤٣ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٩٠/ح ١٩٩٦٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٤٧٤/ح ٣٧٣٤٣ .

لِسَانَ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ... إلى قوله: كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرِ فَعْلُوهُ لِبَيْسٍ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٨﴾ تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِبَيْسٍ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ ﴿٧٩﴾ [المائدة: ٧٨ - ٨٠].

وكان رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] متكئا فاستوى جالسا ، ثم قال: كلا والله لتأخذوا على يدي الظالم ، وتأطروهم على الحق أطرا «^(١)» ، يعني: تجاهدوهم عليه جهادا ، فقد ذم الله القوم مع إنكارهم عليهم ، ولم يرض الإنكار منهم إلا بالمباينة لهم ، فلما خالطوهم عاقبهم كما أخبر به في كتابه.

وقال عكرمة: أخذ المصحف ابن عباس فقرأ هذه السورة يعني: الأعراف ، فلما بلغ قصة اليهود: ﴿وَسَأَلْنَهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِثَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرْعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ...﴾ [الأعراف: ١٦٣] الآية ، فقال ابن عباس: يا عكرمة هذه قرية بحاضر البحر يقال [لها]: أيلة ، كان فيها قوم من اليهود حرم الله عليهم صيد السبت ، فكان السمك إذا كان يوم السبت يجيء شرعا حتى يقع في آنيتهم وبيوتهم ، وإن كان غير السبت تحجب في البحر ، فلا يقدرّون

(١) عن عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله: ((إن بني إسرائيل لما وقع فيهم النقص ، جعل الرجل يرى أخاه على الذنب فينهاه عنه ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ما رأى منه ، أن يكون خليطه وأكيله وشريبه ، فضرب الله على قلوب بعضهم على بعض ، ونزل فيه القرآن ﴿لَعَنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ...﴾ الآية إلى قوله: كثيرا منهم فاسقون ﴿﴾ ، ثم قال رسول الله: كلا والذي نفسي بيده حتى تأخذوا على يدي الظالم فتأطروه على الحق أطرا)).

أخرجه الترمذي في سننه ج ٥/ص ٢٥٣/ح ٣٠٤٨ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٢٨/ح ٤٠٠٦ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ١٢٢/ح ٤٣٣٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٩٣/ح ١٩٩٨٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ١٦٦/ح ٥١٩.

عليها إلا بمشقة ، وقال طائفة: لو حفرنا لها الحفائر يوم الجمعة ، فإذا كان يوم السبت وقعت في الحفائر وأخذها يوم الأحد ، ففعلوا فأثروا وكثرت أموالهم ، فحين علم بهم قومهم قالوا: يا قوم اتقوا الله ولا تستحلوا صيد السمك ، فأبوا أن يقبلوا منهم فافترقوا ثلاث فرق منهم:

فمنهم من استحل صيد السمك السبت.

ومنهم من نهاهم ولم يغير لهم وأقام معهم.

والفرقة الثالث نمت واعتزلت ، وقالوا: والله لا نناكحكم ولا نواكلكم ولا نسايركم حتى تتوبوا ، فإنا نخشى أن يتزل بكم العذاب فيصينا معكم ، وخرجوا من قريتهم ، فقالت الفرقة التي نمت وأقامت: ﴿لِمَ تَعْظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْدَرَةٌ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ

﴿[الأعراف: ١٦٤] ، وقالوا: إما أن تتقوا وتتوبوا فيكتب لنا ثوابهم ، وإما أن يتزل بهم العذاب فلا يصينا معهم. وقرأ ابن عباس حتى بلغ هذا الموضع: ﴿

فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا

الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿[١٦٥]﴾ فَلَمَّا عَتَوْا عَنْ

مَا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴿[١٦٦]﴾ [الأعراف: ١٦٥ - ١٦٦] ،

قال ابن عباس: فكان أهل القرية الذين استحلوا صيد السبت يصبحون على خمورهم ولهوهم ولهم ضجة في القرية ، فلما أراد الله بهم العقاب أصبحوا ذات يوم وليس لهم صوت يسمع ولا حركة ، فقال بعضهم لبعض: لعل القوم أصبحوا على خمورهم ولهوهم فناموا ، فلما تعالى النهار ولم يسمعوا لهم صوتان قال بعضهم لبعض: يا إخواننا إنا نخاف أن يكون قد نزل بهم العذاب ، فأصعدوا رجلا من فوق السور ، وكانت الأبواب مغلقة عليهم فلما أشرف عليهم نادى بأعلا صوته: يا إخوانه هؤلاء إخوانكم قردة لها أذنان تعاووا ،

وتم نزل ففتح عليهم الباب فدخلوا عليهم فكان القرد يجيء إلى قرائبه وابن عمه ، والقردة تجيء إلى قرائبها وابن عمها فلا يعرفه أنه الرجل حتى يجيء ويحرك ذنبه ، فيقول له الرجل: من أنت؟ فلان؟ فيقول: برأسه ، أي: نعم ، ثم بسط يده ويقول: ذلك بما كسبت يدك وتدمع عيناه ، فلما بلغ ابن عباس هذا الموضع بكى حتى علا بكاءه ، ثم قال: والله ما سمعت الله ذكر أنه نجح إلا الفرقة التي نمت واعتزلت ، ولقد أهلك الفريقين جميعا التي غضبتن والتي نمت وأقامت معهم ، ثم تلا ابن عباس ﴿ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا ... ﴾ [الأعراف: ١٦٥] الآية ، فلم يرض الله عز وجل من أهل العلم والقيام له بالتقصير إلا بحقائق التعبير ، وهو النهي لهم والعزلة عنهم والمباينة لهم في أفعالهم وأقوالهم ومستقرهم ومقامهم .

وقال أبو ذر رحمة الله عليه: يا أيها الناس إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿ يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِّنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥] ، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: « إنما قوم عمل بينهم بالمعاصي فلم يأخذوا على يدي الظالم إلا عمهم الله على بعقاب من عنده »^(١) ، وقال المعرور بن أسود: عن أم سلمة زوج النبي صلى الله عليه

(١) ورد عن المنذر بن جرير ، عن أبيه ، بلفظ: عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ((ما من قوم يعمل بين أظهرهم بالمعاصي هم أعز منهم وأمنع ، لم يغيروا إلا أصابهم الله منه بعقاب)) .

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٥٣٧/ح ٣٠٠ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٢٩/ح ٤٠٠٩ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ١٢٣/ح ٤٣٣٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ٣٦١/ح ١٩٢١٥ ، والطبراني في مسنده ج ١/ص ٩٢/ح ٦٦٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢/ص ٣٣١/ح ٢٣٧٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ٢/ص ٢٧٩/ح ١٣٣٧ ، والحارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٧٦٥/ح ٧٦٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٩١/ح ١٩٩٧٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١٣/ص ٤٩٨/ح ٧٥٠٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص ٢٤١/ح ٠٠ .

[وآله وسلم] قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « إذا ظهرت المعاصي عنهم الله من عنده بعقاب . قالت: قلت: يا رسول الله وهل على وجه الأرض يومئذ من الصالحين أحد؟! قال: نعم ، قلت: فما بال أولئك؟ قال: يصيبهم ما أصاب القوم ثم يصيرون إلى رحمة من الله ورضوان » ^(١). وقال ابن مسعود: عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أيما قوم عمل بينهم بالمعاصي هم أعز وأمنع لم يأخذوا على يدي الظالم إلا عنهم الله من عنده بعقاب » ^(٢). وقالت زينب ابنة جحش زوج النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « انتبه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] من نومه محمرا وجهه ، فقال: ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه وأشار إلى إصبعه وحلق عشرين ، فقلت: يا رسول الله أهلك وفينا الصالحون؟! قال: نعم ، إذا كثرت الخبث » ^(٣).

(١) أخرجه ابن حنبل في مسنده ٦/ص ٣٠٤/ح ٢٦٦٣٨ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ١٢٩/ح ٢٦٤ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٣/ص ٣٢٦/ح ٧٤٧ ، وابن راهويه في مسنده ج ٢/ص ٥٢٨/ح ١١٠٨ .

(٢) سبق تخريجه .

(٣) عن زينب بنت جحش قالت: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فرعا يقول: ((ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذا ، وحلق بأصبعه الإبهام والتي تليها ، قالت زينب: فقلت: يا رسول الله أهلك وفينا الصالحون ، قال: نعم ، إذا كثرت الخبث)) .

أخرجه أبي داود في سننه ٤/ص ٩٧/ح ٤٢٤٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٣٩١/ح ٩٠٦٣ ، والحاكم في مستدركه ج ٤/ص ٤٨٦/ح ٨٣٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٢٤/ص ٥١/ح ١٣٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ١٩٧/ح ٢٩٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٢/ص ١٠٦/ح ١٣٩٧ .

وقال جابر بن عبد الله ، وبريدة الأسلمي ، أنه قال لما قدم جعفر بن أبي طالب من الحبشة رضي الله عنه قال له عليه السلام: « ما أعجب شيء رأيته بأرض الحبشة؟ قال: يا رسول الله رأيت امرأة على رأسها مكمل من طعام ، فمر بها فارس يركض فدفعتها فأذراه من رأسها فقعدت تجمععه وهي تقول: ويل لك بأي عذر تلقى الله يوم يضع كرسيه فيأخذ للمظلوم من الظالم. فقال النبي [صلى الله عليه وآله وسلم]: لا قدس الله أمة لا يؤخذ لضعيفها من قويها الحق والضعيف غير متعنع »^(١).

وقال مالك بن دينار: « كان حبر من بني إسرائيل يعظ كل جمعة ، فتجتمع إليه الرجال والنساء ، وأناله ذات يوم يفجر بامرأة من النساء ، فقال: يا بني مهلا جهلا ، فسقط من سريره ، واندق نخمعه ، يعني: قوته ، وأسقطت امرأته وكانت حاملا ، وقتل ولده وكانوا في الجيش ، ثم أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل: قل لفلان الحبر ما كان غضبك لي إلا أن قلت: يا بني مهلا مهلا ، لا أخرجت من صلبك خيرا أبدا »^(٢).

وقال مالك أيضا: « رأيت في بعض الكتب مكتوبا: من كان له جار يعمل بالمعاصي فلم ينهه فهو شريكه. قال: وأوحى الله إلى يوشع بن نون أني مهلك من قومك مائة ألف ، ستين ألفا من صالحهم وأربعين ألفا من طالحهم. فقال: يا رب هذا مهلك الطالحين ، فما بال الصالحين؟! قال: إنهم كانوا يرونهم على المعاصي فلا ينكرون ذلك عليهم »^(٣).

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه ٣/ص ٢٣٤ ح ٤٩٤١ ، وابن حبل في فضائل الصحابة ٢/ص ٨٩١ ح ١٦٩٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٩٥ ح ١١٢٩٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٥/ص ٢٥٢ ح ٥٢٣٤.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

وقال وهب بن منبه: «أوحى الله إلى جبريل عليه السلام أن ائت قرية كذا وكذا فاخسف بهم ، فضجت الملائكة وقالت: يا رب فيهم عبدك فلان - وليس هذا القول من الملائكة بسخط لقضاء الله ، ولكن أرادوا بذلك الخير عن الله ، وهو مثل قوله: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] - فلما ضجت الملائكة وقالوا ما قالوا ، أوحى الله إلى جبريل: أن أسمعني صيحة أولهم فإنه لم يتغير وجهه غضبا لمحارمي «^(١) ، والأخبار في ذلك تكثر. فهذا أحد الوجوه قد فسرناه.

والوجه الثاني من الإنكار هو: الإنكار باللسان لمن لا يبلغ بأهل هذه الدرجة ، وهو فرض عليه أن يعين أهل هذه الدرجة من أبناء الرسول ، وأن يغضب لهم ويرد عنهم ما قيل فيهم من البهت والزور من غير ذلك ، ولا يرضى بأن يُغتابوا ولا يُطعن عليهم الله ، [إذ] كانوا قوامين لله بالقسط في عبادته وبلاده ، وقد رفع الله قدرهم ودرجاتهم عنده ، بالقيام منهم بأمره ، فمن ذلك ما قال الله تبارك وتعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ...﴾ [النساء: ١٣٥] الآية ، وقال تعالى: ﴿وَأَجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠] حقا لله غير مشركين به.

وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي عليه السلام: «فمن لم يستطع باليد فباللسان»^(٢) ، وقال أبو هريرة: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «حق المسلم على أخيه المسلم خمس ، إحداهن حفظه إذا غاب - يعني: يرد عنه الغيبة - والأربع: يعودده إذا مرض ، ويشهد جنازته إذا مات ، ويشتمته إذا

(١) لم أفق عليه.

(٢) سبق تخريجه.

عطس ، ويجيبه إذا دعاه» ^(١) ، وقال عكاشة بن محصن: عن أم سلمة زوج النبي عليه السلام قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: « سيكون بعدي أمراء يعرفون وينكرون ، فمن أنكر فقد برئ ، ومن كره فقد سلم» ^(٢).

وروى محمد بن حميد الرازي ، عن جرير بن عبد الحميد ، عن سليمان الأعمش ، عن سالم بن أبي الجعد ، عن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم] قال: « استقيموا لقريش ما استقاموا ، فإذا لم يستقيموا لكم

(١) ورد عن أبي هريرة بلفظ: عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((حق المسلم على المسلم أن يسلم عليه إذا لقيه ، ويشتمه أو يسمته إذا عطس ، ويجيبه إذا دعاه ، ويعوده إذا مرض ، ويشهده إذا مات ، وينصح له إذا غاب)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ٤١٨/ح ١١٨٣ ، وفي الأدب المفرد ١/ص ٦٧/ح ١٥٧ ، ١/ص ٣١٩/ح ٩٢٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ١٧٠٥/ح ٢١٦٢ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٤٧٧/ح ٢٤١ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٨٠/ح ٢٧٣٦ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٤٦١/ح ١٤٣٣ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٣٠٧/ح ٥٠٣٠ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٨٩/ح ٦٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ٥٠١/ح ١٢٩٢ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٠٣/ح ٢٢٩٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٩/ص ٣٥٢/ح ٩٧٤٨ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٦٤/ح ١٠٠٤٩ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٣٣٨/ح ٣٢٨ ، والحرث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٨٥٧/ح ٩١٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢٢٣/ح ٥٦٣٨ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ٣٤٢/ح ٤٣٥ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص ١٣٨/ح ٥٢٥ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٥٧/ح ٢٦٣٣ .

(٢) لم أقف عليه .

فضعوا أسيافكم على عواتقكم فأبيدوا حضرائهم ، وإن لم تفعلوا فكونوا حرائن وزراعين أشقياء ، تتبعون أذنان البقر » ^(١).

حدثني أبو عمر ، وعثمان ، عن عمر ، عن أبي محمد ، عن الحسن ، عن ابن حميد ، وقال أبو سعيد الخدري: عن النبي صلى الله عليه وآله: « أفضل الشهادة عند الله رجل تكلم بكلمة عدل عند سلطان جائر فقتل عليها » ^(٢). وقال أبو إمامة الباهلي: « قام رجل عند الجمرة الأولى فقال: يا رسول الله أخبرنا بأفضل الجهاد؟ فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم [شيثا ، ثم قام عند الجمرة الثانية فقال مثلها ، فلم يرد عليه النبي صلى الله عليه وآله وسلم] شيئا ، فلما كان عند جمرة العقبة وضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم [شيثا ، فلما كان عند الجمرة الثالثة وضع النبي صلى الله عليه وآله وسلم] رجله في المغرز غرز الركاب ، ثم قال: أين السائل؟ قال: ها أنا ذا يا رسول الله ، قال النبي عليه السلام: أفضل الجهاد عند الله كلمة عدل عند

(١) ورد عن ثوبان بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن لم يفعلوا فضعوا سيوفكم على أعناقكم فأبيدوا حضرائهم ، فإن لم تفعلوا فكونوا حرائن أشقياء ، تأكلوا كد أيديكم)).

أخرجه ابن حنبل في مسنده ٥/ص ٢٧٧/ح ٢٢٤٤٢ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ١٣٤/ح ٢٠١ ، وفي معجمه الأوسط ج ٨/ص ١٥/ح ٧٨١٥.

(٢) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((أفضل الجهاد كلمة عدل عند سلطان جائر أو أمير جائر)).

أخرجه الترمذي في سننه ٤/ص ٤٧١/ح ٢١٧٤ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٣٠/ح ٤٠١١ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ١٢٤/ح ٤٣٤٤٤ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ١٠٨/ح ١٥١١ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ٢/ص ١٨١/ح ١١٤١.

سلطان جائر» ^(١). وقال أبو ذرحة الله عليه: «تركني الحق ومالي من صديق» ^(٢).

والوجه الثالث من الإنكار هو إنكار القلب ، وهو دون الوجوه عند الله ، لأنه أضعف الإيمان وهو فرض على أهله ، فمن لم ينكر المعصية بقلبه عند من لا حيلة له في غير ذلك ، لم يؤد فرض الله في الإيمان شيئاً ^(٣) ، لأن أضعف الإيمان الإنكار بالقلب ، كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: «وذلك أضعف الإيمان ، فإن عدم إنكار القلب نكس القلب وجعل أعلاه أسفله ، فحينئذ لا يعرف معروفا ، ولا ينكر منكرا».

قال أبو سعيد الخدري: عن النبي عليه السلام: «فمن لم يستطع باللسان فبالقلب ، وذلك أضعف الإيمان» ^(٤) ، وإنما جعل الله تبارك وتعالى ذلك للضعفاء من الخلق ، الذين قال الله فيهم: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ﴾ [النساء: ٩٨] ، وبقوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يَنْفِقُونَ ...﴾ [التوبة: ٩١] الآية ، فلم يرخص الإنكار بالقلب وحده دون النصيحة.

وقال ابن مسعود: سمعت من النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] حديثاً ما يسرني به حمز النعم ، سمعته يقول: «بحسب امرئ رأى منكراً لا يستطيع له غير أن يعلمه الله من قلبه أنه له كاره» ^(٥). فهذا ما يكون في الإنكار للمعصية أن ينكرها بالقلب ، إذا كان ضعيفاً لا يقدر على غيره وهو أضعف

(١) لم أقف عليه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) كذا في المخطوطتين ، ولم يتضح المعنى المراد.

(٤) سبق تخريجه.

(٥) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير ج ١٠/ص ٢٢٣/ح ١٠٥٤١.

الإيمان ، وإن أراد المعصية فهو شريك العاصين ، فقد فسرنا آيات النهي عن المنكر من جميع الوجوه ، فذلك معنى قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ومن نهي عن المنكر أرغم أنف المنافق » لأن المنكر من أعمال المنافقين ، قال الله جل ثناؤه : ﴿ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ﴾ [التوبة: ٦٧] ، يقول : تركوا أمر الله فتركهم فمن غضب للمنكر وأهله فهو من حزب الشيطان . وقد قال الله عز وجل : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [المجادلة: ١٩] .

باب الصدق في المواطن

وهو الشعبة الثالثة من الجهاد .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : « ومن صدق في المواطن قضى ما عليه » ، وذلك أن الصدق في المواطن هو القيام لله بالحق في كل موطن من المواطن التي افترضها على المؤمنين ، أن يؤثروا الصدق على الكذب ، وخوف الله على خوف المخلوقين ، وذلك أن العبد إذا لزمه الكلام فيما يتكلم به ، فرض عليه أن يصدق ويحرم عليه الكذب ، ويخرج الصدق في المواطن مخرج الحق إذا لزمك الكلام أن تقول بالحق حيث كنت ، وتؤثر الصدق على الكذب ، ولا تخافن في الله لومة لائم . فهذه درجة القيام لله بقسطه في شدة المحن ، فمن قام لله بذلك أورثه درجة الرهبة ، والتعظيم له والإجلال لمقامه والحياء ، وذلك أن أهل الرغبة والتعظيم له نظروا إلى عظمة الله بباطن قلوبهم ، وإلى أمره لهم بالقيام له ، وأنه يملك من ضرهم ونفعهم ما لا يملكه غيره ، وأنه القادر على صرف الأسواء عنهم ، والحائل بينهم وبين شر عدوهم ، فيسهل عليهم أمر المخلوقين عند ذلك ، وعلموا أنه جل ذكره إن خلا بينهم وبين أعدائهم فإنما

فعل ذلك بالنظر منه لهم ، وليعرضهم الصبر على ما أصابهم ، ليستكملوا أبواب المطيعين في السراء والضراء والشدة والرخاء ، فثبتت عزائمهم وصح يقينهم ، وشروا لله عند ذلك أنفسهم ، فصغر عندهم جميع الخلق ، إذ علموا أن الله ناصرهم ومؤيدهم ، كما ضمن لهم بقوله: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧] ، فنهوا له عن كل معصية ، وتجرعوا فيه كل غصة ، وخاضوا فيه كل غمرة ، ولم يرهبوا عند ذلك مخلوقا ، ولم يقعدهم عن القيام بواجب حق الله كثرة عدو ، ولا استحقاق^(١) جمع ، ولا تعاضم جبروته^(٢) . فهذه صفة القائمين لله بحقه ، من العالمين بباطن حكمته ، وعظيم جبروته.

وأما أهل العلم الظاهر فإنهم ينظرون بظاهر أبصارهم إلى ظاهر أهل الدنيا ، وليس معهم معرفة الباطن من عظيم جلال الله وواجب حقه ، ولذلك عظم عندهم شأن أهل الدنيا ، وما رأوا من سلطانهم وظاهر سلاحهم وكثرة جمعهم ، فيقع الظاهر من النظر على الظاهر من الدنيا فيدخله رهبة ، لضعف علم باطنه و يقينه ، فينتج له ذنب التقصير في أمر ربه ، والتفريط فيه لخوف سطوة خلقه ، كما قال الله جل ثناؤه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ...﴾

[الحج: ١١] الآية ، فهذه صفة أهل الضعف والغفلة من علم أهل الظاهر ، وقد قال الله تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾ [الروم: ٧] ، وعن أنهم غفلوا مما أعد لهم من الثواب على صبرهم

(١) في (أ) و(ب): استحقا. مهمله ، والاستحقاق: الاحتشاد.

(٢) في المخطوطات: حيرته. إلا أنه ظن في (ج) بما أثبت. وهو الصواب.

عما نزل بهم من المخلوقين في جنب طاعته ، وما توعدهم ^(١) به من العقاب عن تقصيرهم في أمره ، ولم يعلموا إلا ظاهر ما شاهدوه بحواسهم ، وقد مدح الله عز وجل أهل الباطن بالقيام لله بحقه ، وذم أهل العلم الظاهر بالتقصير في أمره ، والقعود في واجب حقه ، فأما مدح أهل العلم الباطن فقد ذكره بقوله:

﴿الْمَرْءُ أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَ أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾

وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ... ﴿[العنكبوت: ١-٣] الآية ، وقال: ﴿الَّذِينَ قَالَ

لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ...﴾ [آل عمران: ١٧٣] الآية ،

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ

وَالْيَوْمَ الْآخِرَ﴾ [الأحزاب: ٢١] ، وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا

يَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢] ،

وقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخِلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ

قَبْلِكُمْ...﴾ [البقرة: ٢١٤] الآية ، وقال لموسى عليه السلام: ﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا

﴿[طه: ٤٠] ، قال: اخترناك اختباراً ، وقال ابن عباس في حديث الفتون: »

وذلك من الفتون والله خبير « ^(٢).

وقال أنس بن مالك عن النبي عليه السلام: » لقد أوديت في الله وما يؤذى في

الله أحد ، ولقد أخفت في الله وما يخاف في الله أحد ، وإن كان ليمضي عليّ

(١) في (أ) و(ب): وما توعدوهم.

(٢) لم أقف عليه.

ما بين ثلاثين يوما وليلة مالي طعام ولا شراب يأكله ذو كبد جائع ، إلا ما يواريه إبط بلال » ^(١).

وقال الحسن: « نخطبنا عتبة بن غزوان بالبصرة ، فقال: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] سابع سبعة ما لنا طعام إلا ورق الحبلبة ^(٢) ، حتى إن كنت لأرى خضرته من وراء بطني ، وما من اليوم رجل إلا وهو أمير على مصر من الأمصار » ^(٣).

(١) عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((لقد أخفت في الله وما يخاف أحد ولقد أوديت في الله وما يؤذى أحد ولقد أتت علي ثلاثون من بين يوم وليلة ومالي ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه إبط بلال)) .

أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ٥١٦/ح ٦٥٦ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٤٥/ح ٢٤٧٢ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٥٤/ح ١٥١ ، وابن حنبل في مسنده ج ٣/ص ١٢٠/ح ١٢٢٣٣ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٦/ص ١٤٦/ح ٣٤٢٣ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٣٩٢/ح ١٣١٧ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ٣١٣/ح ٣١٧٠٤ .

(٢) الحبلبة: بقلة لها ثمرة كأنها فيقر العقرب ، تسمى: شجرة العقرب. والحبلبة: ثمر السلم والسيال والسمر ، وقيل: ثمر عامة العضاة. لسان العرب.

(٣) ورد عن سعد بلفظ: ((رأيتني سابع سبعة مع النبي صلى الله عليه وسلم ما لنا طعام إلا ورق الحبلبة أو الحبلبة حتى يضع أحدنا ما تضع الشاة ، ثم أصبحت بنو أسد تعزري على الإسلام خسرت إذا وضل سعيي)) .

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٥/ص ٢٠٦٦/ح ٥٠٩٦ ، ومسلم في صحيحه ج ٤/ص ٢٢٧٩/ح ٢٩٦٧ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٣٩٢/ح ٤١٥٦ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ١٧٤/ح ١٤٩٨ ، والطبراني في مسنده ج ١/ص ٢٢/ح ١١٥٨ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج ١/ص ٢٣٠/ح ٣٠٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١/ص ١٠٦/ح ٥٢٠ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٨٣/ح ٧٣٢ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٤٠/ح ٣٤٠٣٩ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٢٧٤/ح ٢٤١٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٣/ص ١٠٠/ح ٢٦١٣ .

وقال عبد الرحمن بن عوف: « ابتلينا بعده بفتنة الضراء مع نبينا عليه السلام ، فضمرنا ، وابتلينا بعده بفتنة السراء فلم نصبر » ^(١). وقال خباب بن الأرت: « هاجرنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم [ابتغاء مرضات الله ، فمننا من مضى لسبيله لم تقصه الدنيا ولم تأكل من حسناته شيئا ، منهم مصعب بن عمير قتل يوم أحد ، فالتمسنا له كفنا يسعه فلم نجد له ثوبا إلا غمرة كانت له إذا غطينا بها قدميه بدا رأسه ، وإن غطينا بها رأسه بدأ قدماه ، قلنا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: غطوا رأسه ، واجعلوا على قدميه شيئا من أذخر » ^(٢) ، وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم حين وقف على مصعب بن عمير بين يديه فرأى النبي ما به من شدة الجهد والعري ، وعليه أطمار بالية ، فقال: « عجبت للدنيا وتقلبها بأهلها!! ثم تغرغت عينا رسول الله صلى الله عليه

(١) عن عبد الرحمن بن عوف قال: ((ابتلينا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بالضراء فصبرنا ، ثم ابتلينا بالسراء بعده فلم نصبر)) أخرجه الترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٤٢/ح ٢٤٦٤.

(٢) عن خباب بن الأرت قال: ((لما كان يوم أحد قتل مصعب بن عمير رحمه الله ولم يترك إلا غمرة ، وكان إذا غطى بها وجهه ورأسه بدت رجلاه ، وإذا غطى بها رجلاه بدا رأسه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غطوا بها رأسه وضعوا على رجله شيئا من الأذخر)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ٤٢٨/ح ١٢١٥ ، ومسلم في صحيحه ج ٢/ص ٦٤٩/ح ٩٤٠ ، والنسائي في سننه ج ٤/ص ٣٩/ح ١٩٠٣ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٥/ص ٤٨٦/ح ٧٠١٨ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٦٩٢/ح ٣٨٥٣ ، وأبو داود في سننه ج ٣/ص ١٩٩/ح ٣١٥٥ ، وابن حنبل في مسنده ج ٥/ص ١٠٩/ح ٢١٠٩٦ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ٨٤/ح ١٥٥ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٣/ص ١٤٥/ح ٢٩٤١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٦٢٢/ح ٢٠٣٠ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٠١/ح ٦٤٧٤ ، وابن الجارود في المنتقى ج ١/ص ١٣٨/ح ٥٢٢ ، وابن المبارك في الجهاد ج ١/ص ٨٣/ح ٩٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٢/ص ٤٦٣/ح ١١٠٦٨ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٣/ص ٤٢٧/ح ٦١٩٥ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤/ص ٦/ح ٣٤٦٦.

[وآله وسلم] وقال: لقد رأيت هذا أجمل فتى في قريش وأعطره بين أثوابه ، وأخرجه من ذلك كله حب الله وحب رسوله «^(١) ، وقال حباب بن الأرت: « أتيت رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] وهو متوسد رداءه في ظل الكعبة ، فقلت: يا رسول الله ترى ما نحن فيه من الجهد فادع الله لنا بالنصر ، فاستوى مغضبا ثم قال: كان الرجل ممن كان قبلكم ليحفر له الحفير فيقاع فيها ، ثم يؤتى بالمنشار فينشر حتى يسقط لشقيه ، دما يحجزه ذلك في دينه وأن يقول الحق ، وإن كان الرجل ممن كان قبلكم ليؤتى بأمشاط الحديد فيمشط ما دون عظمه من لحم وجلد وعصب فما يحجزه ذلك عن دينه ، وأن يقول الحق ، ولكنكم تعجلون ، والذي نفسي بيده ليتمن هذا الأمر حتى يسير الراكب بين بصرى إلى حضرموت لا يخاف إلا الله »^(٢).

وقال عمرو بن العاص: « ما رأيت قريشا همت بقتل النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] إلا يوما واحدا ، قال بعضهم لبعض في الحجر: إذا رأيتموه احملوا عليه حملة رجل واحد حتى تقتلوه فلا يُعرف من قتله ، فيبناهم كذلك إذ جاء النبي فطاف بالبيت أسبوعا ، ثم أتى المقام فقام يصلي خلفه ، فحملوا عليه حملة رجل واحد عقبة بن أبي معيط ، ثوبه يهزه حتى خر ساقطا لركبتيه »^(٣) ،

(١) لم أقف عليه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ج ٣/ص ١٣٢٢/ح ٣٤١٦ ، والنسائي في سننه ج ٨/ص ٢٠٤/ح ٥٣٢٠ ، وابن حبان في صحيحه ج ٧/ص ١٥٧/ح ٢٨٩٧ ، وابن حنبل في مسنده ج ٥/ص ١١١/ح ٢١١٠٧ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ٨٦/ح ١٥٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٤/ص ٦٥/ح ٣٦٤٦٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٤٥٠/ح ٥٨٩٣.

(٣) عن عمرو بن العاص قال: ((ما رأيت قريشا أرادوا قتل النبي صلى الله عليه وسلم إلا يوما ائتمروا به وهم جلوس في ظل الكعبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي عند المقام ، فقام إليه عقبة بن أبي معيط فجعل رداءه في عنقه ثم جذبه حتى وجب لركبتيه ساقطا ، وتصايح الناس فظنوا أنه مقتول ، فأقبل أبو بكر يشند حتى أخذ بضبعي رسول الله صلى الله عليه وسلم من ورائه

فهذا ما امتحن الله به أهل القيام له بأمره ، حتى أورثهم ذلك الصدق في جميع المواطن ، لما آثروا من طاعة الله ، وتجرعوا من الصبر في ذات الله. فإذا قام العبد بدرجة الصدق في المواطن ، كان على معينين:

إما أن يرجع بأفضل الجهاد والسلامة.

وإما أن يحكم الله له بأفضل الجهاد والشهادة ، كما روى أبو سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إن أفضل الجهاد عند الله رجل تكلم بكلمة حق عند سلطان فقتله عليها »^(١) ، هذه صفة أهل القيل في الله بالصدق في مواطن الامتحان ، الذين لا تأخذهم في الله لومة لائم ، فإذا كانوا كذلك فقد قضوا الله ما يجب عليهم عند ذلك.

وروى أبو سعيد الخدري قال خرج مروان بن الحكم في إمارته في يوم عيد إلى المصلى ، فبدأ بالخطبة قبل الصلاة ، فقال له رجل: أما أنت فقد خالفت حكم رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] ، يقول: « المعروف باليد واللسان ، فمن لم يستطع [باليد] فباللسان ، فإن لم يستطع باللسان فبالقلب وذلك أضعف الإيمان »^(٢). وقال المقداد بن الأسود: « ورجل يثني على عامل لعثمان بن عفان عنده ، فجعل المقداد يحثوا في وجهه التراب ، فقال الزبير بن العوام:

ويقول أتقتلون: رجلا أن يقول ربي الله ، ثم انصرفوا عن النبي صلى الله عليه وسلم فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى ، فلما قضى صلاته مر بهم وهم جلوس في ظل الكعبة فقال: يا معشر قريش أما والذي نفس محمد بيده ما أرسلت إليكم إلا بالذبح ، وأشار بيده إلى حلقه ، فقال له أبو جهل: ما كنت جهولا ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت منهم)) .

أخرجه المنقي الهندي في كثر العمال ج. ٠/ص. ١١٧٧٦ ح.

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

أما المقداد فقد قضى ما عليه «^(١) ، فقد فسرنا باب الصدق ، ومن يصدق في المواطن فقد قضى ما عليه ، كما قال علي رضي الله عنه ، ونسأل الله التوفيق برحمته ، إنه حميد مجيد.

باب شنآن الفاسقين

وهو الشعبة الرابعة من الجهاد.

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: « من شئء الفاسقين غضب الله ، ومن غضب الله غضب الله له » ، وشنآن الفاسقين فرض على كل مسلم ، وذلك من النصيح لله ولرسوله وللمسلمين ، وذلك أن الفاسق المعلن لفسقه ، المتمرد على ربه ، قد كشف قناع الحياء ، وهتك ستر نفسه بالتعدي. قال أبو مسعود الأنصاري: عن النبي صلى الله عليه وآله: « إن مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولين إذا لم تستح فاعمل ما شئت »^(٢). وقال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إذا نزع الحياء من العبد كان بغیضا

(١) عن أبي معمر قال: قام رجل فأثنى على أمير من الأمراء ، فجعل المقداد يثو في وجهه التراب وقال: ((أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نثو في وجوه المداحين التراب)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص ١٢٤/ح ٣٣٩ ، ومسلم في صحيحه ٤/ص ٢٢٩٧/ح ٣٠٠٢ ، وابن حبان في صحيحه ١٣/ص ٨٣/ح ٥٧٦٩ ، والترمذي في سننه ٤/ص ٦٠٠/ح ٢٣٩٣ ، وابن ماجه في سننه ٢/ص ١٢٣٢/ح ٣٧٤٢ ، وابن حنبل في مسنده ٢/ص ٩٤/ح ٥٦٨٤ ، والطيالسي في مسنده ١/ص ١٥٨/ح ١١٥٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ١٢/ص ٤٣٥/ح ١٣٥٨٩ ، والطبراني في مسند الشاميين ١/ص ١٦٦/ح ٢٧٥٥ ، والقضاعي في مسند الشهاب ١/ص ٤١٣/ح ٧١١ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ١/ص ٢٢٥/ح ٢٩١ ، والبيهقي في سننه الكبرى ١٠/ص ٢٤٣/ح ٢٠٩٢٦ ، وعبد بن حميد في مسنده ١/ص ٢٥٨/ح ٨١٢ ، وابن الجعد في مسنده ١/ص ٤٢/ح ١٤٦ ، وعبد الرزاق في مصنفه ٥/ص ٢٩٧/ح ٢٦٦٦٠.

(٢) سبق تخريجه.

مبغضا»^(١). وقال ابن عباس في حديث طويل: عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم [أنه قال: «ألا أنبئكم بشر الناس؟ قالوا: بلى يا رسول الله. قال: من يبغض الناس ويبغضونه»^(٢). فإذا هتك الإنسان نفسه أظهر فسقه^(٣)، وتمدح به وتميق^(٤) بذكره، لغلبة الهوى عليه، حتى حس عنده القبيح، وقبح عند الحسن، وتجبر في فسقه، وعنى في طغيانه، وتطاول على أولياء الله، وتجبر عليهم، ومنع من جانبه من إنفاذ حكم الله فيه.

ففرض على جميع المسلمين أن ينظروا إلى هذا وأشباهه بوجه يهمزونه^(٥) ويبغضونه على أفعاله المردية، ويقصره على تركه، إذ كان الله مبغضا، ولفعله ساخطا، وذلك أن من هتك ستر نفسه بالإعلان لمعصيته، ولم يراقب في ذلك خالقه، ولا رعى حرمة أوليائه، فلم يستحيي منهم، ويظهر ما

(١) ورد الحديث بلفظ: ((إذا أبغض الله عبدا نزع منه الحياء، فإذا نزع منه الحياء لم تلقه إلا ببغضا مبغضا، ونزع منه الأمانة، فإذا نزع منه الأمانة نزع منه الرحمة، فإذا نزع منه الرحمة نزع منه ربة الإسلام، فإذا نزع منه ربة الإسلام لم تلقه إلا شيطانا مريدا)). أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج ١٠/ص ٥٧٩٨.

(٢) عن ابن عباس قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم على المنبر: ((ألا أنبئكم بشراكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: فإن شراركم الذي يزل وحده ويجلد عبده ويمنع رفته، قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: من يبغض الناس ويبغضونه. قال: أو أنبئكم بشر من ذلكم؟ قالوا: بلى، إن شئت يا رسول الله، قال: الذين لا يقلون عثرة، ولا يقبلون معذرة، ولا يغفرون ذنبا. قال: أفلا أنبئكم بشر من ذلك؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: من لا يرجي خيره، ولا يؤمن شره)). أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٠/ص ٣١٨/١٠٧٧٥، وأبو يعلى في مسنده ج ٧/ص ١٧/ح ٣٩١٠.

(٣) في (أ) و(ب): هتك سره أظهره بفسقه. مصحفة.

(٤) المائق: السوء الخلق.

(٥) في جميع المخطوطات: ما يهمزونه. يَبْدُ أنه ظنن في (ج) بما أثبت، ولعله الصواب.

يكرهون رؤيته من معاصي خالقهم ، فلا حرمة له في الإسلام ، ولا حظ له في الإيمان ، ولا غيبة له ، كما قال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] : « ثلاثة لا حرمة لهم : إمام جائر ، وفاسق معلن بفسقه ، وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته » ^(١).

وقال عمر عن النبي عليه السلام أنه قال : « أترعون عن الفاجر ؟ متى يعرفه الناس ؟ ذكروه بما فيه كي يحذر الناس » ^(٢) ، فهؤلاء لا حرمة لهم في الإسلام ، ولا غيبة لهم ، لأن الغيبة التي قال أبو ذر عن النبي [صلى الله عليه وآله وسلم] : « إنما هي للمسلم الأخ المستور بدين الله » ، كما قال النبي عليه السلام : « من قال لأخيه ما فيه فقد اغتابه ، ومن قال ما ليس فيه فقد بهته » ^(٣) ، فهذا هو الأخ كما قال النبي صلى الله عليه وآله ، فالفاسق المعلن لا

(١) ((ثلاثة لا حرمة لهم : فاسق معلن بفسقه ، وصاحب هوى ، وسلطان جائر)) . أخرجه المتقي الهندي في كتر العمال ج ١ / ص ١٠ / ح ٤٣٩٣٣ .

(٢) عن بخر بن حكيم عن أبيه عن جده ، قال : ((خطبهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : حتى متى ترعون عن ذكر الفاسق هتكوه حتى يحذر الناس)) .

أخرجه الطبراني في معجمه الكبير ١٩ / ص ٤١٨ / ح ١٠١٠ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١ / ص ٣٥٧ / ح ٥٩٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٤ / ص ١٠ / ح ٢١٠٣ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٤ / ص ٣٣٨ / ح ٤٣٧٢ . وفي كتر العمال ١٠ / ص ٨٠٧٠)) (أترعون عن ذكر الفاجر حتى يعرفه الناس فاذكروا الفاجر بما فيه يحذر الناس)) .

(٣) عن أبي هريرة قال : ((قيل : يا رسول الله ما الغيبة ؟ قال : ذكرت أخاك بما يكره ، قال : رأيت إن كان فيه ما أقول ، قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته)) .

أخرجه مسلم في صحيحه ج ٤ / ص ٢٠٠٢ / ح ٢٥٨٩ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٣ / ص ٧٢ / ح ٥٧٥٨ ، والترمذي في سننه ج ٤ / ص ٣٢٩ / ح ١٩٣٤ ، وأبو داود في سننه ج ٤ / ص ٢٦٩ / ح ٤٨٧٤ ، وابن حنبل في مسنده ج ٢ / ص ٢٣٠ / ح ٧١٤٦ ، ومالك في الموطأ ج ٢ / ص ٩٨٧ / ح ١٧٨٦ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٦ / ص ٤٦٧ / ح ١١٥١٨ ، والقضاعي في

يسمى: أخاه ، ولا كرامة له ولا مسرة ، لأن المؤمن أخ المؤمن ، والمؤمن هو الولي لله المعظم لمقامه ، والمجنب لجميع محارمه ، ما ظهر منها وما بطن ، مؤديا لجميع فرائضه ، بل يسارع إلى الله بالنوافل ، فكيف بترك الفرائض واجتناب المحارم؟ فهذا هو المبشر بالجنة ، لقوله: ﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنْ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٧] ، وقوله: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفَ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: ٦٢].

والفاسق المعلن فسقه من المردة أصحاب الزنا وأكل الربا وأموال الناس بالباطل ، وإتيان الذكران من العالمين ، والتطيف في المكيال والميزان ، وقذف المحصنات ، وما لا يوصف من كثرته ، وهو أعظم جرما من هؤلاء ، وأهتك ستر الأئمة الجور وأعوأهم العتاة الجفاة ، فهؤلاء أعداء الله وأعداء رسوله وملائكته وصالحى عباده ، فلا يستحقون في مقامهم في مبارزة الله وتعدّي حدوده أسماء المؤمنين من الإيمان والإسلام ، إذ كانا في الوعد والولاية ، فأسماء هؤلاء أسماء أهل الفسق والعدوان ، المستحقين لسخط الله ولعنته ، وأليم عقابه ، والخلود في عذابه ، بفحش جنائتهم ، وعظيم معصيتهم ، وإصرارهم على فجورهم.

وقد بين الله حكمه فيهم في كتابه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ ...﴾ [آل عمران: ١٣٥] الآية ، فلم يوجب المغفرة إلا بشرطة ^(١) التوبة ، ثم قال تعالى: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي

مسند الشهاب ج ٢/ص ٣٠٤/ح ١٤١٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ٢٤٧/ح ٢٠٩٥٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١١/ص ٣٧٩/ح ٦٤٩٣ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٥/ص ٢٣٠/ح ٢٥٥٣٨ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٨٨/ح ٢٧١٤ .

(١) في (أ) و(ب): بالشريطة. مصحفة.

نَعِيمٍ ﴿٦﴾ وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ ﴿٧﴾ ... ﴿[الانفطار: ١٣-١٤] الآية ، ثم قال جل ذكره تأكيداً للبيان في وعيد أهل الصلاة من أهل الذنب والآثام ، والمتعدين لحدود ^(١) الله: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهْلَةٍ ... ﴿[النساء: ١٧] الآية ، فأخبر أن من حكمه أن لا يعفو إلا من بعد توبة ، ثم قال مؤكداً ومخذراً وزاجراً ومنبهاً ، وواعظاً ومخوفاً ، وراحماً وناظراً: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ آلَتَنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ... ﴿[النساء: ١٨] الآية ، فأخبر تعالى وعز أنه لا يقبل التوبة عند الموت من الكافرين ، ولا من الفاسقين من أهل الصلاة ، فأزاح الشك في أمرهم ، أنه لا يجوز أن يغفر لهم بعد الموت بلا توبة تكون منهم ، لأنه لو كان ذلك مما يجوز في وصفه وحكمه ، لقبل منهم التوبة عند الموت ، التي بقبولها يكون الغفران ، فلما ردها عند المعاينة ولم يقبلها ، قطع عذر عباده الفهيمين عنه ، وحذّرهم بعقابه تحذيراً ألا يؤخروا التوبة إلى وقت لا ينفعهم قبولها فيه ، كما لم ينفع ذلك غيرهم من الكافرين ، ولو لا ما أحب من إعلامه مع قطع عذرهم ، والرحمة لهم ، ما قرن رد توبتهم برد توبة الكافرين ، وإنما أراد بذلك تعالى وعز إزاحة الشك عنهم ، لأنه لو جاز الشك في ذلك وقد قرنه برد توبة الكافر لجاز الشك في وعد الكافرين. وإن كان لم يقبل توبتهم عند الموت ثم أكد ذلك بقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتًا لِيُرَوْا أَعْمَالُهُمْ ﴿٨﴾ ... ﴿[الزلزلة: ٦] إلى آخر السورة. وقال تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ ﴿[النساء: ١٢٣] ، وأكد للقاتل الخلد في النار ، ثم أكد ذلك وبينه بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ

(١) في (أ) و (ب): محدود.

النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٥٨﴾ ... إل قوله: وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴿[الفرقان: ٦٨ - ٧١]﴾ ، فأخبر أنه لا يغفر للكافرين ، ولا لغيرهم من الزناة والقتالين ، إلا بالتوبة والعمل الصالح ، فإذا كان لا يجوز ذلك في حكمه ، فأنى لهم بالغفران في القيامة؟ تعالى الله عما يدعيه أهل النقص والجهل والعمى من إخلاف وعيده علوا كبيرا.

ثم أكد ذلك بسنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله فقال عليه السلام: « إن التوبة مبسوطة دون أن يغرغر المرء بنفسه ، ودون المعاينة » ^(١) ، فإن قال بعض أهل النقص ممن يدعي الشفاعة لأهل الكبائر: فإن الرحمة تنغمدهم بالشفاعة ، لما قد جاء في الأثر: أن « الشفاعة لأهل الكبائر » ^(٢) ، قيل له: إن الأحاديث في الشفاعة تختلف فيها ، وقد قال قوم بالرواية أن الشفاعة تكون قبل دخول النار ، ورغموا أنه لا وعيد في أهل الصلاة ، وكانوا بذلك قد أبطلوا ما أوجبه على العصاة من عبادته ، بما ذكرناه في هذه الأبواب.

(١) سبق تخريجه.

(٢) أخرجه ابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ٣٨٧/ح ٦٤٦٧ ، الطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢٧٠/ح ٢٠٢٦ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٦٢٥/ح ٢٤٣٥ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٣٦/ح ٤٧٣٩ ، وابن حنبل في مسنده ج ٣/ص ٢١٣/ح ١٣٢٤٥ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ١٤٠/ح ٢٢٨ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٢٣٣/ح ١٦٦٩ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١/ص ٢٥٨/ح ٧٤٩ ، وفي معجمه الصغير ج ١/ص ٢٧٣/ح ٤٤٨ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ١٦٧/ح ٢٣٦ ، والحاتر الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ١٠٠٩/ح ١١٣٢ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٨/ص ١٨/ح ١٥٦١٦ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٦/ص ٤١/ح ٣٢٨٤ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٩/ص ٧٧/ح ٩١٧٧.

واستوحش من ذلك آخرون من أهل الحديث ، فقالوا: الشفاعة لا تكون إلا بعد العذاب ، ورووا^(١) في ذلك أحاديث ، « أنهم يخرجون من النار بعد ما امتحشوا ، مكتوب على وجوههم أنهم الجهنميون »^(٢) ، وقال آخرون

(١) في المخطوطتين: ووردوا. مصحفة ، ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) عن عمرو بن أنس قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((إني لأول الناس تنشق الأرض عن مجمعي يوم القيامة ولا فخر ، وأعطى لواء الحمد ولا فخر ، وأنا سيد الناس يوم القيامة ولا فخر ، وأنا أول من يدخل الجنة يوم القيامة ولا فخر ، وأني آتي باب الجنة فأخذ بحلقها فيقولون: من هذا؟ فيقول: أنا محمد ، فيفتحون لي فأدخل ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له ، فيقول: ارفع رأسك يا محمد ، وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمي أمي يا رب ، فيقول اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من شعير من الإيمان فأدخله الجنة ، فأقبل فمن وجدت في قلبه ذلك فأدخله الجنة ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له ، فيقول: ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمي أمي أي رب ، فيقول: اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه نصف حبة من شعير من الإيمان فأدخلهم الجنة فأدخلهم الجنة ، فاذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلهم الجنة ، فإذا الجبار عز وجل مستقبلي فأسجد له فيقول: ارفع رأسك يا محمد وتكلم يسمع منك ، وقل يقبل منك ، واشفع تشفع ، فأرفع رأسي فأقول: أمي أمي ، فيقول: اذهب إلى أمتك فمن وجدت في قلبه مثقال حبة من خردل من الإيمان فأدخله الجنة ، فاذهب فمن وجدت في قلبه مثقال ذلك أدخلتهم الجنة ، وفرغ الله من حساب الناس وأدخل من بقي من أمي النار مع أهل النار ، فيقول: أهل النار ما أغني عنكم إنكم كنتم تعبدون الله عز وجل لا تشركون به شيئا ، فيقول الجبار عز وجل: فبعزني لأعتقنهم من النار ، فيرسل إليهم فيخرجون وقد امتحشوا فيدخلون في نهر الحياة فينبتون فيه كما تنبت الحبة في غطاء السيل ، ويكتب بين أعينهم: هؤلاء عتقاء الله عز وجل ، فيذهب بهم فيدخلون الجنة فيقول لهم أهل الجنة: هؤلاء الجهنميون ، فيقول الجبار: بل هؤلاء عتقاء الجبار عز وجل)) .

أخرجه مسلم في صحيحه ج ١/ص ١٨٨/ح ١٩٦ ، وابن حبان في صحيحه ج ١٤/ص ٣٩٩/ح ٦٤٧٨ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٣٠٩/ح ٣١٤٨ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١٤٣٨/ح ٤٣٠١ ،

بالحديث أنهم معذبون مخلدون في رواية عن النبي صلى الله عليه وآله أنه قال: «من وجأ نفسه بحديدة، فهو يجأ نفسه بحديدة، في النار خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل عمدا فقتل نفسه فهو يتردى في النار خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تحسا سما فقتل نفسه فهو يتحسا في النار خالدا مخلدا فيها أبدا» (١).

فلما اختلف الرواة في ذلك لم تقم فيها حجة إلا ما وافق الكتاب والسنة فيها، وهو إيجاب الوعيد والخلود على ما شرحناه من محكم كتابه، وقد أبطل الله ذلك بقوله: ﴿وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى﴾ [الأنبياء: ٢٨]، ومن ارتضاهم فهم أهل طاعته، وكذلك أوجب على الملائكة - لهم في الدنيا ليجعل ذلك دليلا على الآخرة - أن يستغفروا لهم، فقالوا: ﴿أَغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا

وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢١٨/ح ٤٦٧٣، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٢٨٢/ح ٢٥٤٦، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ٨٤/ح ٨٢، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٢/ص ١٦٦/ح ١٢٧٧٧، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٤٠١/ح ٧٦٩٠، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج ١/ص ٣٥٢/ح ٥٠٧، والحوارث الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٨٧١/ح ٩٣١، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٩/ص ٤/ح ١٧٤٩٢، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٣٠٣/ح ١٠٢٨، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٢٣١/ح ٦٩٥، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٦/ص ٣٠٩/ح ٣١٦٨١، والدارمي في سننه ج ١/ص ٤٠/ح ٤٨، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٦١/ح ١٧٠.

(١) عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ((من تحسى سما فقتل نفسه فهو يتحساه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديده في يده يترجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا، ومن تردى من جبل فقتل نفسه فهو يتردى في نار جهنم خالدا مخلدا فيها أبدا)).

أخرجه ابن ماجه في سننه ج ٢/ص ١١٤٥/ح ٣٤٦٠، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٧/ح ٣٨٧٢، وابن حنبل في مسنده ج ٢/ص ٤٧٨/ح ١٠١٩٨.

سَبِيلَكَ وَفِيهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿٧﴾ [غافر: ٧] ، ولم يقولوا: اغفر للذين عصوا وصدوا عن سبيلك وفهم عذاب الجحيم ، فاولاء من لم يخالف الملائكة والأنبياء صلوات الله عليهم في الشفاعة ، ثم هكذا أوجب على المؤمنين الاستغفار لإخوانهم بقولهم: اغفر لنا وللمؤمنين والمؤمنات عند الدعاء ، وقال الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ [الحشر: ١٠] ، ولم يجز لهم أن يقولوا لإخوانهم الذين سبقوهم بالفسق والعصيان!! وكذلك أوجب عليهم في تشهد الصلاة المفروضة عند قولهم السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ولم يقل الصالحين!!

والكتاب والسنة إنما يثبت الشفاعة للمؤمنين التائبين المحسنين ، دون الفاسقين من أهل الكبائر ، فإن قالوا وما يحتاج التائبون إلى الشفاعة؟! وقد قال الله جل ثناؤه^(١): ﴿ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ﴾ [التوبة: ٩١] ، قيل لمن قال منهم: إنهم يعذبون بقدر ذنوبهم ثم يشفع لهم: ما يصنعون بالشفاعة في تلك الحال وهم كمن لا ذنب له ، وما على المحسنين من سبيل؟! فإن قالوا هم: وإن كانوا لا ذنب لهم فإنما استحقوا دخول الجنة بشفاعة النبي صلى الله عليه وآله وسلم] ، ولا فرق بيننا وبينكم في هذا ، إلا أن ترجعوا إلى قول إخوانكم الذي هو خطأ عندكم فتردون وتبطلون حديث الجهميين في الخروج من النار ، وإن رجعوا إلى ذلك احتججنا عليهم بحديث الوعد والخلود الذي قد شرحناه في محكم الكتاب والسنة ، وما أبان الله فيهما من إيجابه الوعيد واللعنة والخلود على العصاة من عباده المصيرين غير التائبين ، ولو لا أننا لم نقصد إلى هذا الكتاب وشرحه لزدنا من حجج الله تبارك وتعالى ، وفيما قلنا بلاغ لمن

(١) في (أ) و(ب): قال تعالى جل ذكره.

فَهُمْ عَنْ اللَّهِ وَلَمْ يَعَانِدْ حُجَّةَ خَالِقِهِ ، وَإِنَّمَا أَرَدْنَا بِمَا ذَكَرْنَا مِنَ الْأَدْلَةِ^(١) أَسْمَاءَ أَهْلِ الطَّهَارَةِ ، وَإِجَابَ الْخُلُودِ فِي النَّارِ عَلَى الْعَصَاةِ مِنْ عِبَادِهِ الْمُتَهَكِّينَ لِحَارَمِهِ ، الصَّادِينَ عَنْ سَبِيلِهِ ، لَمَّا أَوْجَبَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ مِنْ مَنَعِهِمْ مِنْ ذَلِكَ بِكُلِّ مَا أَمَكْنَهُمْ وَوَجَدُوا إِلَيْهِ سَبِيلًا ، إِذَا أُيْقِنُوا بَعْدَاوَةَ اللَّهِ لَهُمْ وَإِجَابَ وَعِيدِهِ عَلَيْهِمْ ، لِيَكُونَ أَثْبَتَ لَيَقِينِهِمْ ، وَأَرْسَخَ لِعِدَاوَتِهِمْ فِي ذَاتِ اللَّهِ ، فَلِذَلِكَ ذَكَرْنَا هَذِهِ الْجُمْلَةَ وَاقْتَصَرْنَا عَلَيْهَا ، وَبِاللَّهِ نَسْتَعِينُ عَلَى أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .

فَلَمَّا ثَبَتَ ذَلِكَ بِمَا شَرَحْنَا مِنْ حُجَجِ اللَّهِ ، كَانَ وَاجِبًا عَلَى أَهْلِ الْيَقِينِ الْمَخَالَفَةَ وَالْإِعْظَامَ لِلَّهِ وَلِمَقَامِهِ وَحُدُودِهِ ، الَّذِينَ لَا تَأْخُذُهُمْ فِي اللَّهِ لَوْمَةٌ لَائِمٌ ، أَنْ يَعَادُوا^(٢) مِنْ اتِّهَكِ حَرَامِ اللَّهِ وَعَطْلِ حُدُودِهِ ، وَبَذْرِ أَمْوَالِهِ ، وَاتِّخَاذِ عِبَادِهِ خَوْلًا ، وَمَالِهِ دَوْلًا ، وَدِينِهِ مَهْمَلًا ، وَفَيْتِهِمْ نَهْبًا ، وَعَهْدِهِ مَرِيحًا ، دُونَ الْمُبَايَنَةِ لَهُ ، وَمَنْعِهِ عَنْ ظَلَمِهِ ، أَوْ ابْتِزَازِهِ لِلْإِمَامَةِ الْمَحْكُومِ بِهَا لِغَيْرِهِ ، بِحُكْمِ اللَّهِ وَحُكْمِ رَسُولِهِ ، فَإِنْ رَاجَعَ بِهَذَا الْإِعْذَارَ وَالْإِنْذَارَ ، وَتَابَ وَأَتَابَ كَفُّوا عَنْهُ ، وَأَقَامُوا عَلَيْهِ مِنْ حُكْمِ اللَّهِ عَلَى قَدَرِ مَا اجْتَرَحَهُ فِي نَفْسِهِ مِنْ قَتْلِهِ إِنْ كَانَ قَتَلَ ، وَجَلْدِهِ إِنْ كَانَ زَنَى ، وَإِقَامَةِ الْحُدُودِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ قَذَفَ ، وَرَدَّ مَا احْتَجَزَ مِنَ الظُّلُمَاتِ عَلَى أَهْلِهَا ، وَمَا سِوَى ذَلِكَ مِمَّا اتِّهَكَ عَلَى مَا حَدَّ اللَّهُ^(٣) عَلَيْهِ فِيهِ وَوَقَّتَهُ . فَإِنْ لَمْ يَرَاجِعْ وَيَرْعُوي بِالْقَوْلِ وَنَابِذَ الْحَرْبَ وَبَغَى عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ ، وَتَسَلَّطَ بِالْجَبَرُوتِ ، وَعَلَا بِالْقَهْرِ ، يَجْعَلُ حُكْمَ اللَّهِ وَكَلِمَتَهُ السُّفْلَى ، وَحُكْمَ الشَّيْطَانِ وَكَلِمَتَهُ الْعُلْيَا ، اسْتَعْمَلَ فِيهِ حُكْمَ اللَّهِ بِقَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى ... ﴾ [الحجرات: ٩] الْآيَةَ ، فَالْوَاجِبُ عَلَى مَنْ فَهِمَ عَنْ اللَّهِ أَمْرَهُ ، وَقَامَ لِلَّهِ

(١) فِي (أ) وَ (ب): إِدَالَةٌ.

(٢) فِي (أ) وَ (ب): أَلَا يَعَادُوا. مَصْحُفَةٌ.

(٣) فِي (أ) وَ (ب): مِمَّنْ اتِّهَكَ عَلَى حَدِّ اللَّهِ.

بالقسط في خلقه ، إذا رأى باغيا أن يمنعه من بغيه ، فإن حاربه على ذلك حاربه تقربا إلى الله بجهاده ، حتى يفيء إلى أمر ربه ، كما وجب عليه محاربة أعدائه من الكافرين ، حتى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون . وكيف لا يجب ذلك مع قوله عز وجل : ﴿ إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ... ﴾ [المائدة: ٣٣] الآية ، ولا محاربة لله أشد بعد الكفر ، ولا أعظم عند الله ممن حَرَبَ أوليائه ، وأهل طاعته ، وأئمة المتولين لأحكامه ، وإقامة حدوده ، والمقسطين بين عباده ، الحاكمين فيهم بقوله ، وحكم كتابه ، وسنة رسوله ، صلى الله عليه [وآله وسلم] لبيدارا ذلك كله ، ويحكموا فيه بخلاف ما أنزل الله وحكم به ، فحرب هؤلاء أولى وأوجب من محاربة الكافرين ، لأن مخالفة أئمة الهدى يفسد على الأمة أمر دينهم ، ويبتل بذلك جهادهم لأهل الكفر من أعدائهم ، إذا كان الله سبحانه إنما أوجب ذلك مع الهداة من أئمة القائمين فيه بحكمه ، والداعين فيه إلى دينه ، والعاقدين فيه لذمة نبيه صلى الله عليه [وآله وسلم] ، الموفون بعهدهم وذمتهم ، لا مَنْ نَقَضَ عهد الله في نفسه وأهل دعوته وأحكام ربه .

وكيف يعقد الذمة لمن جعلها [حربا لله ولدينه ، ويسعى في الأرض فسادا] ^(١) ، بل لا يراقب في المؤمنين إلا ولا ذمة ، وإذا كان أهل دار الحرب إنما أباح الله قتالهم بعد امتناعهم على من لم يف ^(٢) لهم بذمة الله وذمة رسوله صلى الله عليه [وآله وسلم] ، وحرام على أهل الإيمان معاونة من يحاربهم ، لأن كل ما أخذ منهم ^(٣) وفعل بهم ظلما أو تعديا لحكم الله ، وبما حده ^(٤) في قتالهم ،

(١) في (أ) و(ب): لمن جعلها ان اثرها بل. وفي (ج): من حلقها الله ان اثرها. وما أثبت اجتهاد.

(٢) في (أ) و(ب): من يفي.

(٣) في (ج): يحاربهم أو يقاتلهم وفعل ...

(٤) في (أ) و(ب): حدهم.

وإنما جعل الله ^(١) ذلك للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ولأئمة الهدى من آل الطاهرين في كل عصر وزمان ، فجاهد على حكم الله من امتنع عليه من أهل الإسلام وإعطاء الجزية ، فإذا غنم أموالهم حكم فيها بحكم الله ، وجعل خمسها حيث أمره الله ، ولم يكن كمن اغتصب المسلمين إمامتهم وأموالهم وغنائمهم وجميع فيئهم ، وصدقاتهم التي جعلها الله معونة لضعفه خلقه ، يقسم ذلك بين الأعوان من أصحابه ، والمعينين له على ظلمه من أهل الحيرة والجهل والعداوة والسفه ، ممن يدعي - بزعمه - الإسلام ، وينصر دين محمد عليه السلام ، واستعان على ذلك بما اغتصب الضعفة والمسلمين والفقراء والمساكين ، على شرب خموره ، وركوب فجوره ، ولباس حريره ، وتشديد قصوره ، ولم يدع محرما إلا انتهكه ، ولا بابا للإسلام إلا ردمه ، ولا منارا للحق إلا هدمه ، ونهض للإسلام من مأمنه ، وبدل سنته وأحكامه ، ولم يحكم بحلاله ولا حرامه ، فأفسد على عباد الله معائشهم ، وموّه على أكثرهم أمر دينهم.

فهل يشكل هذا البيان الواضح على ذي عقل إذا تدبره؟! ثم تفكر فيه واعتبره ، ومع هذا كله أفسد عليهم جمعهم وأعيادهم ، لأن الله جل ذكره إنما جعل القوأم بما المهتدين من أئمة ، وحظرها على الفجرة من عباده ، يقول نبيه صلى الله عليه وآله: « يؤمكم خياركم » ^(٢) ، ولقوله عليه السلام: « لا يؤمنكم ذو جرأة في دينه » ^(٣) ، ويقول صلى الله عليه وآله وسلم: « لا يؤمن فاجر برا » ^(٤) ، وبإجماع أئمة أن العدل مستحق لها من آل محمد

(١) سقط من (أ) و(ب): جعل الله.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) لم أقف عليه.

واختلافهم في غيره ، فلا يزول عن أحد فضل صلاة أو جبوها بإجماع لا باختلاف ، فقد أجمعوا أن الذي يجب من الصلاة يوم الجمعة أربع ركعات ، إلا أن يكون إمام عدل من آل محمد عليهم السلام ، وجماعة من المؤمنين ووقت ^(١) ، فإذا وجد ذلك زال فرض الأربع إلى الركعتين ، واختلفوا في الصلاة مع الإمام الجائر ، فأكثر الأمة لا يجيزها ، والذين أجازوها إنما ذهبوا في ذلك إلى رواية شاذة قد تأولها غيرهم على غير ما ذهبوا إليه ، وهي روايتهم « أن الصلاة جائزة خلف كل بر وفاجر » ^(٢) ، فقال المخالفون لهم في ذلك: إن قول النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] لا ينقص بعضه بعضا ، وقد روي أن سبب هذا القول منه صلى الله عليه [وآله وسلم] إنما كان جوابا لهم عندما سألوهم عن قوم كانوا يتقدمونهم في الصف الأول من المنافقين ، فقالوا: « يا رسول الله هل يضرنا ذلك شيئا؟ قال: لا ، الصلاة خلف كل بر وفاجر » ^(٣) ، فإذا كان قد أمك في ^(٤) الصف الأول لا يضررك بعد أن يكون الإمام برا مرضيا ^(٥) ، وإنما كانوا سألوهم عن ذلك لأنه كان أمرهم أن « يليه ذو النهى منهم » ^(٦) ، وكذلك السنة في كل عصر أن أخيار أهل المحال إنما يجب أن يكونوا الأئمة والمؤذنين.

(١) في المخطوطات: ووقتا. ولعل الصواب ما أثبت.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ب): كان إمامكم في.

(٥) في (أ) و(ب): برا أيضا. مصحفة.

(٦) عن أبي مسعود البدري قال: ((كان النبي صلى الله عليه وسلم يسوي مناكبنا ، يعني في الصلاة ،

ويقول: استوتوا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم ، وليليني منكم أولو الأحلام والنهى ، ثم الذين يلونهم

ثم الذين يلونهم)).

وهذا إنما يُورث على من كان عليه العمل في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأئمة الهدى ، مع أن الإجماع قد ثبت من وجه الحجة لمن أنصف من نفسه أنه لا يجوز الصلاة خلف أئمة الجوز في حكم الله وحكم رسوله ، وذلك أنهم قد أجمعوا جميعاً أن جماعة لو خرجوا على أبي بكر من أهل القبلة باغين عليه ، ثم غلبوا على مدينة أنه لا يحل لأهل تلك المدينة الصلاة معهم والإمام قائم ، وكذلك لو تغلبوا على عدة مدن لم يحل لهم ذلك ، وأنهم لم يضيعوا فرضاً بتركهم الصلاة معهم ، ثم زعمت طائفة منهم لنقص علمها وقلة فهمها عن ربها: أنهم إذا جاءوا فقتلوا المهاجرين والأنصار وأبا بكر ، وأطفأوا نور الله ، وعطلوا أحكامه ، وهدموا دينه ، وأخافوا عباده ، وأفسدوا بلاده ، ولم يتركوا حرمة الله في أرضه نالها أيديهم إلا انتهكوها ، أنه وجب لهم مع تكامل معصيتهم ما لم يكن يجب لهم مع نقصان معصيتهم ، لو فهمت هذه الطائفة عن نفسها مناقضتها ، لعلمت أن العلة التي منعها من أجلها أن تُجوز الصلاة معهم وجود المعصية ، فهي في هذا الحال أعظم ، وإن كان

أخرجه مسلم في صحيحه ج ١/ص ٣٢٣/ح ٤٣٢ ، والنسائي في سننه ج ٢/ص ٨٨/ح ٨٠٧ ، وابن حبان في صحيحه ج ٥/ص ٥٣٥/ح ٢١٦١ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ٣/ص ٢١/ح ١٥٤٢ ، والترمذي في سننه ج ١/ص ٤٤٣/ح ٢٢٨ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٣١٣/ح ٩٧٦ ، وأبو داود في سننه ج ١/ص ١٨١/ح ٦٧٥ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٤٥٧/ح ٤٣٧٣ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ٧٦٥/ح ٢١١٢ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٨٥/ح ٦١٢ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١٠/ص ٨٨/ح ١٠٠٤١ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ١/ص ٢٨٧/ح ٨٨١ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ٢/ص ١٨٠/ح ٩٨٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٩٧/ح ٤٩٤١ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٩/ص ٤٨/ح ٥١١١ ، وابن الجارود في المنتقى ج ١/ص ٨٧/ح ٣١٥ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ١/ص ٣٠٨/ح ٣٥٢٧ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ٢/ص ٤٥/ح ٢٤٣٠ ، والدارمي في سننه ج ١/ص ٣٢٥/ح ١٢٦٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٢٢٥/ح ٧٣٩ .

منعها القيام بالإمام فلا إمام اليوم وإذ ذاك قائم في حكم الله ، لو لا منع البغاة وأعوأهما العتاة من إقامته ، ولكن هذه الفرقة من النابتة وأصحاب الحديث ليس معها علم بما تقول ، ولا يوقف منها على عقد محصل.

فإن قال منهم قائل: أو ليس قد قال الله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: ٩] ، فقد أوجب الله السعي؟! فقل لهم: إن الله قد أوجب السعي إلى ذكره ، ولم يوجب السعي إلى الفرية عليه وعلى أوليائه ، لأن البغاة العتاة المبتزين لأمره إذا قالوا: اللهم أصلح عبدك وخليفتك كذبوا على الله وافتروا عليه ، لأن خلفاء الهداة المهتدون من عبادته ، كما قال لخليله صلى الله عليه: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٢٤] ، وكذلك إذا دعا الجائرون^(١) لهم على أعدائهم ، فإنما يدعون لينصروا^(٢) على أولياء الله من أنبيائه ورسله وملائكته ، والمهتدين من أئمة الصالحين من خلقه من الجن والإنس ، بأن هؤلاء كلهم أعداؤه المفسدون في أرضه ، والمتهكون لمحارمه ، إذ كان الله لهم عدوا ، فإذا كان حكم الله المنع من معصية الله ، وأقل ما يجب لله على أهل المعرفة به ، إن لم يقم له بالنهي عنه مع قتلهم وضعفهم ، أن لا يحضر موضع الإعلان بها طائعا غير مكره.

وتفسير الآية دالة لمن فهم عن الله أنه لا يحل لهم السعي إلى البغاة الظلمة من عبادته ، لأنها إنما نذبت إلى ذكره لا إلى الصد عن ذكر الله ، إنما هو الصلاة ، فإذا كان قد حضر الصلاة خلف من يدعو إليها بما قد أجمعوا على عدد من

(١) سقط من (أ) و(ب): وكذلك إذا دعا الجائرون.

(٢) في (أ) و(ب): ينصروا.

سمع النداء من هذا الظالم قبل تغلبه على الدار ، فبان لهم فيه بهذا ^(١) أن الصلاة لم تجب بالنداء للنداء ، وإنما تجب بما أجمعوا عليه: من مصر وإمام عادل وجماعة من المسلمين ووقت ، أولاً فلا جمعة بلا جماعة ، وإنما تجب الصلاة أربع ركعات كما أوجبوا على من سمع نداء هذا الظالم قبل تغلبه على الدار وأهلها ، فهذا مع ما يدخل الباغي من الضرر على الدين وأهله ، وكثرة ما يظهر فيه منهم ممن يبغي عليهم ، فيحتير ضعيفهم ويشككهم في صحته ، فبلاؤهم على أهلهم ومضرهم عليه تكاد أن تكون أكثر من بلاء كل عدو له ، لأنه نهض بالإسلام من مأمنه ، وهذه ^(٢) من قواعده ، أشغل أهلهم بغير دينه ، وسب ^(٣) جميع الناصرين له والقائمين بحفظه وحياطته ، فوجب على أهل التقوى والمحامين عن دين ربهم ، والقائمين له بقسطه لعنه ، والبراءة منهم والعداوة لهم ، والإرصاد والإنتهاز لغرقهم ، والتربص بهم الدوائر ، عسى الله أن يمنحهم أكتافهم ، ويفرق على أيديهم جموعهم ، ويكبت عدوهم ، وينصر وليهم بسببهم وعلى أيديهم ، فهم والله لذلك مجزيون ، وإلى الله بتبشيرهم راغبون ، وعليهم مجلبون ، ولأعدائهم مباينون وإلى دينه داعون ، وعلى أعدائهم متعاونون ، ولا يعترهم في ذلك سئامة ، ولا تلحقهم فيه فترة ، لعلمهم بعظيم موقع ذلك من المنفعة للإسلام وأهله ، لا تأخذهم في الله لومة لائم ، مع ما قد أكد لهم ذلك من الروايات عن نبيهم صلى الله عليه وآله وسلم [وفعل أئمتهم ، كمن فعل ذلك بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم] في قتال أهل الصلاة ، الذين منعوا الزكاة ، قالوا: نحن نفرقها ، فقال لهم: لو منعوني عقلاً مما كانوا يعطونه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لقاتلتهم ، فقال

(١) في (أ) و(ب): فبان وبان لهم فيهم.

(٢) في جميع المخطوطات: وهذه. والصواب ما أثبت.

(٣) في (أ) و(ب): سلب.

له أصحاب النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: أليس قد قال النبي عليه السلام: «من قال لا إله إلا الله فقد حقن بها دمه وماله» ^(١) ، وقال بعضهم: إن فيها «إلا بحقها» ، وهو من حقها ، فلم يرض منهم إلا بالإعطاء أو المحاربة ، ولو كانت المحاربة لا تكون إلا لأهل الصلاة لمنعه أصحاب النبي عليه السلام!!

(١) عن أوس بن أبي أوس الثقفي قال: أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في وفد ثقيف قال: وكنت في أسفل القبة ليس فيها أحد إلا النبي صلى الله عليه وسلم نائم إذ أتاه رجل فساره فقال: اذهب فاقتله ، ثم قال: أليس يشهد أن لا إله إلا الله ، قال شعبة: وأشك أن محمداً رسول الله. قال: بلى ، قال: ((إني أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها حرمت علي دماؤهم وأموالهم إلا بحقها ، وحسابهم على الله)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ١/ص ١٨/ح ٢٥ ، ومسلم في صحيحه ج ١/ص ٥٢/ح ٢٠ ، وابن أبي الدنيا في الورع ج ١/ص ٤٨/ح ١٨ ، والنسائي في سننه ج ٥/ص ١٥/ح ٢٤٤٣ ، وابن حبان في صحيحه ج ١/ص ٤٠١/ح ١٧٤ ، وابن خزيمة في صحيحه ج ٤/ص ٧/ح ٢٢٤٧ ، والترمذي في سننه ج ٥/ص ٣/ح ٢٦٠٦ ، وابن ماجه في سننه ج ١/ص ٢٨/ح ٧١ ، وأبي داود في سننه ج ٢/ص ٥٦/ح ١٣٩٣ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ١١/ح ٦٧ ، والحاكم في مستدركه ج ١/ص ٥٤٤/ح ١٤٢٧ ، والطحاوي في شرح معاني الآثار ج ٣/ص ٢١٥/ح ٠ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٥١/ح ١١٠٨ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١/ص ٢١٨/ح ٥٩٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٨/ح ٢٢٢٣ ، والدارقطني في سننه ج ١/ص ٢٣٢/ح ٧ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٩٠/ح ١٢٩ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٢٩٦/ح ٢٧٢ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والمثاني ج ٣/ص ١٨٨/ح ١٥٢٣ ، وابن حنبل في فضائل الصحابة ج ١/ص ٣٨٤/ح ٥٧٧ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٤/ح ٢٠٣١ ، وأبو يعلى في مسنده ج ١/ص ٧١/ح ٦٨ ، وابن الجارود في المنتقى ج ١/ص ٢٥٨/ح ١٠٣٢ ، وهمام بن منبه في صحيفة همام ج ١/ص ٤٠/ح ٥٠ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٢/ص ٢٤٢/ح ٨٥٨٣ ، وابن أبي شيبة في مصنفه ج ١٠/ص ١٧٢/ح ١٨٧١٨ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٢٨٨/ح ٢٤٤٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٢٥٥/ح ٨٣٤.

فلما أجمعوا على التسليم وهم لا يجمعون ^(١) على خطأ ، ثم بدا لهم قبل قتال الكفار ، لعلمه بعظيم حذر ذلك على الإسلام إن فتحه عليهم ، وإن كان من منع الزكاة يجب قتاله ، فكيف بمن لم يدع منع الزكاة ولا غيرها مما ^(٢) هو أعظم منها إلا أتاه .

وعلى مثل ذلك وكان حرب علي بن أبي طالب عليه السلام للناكثين والقاسطين والمارقين ، وهم من أهل الصلاة ، وليس أحد من أولئك إلا وقد كان أقل معصية لله من معاوية حين ابتز الإمامة من المسلمين ، لأنه لم يكن في وقت من الأوقات أعظم إثماً منه حين استبد بالأمر دون الفضلاء بالقهر والسيوف ، ثم تخطى إلى قتل حجر بن عدي وأصحابه على ليلة من دمشق ، فكاتبهم عنده الأمر بالمعروف والنهي عن النكر ، وألحق زيادا بأبي سفيان ، خلافاً على الله وعلى رسوله ، في تركه للسنة المشهورة عن رسول الله صلى الله عليه [وآله وسلم] « أن الولد للفراش وللعاهر الحجر » ^(٣) . فسن قتل الصالحين الأمرين بالمعروف والناهيين عن المنكر ، وسن الفتك بالمؤمنين ،

(١) في (أ) و(ب): ما منعه أصحاب النبي عليه السلام ، فلم يجمعوا على التسليم لا يجمعون .

(٢) في (أ) و(ب): ممن .

(٣) أخرجه النسائي في سننه ٦/ص ٢٤٧/ح ٣٦٤١ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٤٣٤/ح ٢١٢٠ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٩٠٥/ح ٢٧١٢ ، وأبو داود في سننه ج ٣/ص ١١٤/ح ٢٨٧٠ ، وابن حنبل في مسنده ج ٤/ص ١٨٦/ح ١٧٧٠٠ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ١٥٤/ح ١١٢٧ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ٤/ص ٥٤/ح ٣٦٠٩ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ١٠٧/ح ٦٤٦٨ ، والدارقطني في سننه ج ٣/ص ٤١/ح ١٦٦٦ ، والطبراني في مسند الشاميين ج ١/ص ٣١٠/ح ٥٤١ ، وابن عمرو الشيباني في الآحاد والثاني ج ٢/ص ٩٠/ح ٧٨٨ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٦/ص ٢١٢/ح ١١٩٨٢ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٣/ص ٧٩/ح ١٥٠٨ ، وابن الجارود في المنتقى ١/ص ٢٣٩/ح ٩٤٩ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٢/ص ٩/ح ٥٨٥٩ ، وابن أبي شيبه في مصنفه ٤/ص ١٤٨/ح ٧٢٧٧ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣١٧/ح ٢٥٢٩ .

واتخاذ عباد الله خولا ، وماله دولا ، وأعداء الإسلام كسرى وقيصر أولياء ، فهو ثابت على تأسيسه إلى يومنا هذا ، بل يزداد كل يوم شرا وفسادا ، والحق اندراسا واضمحلالا ، وعلى أهله شدة ومحنة ووبالا وصغارا ، إلى أن يبعث الله أنصاره والذابين عنه ، والدافعين عن حريمه ، فيمددهم بمعونته عندما يعلم من حسن أنياهم في إعزاز دينه ، ونصر حريمه.

فمن لم يوجب مع ما شرحنا قتال الفئة الباغية كان رادا على الله وعلى رسوله بما أوجب في كتابه ، وأكد الرسول عليه السلام بقوله: « استقيموا لقريش ما استقاموا لكم ، فإن أبوا فخذوا سيوفكم على عواتقكم وأبيدوا حضراءهم »^(١) ، مع روايات في ذلك كثيرة قد ذكرناها قبل في كتابنا هذا.

ثم إن قوله إلى الطعن على الصحابة الوافين ، كأمر المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ، الذي لم يكن يفتر ولا يغفل من قتل أهل البغي دأبا مجتهدا ، حتى قال: « ما وجدت إلا قتالهم أو الكفر بما أنزل الله »^(٢) ، ولم يمتنع عليه إلا كل منقوص لا يهتدى به ، وكذلك فعل القراء وأصحاب الحديث والعلم في خروجهم عليه وغيره.

فإن قال القائل بذلك قولا لم يسلم عليه أحد من الأمة ، إذ الأمة في ذلك أربعة أصناف ، كلهم قد رأى السيف: المرجئة أصحاب أبي حنيفة. والشيعنة تراه مع أئمتها.

والمعتزلة.

والخوارج.

(١) سبق تخريجه.

(٢) فحج البلاغة خطبة/ ٤٣. البساط للناصر / ٩٩ بتحقيقنا. ووقعة صفين لنصر بن مزاحم المنقري

وقد خرج علماء أصحاب الحديث ، فإنما [يشك في هذا]^(١) من لا يرى ذلك من لا علم له ولا خشية في قلبه ، مثل ما في السنة القائمة والأخبار المأثورة عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] أنه قال: « المقتول دون ماله شهيد ودون جاره شهيد ، ودون مظلّمته شهيد »^(٢).

الذين رأوا السيف من الأمة أكثر ممن ادع النابتة الحشوية ، مع أنه يروى عن عبد الله [بن عمر] أنه قال: « ما آساء على شيء إلا صيام المواجر والقيام في

(١) العبارة في المخطوطات هكذا: فإنما نبعى في بدى. وهي مهملة ، وغير واضحة المعنى. وما أثبت للتقريب فقط ، والله أعلم بالصواب.

(٢) عن سعيد بن زيد قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد)).

أخرجه البخاري في صحيحه ج ٢/ص ٨٦٦/ح ٢٣٢٠ ، ومسلم في صحيحه ج ١/ص ١٢٥/ح ١٤١ ، والنسائي في سننه ج ٧/ص ١١٤/ح ٤٠٨٤ ، وابن حبان في صحيحه ج ٧/ص ٤٦٨/ح ٣١٩٤ ، والترمذي في سننه ج ٤/ص ٢٩/ح ١٤١٨ ، وابن ماجه في سننه ج ٢/ص ٨٦١/ح ٢٥٨٠ ، وأبو داود في سننه ج ٤/ص ٢٤٦/ح ٤٧٧٢ ، وابن حنبل في مسنده ج ١/ص ٧٩/ح ٥٩٠ ، والحاكم في مستدركه ج ٣/ص ٧٤٢/ح ٦٦٩٧ ، والطيالسي في مسنده ج ١/ص ٣٢/ح ٢٣٣ ، والحميدي في مسنده ج ١/ص ٤٥/ح ٨٣ ، والطبراني في معجمه الكبير ج ١/ص ١٥٣/ح ٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٢/ص ٣٠٩/ح ٣٥٤٧ ، والطبراني في معجمه الصغير ج ١/ص ١٤٧/ح ٢٢٣ ، والقضاعي في مسند الشهاب ج ١/ص ٢٢٣/ح ٣٤٠ ، وابن عمرو الشيباني في الأحاد والمثاني ج ١/ص ٤٠٩/ح ٥٦٧ ، والحاتر الهيثمي في مسنده (الزوائد) ج ٢/ص ٦٦١/ح ٦٣٦ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ٣/ص ٢٦٥/ح ٥٨٥٥ ، وأبو يعلى في مسنده ج ٢/ص ٩٠/ح ٧٤٤ ، وعبد بن حميد في مسنده ج ١/ص ٦٦/ح ١٠٥ ، وابن الجعد في مسنده ج ١/ص ٢٥٦/ح ١٦٩٨ ، وابن الجارود في المتقى ج ١/ص ٢٥٤/ح ١٠١٩ ، وابن أبي شيبه في مصنفه ج ١٠/ص ١١٥/ح ١٨٥٦٨ ، والدارمي في سننه ج ٢/ص ٣٤٧/ح ٢٦٠٦ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ١/ص ٢٤١/ح ٧٨٩.

آخر الليل وألا أكون قاتلت الفئة الباغية مع علي بن أبي طالب عليه السلام «^(١) ، وهذا بابن عمر أشبه ، فبهذا وأشباهة من الحجة ما أوجب أهل العلم بالله والإجلال لمقامه والغضب له قتال أهل البغي لما في إزالتهم من ظهور الإسلام وعلو أهله ، ولما في نياتهم من فساد جميع الإسلام وقتل الدائنين به ، والمحامين عليه ، والناصرين له ، والذين بذلوا مهجهم وأموالهم ، والمهاجرين عن أوطانهم في إحيائه وتأميل إعزازه ، أو تأتيهم آجالهم وهم على ذلك من حالهم ، ويكونون قد أبلغوا المعذرة فيما بينهم وبين خالقهم ، ولما خافوا من عقوبة التضييع لذلك ، وأخذوا بالإستطهار على أنفسهم ، لما سمعوا الله عز وجل يقول: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء: ١٠٧] ، ولا يجادل أحد عن أعداء الله ممن اقتطع بجذاله عن محاربه من ابتز أمر المسلمين. وعمر بن الخطاب يقول: « من ابتز إمرة المسلمين عن غير مشورة فاقتلوه »^(٢).

(١) عن سعيد بن جبير قال: ((لما أصيب ابن عمر قال: ما تركت خلفي شيئا من الدنيا آسى عليه غير ظمأ المواهر وغير مشى إلى الصلاة)) . أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه ج ٧/ص ٢٣٠ ح ٣٥٥٧٨ ، والطبراني في معجمه الأوسط ج ٨/ص ١٨ ح ٧٨٢٣.

(٢) عن عبد الرحمن بن عوف قال: حج عمر فأراد أن يخطب الناس خطبته فقال له عبد الرحمن بن عوف: أنه قد اجتمع عندك رعاك الناس وسفلتهم فأخر ذلك حتى تأتي المدينة ، قال: فلما قدم المدينة دنوت قريبا من المنبر فسمعتة يقول: إني قد عرفت أن ناسا يقولون: إن خلافة أبي بكر كانت فلتة وإن الله وقى شرها ، إنه لا خلافة إلا عن مشورة ، ولا يؤمر واحد منهما بغير أن يقتلا ، وإن ناسا يقولون: ما بال الرجم ، وإنما في كتاب الله الجلد ، وقد رجم رسول الله صلى الله عليه وسلم ورجمنا بعده ، ولولا أن يقولوا: أثبت في كتاب الله ما ليس فيه ، لأثبتها كما أنزلت)) . أخرجه ابن حنبل في مسنده ١/ص ٥٠ ح ٣٥٢ ، والنسائي في سننه الكبرى ج ٤/ص ٢٧٢ ح ٧١٥١ ، وعبد الرزاق في مصنفه ج ٧/ص ٤٣١ ح ٤٢٠٣٧.

وقال الله جل ثناؤه: ﴿وَلَا تَرْكُنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ...﴾ [هود: ١١٣] الآية ، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ...﴾ [المتحة: ١] الآية ، وقال: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا...﴾ [آل عمران: ١١٨] الآية ، فنهى تعالى وعز أن نجهم ولا يحبوننا بقوله: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُمْ مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنَّهُمْ﴾ [المائدة: ٥١] ، قال النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: «أَتَرَعُونَ عن ذكر الفاسق؟ فمتى يعرفه الناس؟! أذكروه بما فيه» (١)

أخبرنا يزيد بن محمد بن مقاتل أن النسيابوري قال: أخبرنا الجارود بن يزيد بن طريف بن حكيم ، عن أبيه ، عن جده ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وعلى آله: «أَتَرَعُونَ عن ذكر الفاسق متى يعرفه الناس؟!» (٢) ، قال الحسن: «لم يبق من فضل عبادة إلا الوقعة في أهل الريب» (٣) ، فشنتان الفاسقين أن يذكرهما بما فيهم نصحا للمسلمين ، أن يعرفوا (٤) بمعانيهم ، ويعلموهم حكم الله فيهم ، ليعينوهم (٥) بذلك على حربهم ، والعون لهم على إزالتهم ، ويمنعوهم بإفهامهم ما يجب من ذلك عليهم ، من ترك معونتهم والدخول معهم في أمورهم ، وأن لا يخاطبوهم ولا يلبسوهم ، ولا يزوجهم (٦)

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لم أقف عليه.

(٤) في (أ) و(ب): يعرفهم.

(٥) في (ج): ليتبعوهم.

(٦) في (أ) و(ب): ولا يزوجهم. وفي (ج): ولا يتوحوهم. ولعل الصواب ما أثبت.

فيتمنون لذلك دفع السوء عنهم ، وليكن حذرهم منهم على قدر معرفتهم ، وعلى حسب ذلك يكون عندهم كل من عصى ربه واتهك حُرْمَه ، أن تكون مباينته له ونفوره منه وبغضه له على قدر جنايته وجراءته وتقحمه ، وذلك أن الرجل ربما يخطب إليه حرمة فيخطبها فاسق معاين بفسقه ^(١) ، وهو لا يعرفه ، فيسأل عنه أهل الخبرة به ، فإن قالوا له بما فيه كانوا قد أدوا النصيحة ، لأنه فرض عليهم أن يتناصحوا ، وإن لم يقولوا له بما فيه كانوا قد خانوا ، كما قال أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: « من استشاره أخوه وأشار بغير رشده فقد خانته ، ومن خانته فقد خان الله ورسوله » ^(٢).

وكذلك في المعاملة وجميع ما يكون فيه المشاورة ، وإن لم يستشره فواجب أن ينهيه فيه ويشير فيه عليه بالصواب ، ويهديه فيه إلى الرشd والسداد ، فرض عليه أن يتديه فيه قَبْلَ أم ترك إذا أمكنه ، وإلا فقد خان الله ورسوله ، لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: « الدين النصيحة ، الدين النصيحة ، ثلاثا ، قيل: يا رسول الله لمن؟ قال: لله ولرسوله ولدينه ولكتابه ولجماعة المسلمين » ^(٣) ، وقال: « لا يكون المؤمن مؤمنا حتى يرضى للناس ما يرضى

(١) في (أ) و(ب): معين فسقه. مصحفة.

(٢) عن أبي هريرة قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((من تقول علي ما لم أقل فليتبوأ مقعده من النار ، ومن استشاره أخوه المسلم فأشار عليه بغير رشd فقد خانته ، ومن أفق فتيا بغير ثبت فإثمه على من أفناه)).

أخرجه البخاري في الأدب المفرد ١/ص ١٠٠/ح ٢٥٩ ، وابن حبل في مسنده ج ٢/ص ٣٢١/ح ٨٢٤٩ ، والمحاكم في مستدركه ج ١/ص ١٨٤/ح ٣٤٩ ، وابن راهويه في مسنده ج ١/ص ٣٤١/ح ٣٣٤ ، والبيهقي في سننه الكبرى ج ١٠/ص ١١٢/ح ٢٠١١١.

(٣) سبق تخريجه.

لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه» ^(١) ، فكما أنه يكره أن يكون على خطأ في قول أو فعل في أمر الدين والدنيا ، فلا ينبهه عليه نصحاؤه ، فكذلك يجب عليه لجميع الخلق النصيحة ، على ما يمكنه ويحد إليه سبيلا ، فكيف إذا استشاره؟! هذا به أولى ، وعليه أوجب ، وله ألزم ، فمتى رضي الفاسق عندما يُسأل عنه ، لم يكن ^(٢) قد أدى النصيحة إلى أخيه ، ولم يكن للفاجر حرمة ولا غيبة. هذا معنى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: « أترعون عن ذكر الفاجر حتى يعرفه الناس ، أذكروه بما فيه يعرفه الناس » ^(٣) ، وإنما الغيبة في الحقيقة المنهي عنها بقوله صلى الله عليه [وآله وسلم]: « من ذكر من أخيه ما فيه فقد اغتابه ، ومن قال فيه ما ليس فيه فقد بهته » ، فهو كما روى عنه صلى الله عليه وآله أنه رأى بعض نسائه عائشة وقد مرت مارية القطبية بها أم إبراهيم ابنه عليهما السلام ، وأشارت إليها بقدمها أنها قصيرة ، على وجه الهزوء منها ، والعيب لها بذلك ، فجعل النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم ذلك منها غيبه لها إذ عابتها فيها لا عيب فيه عنده ، وما ليس من كسبها.

وكذلك إذا غاب الرجل أخاه بقيق مخارج كلامه لنقص خلقه ، أو كل ما أشبه هذا مما لا فعل له فيه ، من قبحه في المنظر وغيره ، فهو غيبة لا يحل له ذلك ، وعليه الاستغفار والندم لما كان منه إليه. وكذلك إن عابه بأمر قد كان فعله وتاب منه ، أو عابه بأمر تشغله عن المناجاة ، على جهة الوقعة ، فهو

(١) لم أقف عليه.

(٢) في (أ) و(ب): فمن رمى الفاسق عندما يسأل عنه كان قد أدى. وفي (ج): فمتى رضي عن

الفاسق عندما يسأل عنه كان قد أدى النصح إلى أخيه سيما في الفاسق عندما يُسأل بأن قد أدى

النصيحة ولم يكن. ولفقت النص من الجميع.

(٣) سبق تخريجه.

غيبة لا يحل له ، فأما أن يقول فيه شيئا ليس فيه قل أو أكثر فهو هتب ، كما قال النبي عليه السلام ، فأما إذا كان فيه معصية قد أصر عليها ، أو لم يتب إلى الله منها ، فينبغي أن ينبهه على ذلك في ستر ، فإن لم يراجع فالواجب عليه هتكه والتنبيه على سوء حالته ^(١) أن يكون في ذلك هتك نفسه ، وإيجاب حد عليه في ظاهر الحكم ، إذا كان الذي اطلع عليه منه مستورا في الظاهر عند الناس ، فأما إذا لم يكن كذلك فالذي يجب عليه من هتكه ما قاله النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « أذكروه بما فيه يعرفه الناس ».

ومن ذلك ما روت عائشة ، والحارث بن ضرار الخزاعي ، وغيرهما : عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: « إن خزاعة أتت إلى النبي (ص) صلى الله عليه [وآله وسلم] فأسلموا وكان رئيسهم الحارث بن ضرار الخزاعي ، فقال: يا رسول الله إن بيننا وبينك هذا الحي من كفار قريش ، وإنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام ، وإني صائر إلى قومي فأجمع صدقات من أسلم منهم ، فإذا كان في رأس الحول أرسل إلينا من يقبض صدقاتنا ، فقال له النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: نعم ، ووعد ، فلما كان في رأس الحول أرسل إليه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] الوليد بن عقبة بن أبي معيط ، فلما صار في بعض الطريق خاف فرجع وقال: يا رسول الله أتيت الحارث بن ضرار وقومه فحددوا لي القتال وهموا بقتلي ، فوجه النبي صلى الله عليه [وآله وسلم] جيشا إلى الحارث بن ضرار وإلى خزاعة ، فلما كان الجيش في بعض الطريق لقيهم الحارث بن ضرار في سروات قومه وقد حملوا صدقاتهم ، فقال أمير الجيش: يا حارث بن ضرار أردت قتل رسول رسول الله ، ومنعت الزكاة ، وارثدت عن الإسلام! فقال الحارث: والذي بعثه بالحق ما أخرجني في سوات قومي إلا إبطاء خير رسول الله عني فقدم المدينة ، فلما أتى النبي صلى

(١) في (أ) و(ب): هتكه على سوء حلقه له أن.

الله عليه [وآله وسلم] قال: هيه يا حارث أردت قتل رسولي ، ومنعت الزكاة ، وحددت له لقتال؟! فقال الحارث: والذي بعثك بالحق ما أخرجني في سروات قومي إلا إبطاء خبرك عني ، وهذه صدقات قومي ، فأنزل الله جل ثناؤه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [المحجرات: ٦] ، فسمى الله الوليد بن عقبة فاسقا ، ونهاهم أن يقبلوا ما قال لهم الفاسق «^(١)» . وقال ابن مسعود: قال الوليد بن عقبة لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه: أنا أندى منك لسانا ، وأحد منك سنانا ، وأشد منك في الكتيبة جنانا ، فقال له عليه السلام: «اسكت فأنت فاسق فأنزل الله عز وجل: ﴿أَقَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُونَ﴾ [السجدة: ١٨] ، فسمى الله الوليد هاهنا: فاسقا»^(٢) .

فلا ينبغي لعبد أن يتورع عن ذكر الفاسق المعلن بفسقه ، والإمام الجاير وصاحب بدعة يدعو إلى بدعته ، ففرض على المؤمنين إخبار الناس بما فيهم ليحذروهم ، نصحا لله ولرسوله وللمسلمين ، وذلك من عرى الإيمان ، كما قال أبو ذر رحمة الله عليه عن النبي صلى الله عليه [وآله وسلم]: «أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله»^(٣) ، وقال الله جل ثناؤه: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا ءَابَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ...﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية ، فأهل المعرفة بالله والإجلال

(١) لم أفف عليه.

(٢) أخرجه ابن المغازلي في مناقبه / ٣٢٤ (٣٧٠) ، (٣٧١) ، وأحمد بن حنبل في الفضائل ، والبغدادي

في تاريخه ٣٢١/١٣ ، وابن جرير الطبري ٦١/٢١ ، وابن كثير في تفسيره ٤٦٢/٣ .

(٣) سبق تخريجه.

لمقامه هم الذين لا يتولون من حاد الله ورسوله: ﴿ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ... ﴾ [المجادلة: ٢٢] الآية.

وقد قال عبد الله بن مسعود: لا ينبغي لأولياء الله من أهل دار الخلود أن يكونوا من أولياء الشيطان ، من أهل دار الغرور في محبتهم ووهم ، فإذا لم يوادوهم ولم يخالطوهم كانوا قد وافقوا الله في محبته ، وأدوا إلى الله النصيحة فيهم. بما قالوا ، أو سخطوا عليهم ولعنوهم للعنة الله لهم وسخطه عليهم. فذلك هو الغضب كما قال علي بن أبي طالب عليه السلام: « ومن شئء الفاسقين غضب الله له » ، وبذلك فليقتد أهل العلم بالله والإجلال له ، ثم اعلّموا أن تثبيت الله وحبله لا ينقطع عن^(١) استمسك به ، ولا يذهب بمن تمسك به إلى غيره ، وعن قليل تنقطع الأسباب بالظالمين ، حتى يتبرأ بعضهم من بعض ، فبعدا للقوم الظالمين ،^(٢) والعاقبة للمتقين ، والحمد لله رب العالمين.

تم الكتاب والحمد لله ، وصلى الله على محمد النبي المصطفى وعلى آله وسلم تسليما ، ورحمهم وككرم كثيرًا مباركًا طيبًا.

(١) في (أ) و(ب): لمن.

(٢) سقط من (أ) و (ب): ما بين القوسين.

